

إنهم أصحاب رسول الله ﷺ

الدكتور محمد عبده يماني

(رحمه الله)

محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم

مؤسسة علوم القرآن

دار القبلة للثقافة الإسلامية



ⓒ دار القبلة للنشر والتوزيع ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
يماني، محمد عبده
إنهم أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم/ محمد عبده يماني،
مكة المكرّمة،١٤٢٥هـ
ص، ٢٤سم
ردمك٧-٤٠-٦٧٨-٩٩٦٠
١-الصحابة والتابعون العنوان
ديوي٢٣٩/٩ ١٤٢٥/٧١٧٣
رقم الإيداع: ١٤٢٥/٧١٧٣
ردمك٧-٤٠-٦٧٨-٩٩٦٠

الطبعَة الخَامِسَة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار القبلة للثقافة الإسلامية
جدة - المملكة العربية السعودية - تلفاكس:٦٦٥٩٩٥١

مؤسسة علوم القرآن Uloom alquraan EST.
دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧ موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٠٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com



الدكتور محمد عبده يماني
(رحمه الله)

دار القبلة للثقافة الإسلامية
مؤسسة علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام، وبعث إلينا خير الأنام، واصطفى له خير الرجال، رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكانوا هم الصحابة الذين وقفوا معه، وعضَّدُوه وصدَّقوه وصدقوا معه، ونقلوا عنه الأمانة بشرف وإخلاص، وبذلوا في سبيل الدعوة كل غالٍ من نفسٍ ومالٍ وجاه، وهاجروا وجاهدوا وصابروا وصبروا، حتى قال عنهم رسول الله ﷺ: «إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين»[1] ووصفهم عليه الصلاة والسلام بالخيريَّة فقال: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

وقد أثنى الله عز وجل على بذلهم وجهادهم وهجرتهم وإيثارهم فقال:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]

هكذا وصفهم القرآن: مهاجرين وأنصاراً، وأثنى على أفعالهم، وصدق جهادهم وتقواهم.

ولقد أحبهم رسول الله ﷺ، ودعا الأمة إلى حبهم والاقتداء بهم وحذَّر من أذيَّتهم أو سبِّهم فقال: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد عن جابر.

(٢) سورة الحشر: ٨-٩

الله فيوشك أن يأخذه»[١] وقال: «لاتسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً مابلغ مِدَّ أحدهم ولا نصيفَهُ»[٢]. فهم ثقاتٌ وهم عدولٌ، ثم هم قبل ذلك بشر يجوز عليهم الخطأ، ولكنهم تربوا في مدرسة النبوة، وأخذوا عن رسول الله ﷺ، الذي قال عن رجل منهم أخطأ حتى همّ عمر بقتله: «ومايدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال افعلوا ماشئتم فإني قد غفرت لكم» وقال لأهل بيعة الرضوان يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض» وهم يومئذٍ ألف وأربعمائة !

ولقد أمرنا الله تعالى بالدعاء لهم والاستغفار لذنوبهم والتأسي بهم وتوقيرهم والسكوت عمّا شجر بينهم، وسلامة الصدور نحوهم فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[٣].

وقد حرصت في هذا الكتاب الذي أقدمه بين يدي الناشئة، ان أبسِّط فيه سيرة هذه الصفوة الطيبة الطاهرة من صحابة رسول الله ﷺ، وأن يكون مستوعباً لأكثر صفاتهم وكمالاتهم، في صدق إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وتضحياتهم وجهادهم وزهدهم وورعهم وفي كراماتهم، وفي سلمهم وحربهم، لينهل شبابنا من هذا المنهل العذب ويأخذوا قطوفاً دانيةً مشرقة من سِيَرِهم، فهم الذين بلَّغوا عن رسول الله ﷺ، وجاهدوا معه، ونقلوا إلى الناس تلك السيرة النبوية العطرة، وكانوا النموذج الأمثل، والقدوة الحسنة، والأسوة الطيبة المباركة، لأنهم عاشوا معه، وتربوا في مدرسته، وأخلصوا له، وكانوا كما ذكرهم الله في التوراة والإنجيل:

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾[٤]

---

(١) رواه الإمام أحمد والحاكم وأبو يعلى والطبراني.

(٢) رواه البخاري.

(٣) سورة الحشر : ١٠

(٤) سورة الفتح: ٢٩

وقد حرصت في كتابي هذا على إظهار دورهم في حفظ القرآن العظيم، وهو الكتاب الذي تكفل الله بحفظه، وجعل ذلك على أيديهم، فكانوا هم المؤتمنين على هذا الحفظ، فأدوا الأمانة، وبلَّغوا الرسالة، ونصحوا الأمة، وكانوا بحق خير أمةٍ أخرجت للناس، ثم أوضحت دورهم في حفظ السنة النبوية المطهرة ونقلها وروايتها وإبلاغها للناس قولا وفعلا وعملا فجزاهم الله عن كتابه وعن رسوله وعن المسلمين خير ماجازى أصحاب الأنبياء عن أنبيائهم، وحملة الرسالات عن رسالاتهم، ورضي عنهم وأرضاهم.

وقد حرصت على ذكر بعض مواقفهم وتضحياتهم ونماذج من حياتهم وفقههم وعلمهم وشعرهم وأذكارهم، ثم ألقيت الضوء على جوانب من حياة بعض الصحابيات رضوان الله عليهن، وما تميَّزن به من تضحيات وصدق وأمانة،وما قمن به من أدوار مميزة ومواقف كريمة، وعطاء عظيم.

وفي الختام أسأل الله أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به وأستغفر الله العظيم من أي تقصير أو سهو أو خطأ، وما توفيقي إلا بالله وهو من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

محمد عبده يماني

من هو الصّحابي؟

الصحابي لقبٌ مشتقٌ من الصُّحبة التي تعني المخالطة والمعاشرة والمصاحبة، وقد أصبحت هذه الكلمة لقباً لكل من أكرمه الله تعالى بلقاء النبي ﷺ في حياته وآمن به ومات على ذلك، سواء أسلم قبل لقائه أو أسلم بين يديه، وسواء لقيَهُ مرَّة واحدة او تعدد لقاؤه له، وسواء صحبه وعاشره ولازَمه أم لم يلقه الا لقاءً عابراً ولو كان لحظة، وسواء رآه أم لم يرَه، كأن يكون أعمى، ويشترط في ثبوت الصحبة أن يظل على الإسلام حتى وفاته، فإن ارتدَّ ومات على ذلك سقطت صحبته، فإن عاد بعد الرِّدة إلى الإسلام ومات مسلماً فأرجح أقوال العلماء أنه صحابي، أما من لقيَه ولم يسلم في حياته فليس بصحابي، فلابد لثبوت الصحبة من شرطين هما: اللقاء والإسلام.

وتثبت الصُّحبة للصحابي رجلا كان أو امرأة بأحد الشروط الآتية:

١- أن تروى صحبته بالتواتر كصحبة الخلفاء الأربعة وبقية العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم كثير.

٢- أن تكون صحبته مشهورة ثابته مثل عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، ومعاوية بن أبي سفيان وكضمام بن ثعلبة وعكاشة بن محصن. وممن اشتهرن بصحبتهن من النساء: فاطمة بنت الخطاب، وأم رومان، وأم حرام بنت ملحان، والرُّبيّع بنت معوَّذ، رضي الله عنهم أجمعين.

٣- إخبار صحابي عن غيره بأنه صحابي أو كانت له صحبة.

٤- إخبار تابعي ثقة بنقل صحيح بأن فلانا من الصحابة له صحبة، وإن لم يبين مصدر خبره.

٥- إخبار الرجل عن نفسه أنه صحابي إذا كان ثقة عدلا، وإن تأخر علم الناس به، شرط أن تكون وفاته قبل انتهاء السنة العاشرة بعد المائة، لان النبي ﷺ كان قد أخبر قبيل وفاته فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لايبقى على وجه

الارض ممن هو اليوم عليها أحد».[1] فمن ادَّعى الصحبة بعد ذلك فلا تقبل دعواه.[2]

وإن ثبوت الصحبة لمن لقي النبي ﷺ ولو للحظة عابرة دليل على عُلوٍّ قدر النبي ﷺ وحصول السعادة لمن لقيه مسلما ومات على ذلك، وأن الله تعالى قد اصطفى لأفضل أنبيائه أفضل عباده ليكونوا له أصحاباً وأنصاراً، وذلك شرف عظيم يتمنى كل مسلم لو كان من أهله فيفوز فوزاً عظيماً. وقد قال ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلّا له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره»[3].

جيل الصحابة:

وخير الصحابة السابقون الأولون من قريش ومن أهل مكة الذين تحمَّلوا الأذى وضحّوا بالمال والوطن والراحة والجاه ابتغاء رضوان الله، وعادوا الأهل والعشيرة، وصبروا على الاضطهاد والمضايقة والجوع والعري طمعا بما عند الله... ويأتي بعدهم في علوِّ المنزلة، السابقون من الأنصار الذين دخلوا في الإسلام راغبين، ودعوا إلى الدين إخوانهم القريبين من الأوس والخزرج ومن سكن معهم في المدينة، وهم الذين نصروا إخوانهم المهاجرين، وآووهم وقاسموهم أموالهم وديارهم وجاهدوا معهم، حتى نصرهم الله وأعلى بهم كلمته وأظهر بهم دينه.

هذا هو تعريف الصحابي، والصحابة الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وكانوا رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

* * * *

---

(١) رواه البخاري.

(٢) ادّعى الصحبة بعد ذلك أناس كثيرون في أزمان متأخرة، وفي قرون كثيرة، وكلهم كذابون دجالون لايؤبه لقولهم منهم رتن الهندي وذلك بعد المائة السادسة من الهجرة، وقد قال عنه الذهبي في الميزان: هو رجل دجّال.

(٣) رواه مسلم.

الصحابة في القرآن الكريم

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا...﴾

هم أول من خوطب بالقرآن الكريم:

إن الصحابة الأبرار هم أول من خوطب بآيات الله عز وجل بعد رسول الله ﷺ، وهم أول من تلقى وحي الله تعالى عن رسوله الأمين، فقد كان ﷺ إذا نزل عليه شيء من القرآن تلاه عليهم، وكانوا يترقبون ما يأتي به الوحي ليقيموا به حياتهم، ويصبغوا به أرواحهم، ويزدادوا به إيمانا.

وقد كان تأثرهم بالقرآن عميقاً، وفهمهم له سريعاً، ولا عجب في ذلك فهم من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأرباب الشعر والحكمة.. والقرآن الكريم معجزة الخالق التي أعجزت الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وفي بيان تأثيره في القلوب قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ وهو الذي قالت الجن إذ سمعته: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. ويكفي الصحابة شرفا أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ؛ الذي كان قرآنا يمشي على الأرض، بكمال خلقه، وخشيته لربه، ورحمته لأمته...، وأنهم كانوا يرون رسول الله ﷺ ويشاهدون أحواله ويحبونه أشد الحب، ويتأسون به أحسن ما تكون الأسوة.

خير أمة أخرجت للناس:

يشهد الحق سبحانه للصحابة بأنهم خير أمة عرفتها الأرض، وهي شهادة عظيمة لا تعدلها شهادة، يقول الله تعالى فيها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ...﴾(١).

وكثير من أقوال العلماء أن المراد بالأمة في الآية هم الصحابة، فقد روى الطبري

---

(١) آل عمران: ١١٠

عن الضحاك أن المقصود بالأمة هم أصحاب رسول الله ﷺ خاصة، يعني هم الرواة الدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم.

وعن قتادة قال: كان الحسن - البصري - يقول: نحن آخرها وأكرمها على الله.

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنكم وفيتم سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله».

وقال الزمخشري في الكشاف: كأنه قيل: وجدتم خير أمة، وقيل: كنتم في علم الله خير أمة، وقيل: كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة.

وقيل: جاء ذلك لتقدم البشارة بالنبي ﷺ وأمته، والمعنى: كنتم عند من تقدمكم من أهل الكتب خير أمة.

وفي حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». لذلك قال أكثر العلماء: إن من صحب النبي ﷺ ورآه ولو مرة في عمره أفضل ممن يأتي بعده وإنَّ فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل.

تزكية الرسول ﷺ لهم:

كان رسول الله ﷺ رحمة الله للعالمين، وخيرته من خلقه أجمعين. ولقد امتن الله تعالى على الصحابة بما أظفرهم به من الصحبة لرسوله ﷺ وبتلقي الوحي عنه، وبما كان يقوم به من تربيتهم وتزكيتهم، وما كان يحثهم عليه من الفضائل والأعمال بعد أن كانوا في الضلال المبين. وقد وردت في بيان هذه النعمة الكبرى كثير من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

---

(١) آل عمران /١٦٤

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾[2]

إنهم الفئة المختارة التي أراد الله لها سعادة الدارين، فجعلهم أصحاب أكرم خلقه، وحملة آخر رسالاته للعالمين، وجعل رسوله ﷺ المربي لنفوسهم، والمطهر لقلوبهم، يتلو عليهم القرآن ويزكيهم مما كانوا عليه من خطأ الاعتقاد، وسوء الأخلاق، ومما كان بينهم من العداوة والبغضاء حتى صاروا به خير القرون على الإطلاق، بعد أن كانوا في الضلال المبين.

هم دعوة إبراهيم:

فقد وردت الإشارة إليهم في دعاء إبراهيم وولده إسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت وإسماعيل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

وكانت استجابة الله تعالى فيهم كاستجابته في بعثة خير خلقه وخاتم أنبيائه، فجعلهم وزراءه وأصحابه وأعوانه، وأعزّ بهم دينه، وأظهر بهم شريعته، وحفظ بهم كتابه، وجعلهم شهداءه على خلقه.

هم أولى الناس بإبراهيم:

اعتذر اليهود والنصارى عن اتِّباعِ النبي ﷺ بأنهم أتباع لإبراهيم عليه السلام،

---

(١) الجمعة/٢.

(٢) البقرة/١٥١.

(٣) البقرة/١٢٧-١٢٩.

فقالت اليهود إنَّ إبراهيم كان يهوديا ونحن أولى به، وقالت النصارى: إن إبراهيم كان نصرانياً ونحن أولى به، وقد رد الله قولهم وكذَّب مزاعمهم فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فقد أثبت تعالى للنبي ﷺ وللصحابة الكرام أنَّ أولى الناس بادعاء الانتماء إلى إبراهيم عليه السلام هم الذين آمنوا به وبالأنبياء الذين بعثهم الله من ذريته: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ...﴾[2] فلم يفرقوا بين أحد منهم، ولم يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما حكى القرآن الكريم ذلك عن اليهود.

الصحابة مسلمون عابدون مخلصون:

خاطب الله تعالى الصحابة خطاباً مباشراً، فأوحى إلى نبيه قوله تعالى:

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾[3]

وإذا تدبرنا هذه الآيات الكريمة فسوف نجد الله تعالى قد وصفهم بأكرم الصفات، فهم مؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل من قبلهم، وهم مسلمون، وهم قدوة لأهل الكتاب قبلهم، ولمن يأتي بعدهم، فما أعظمها من شهادة، وما أكرمها من

---

(١) آل عمران / ٦٨، ٦٧

(٢) البقرة : ١٣٦

(٣) البقرة/ ١٣٩، ١٣٦

خصال، وما أسماها من صفات!! وليس معنى هذا أن الخطاب في هذه الآيات وأمثالها موجهه للصحابة وحدهم، بل هو موجَّه للأمة كلها إلى قيام الساعة، ولكن الصحابة هم أول من ينطبق عليهم. وفي القرآن الكريم كثير من أمثال هذه الآيات الكريمة التي يوجه فيها الخطاب إلى الصحابة مباشرة، تعليماً لهم، وتزكيةً لقلوبهم، وثناءً عليهم، ووصفاً لأحوالهم، وما كانوا عليه من صدق الإيمان والجهاد، والبذل والتراحم والتعاون على البرِّ والتقوى.

شهداء الله على الناس:

خاطب الله الصحابة ومن ورائهم الأمة إلى يوم القيامة بقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾[1] بقوله تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[2].

وبتدبر هاتين الآيتين الكريمتين نلحظ ما يلي:

١ ـ أن الله عز وجل قد أعدَّهم لأمر كبير ودور مهم وجعلهم أمة وسطا وجعلهم مهيئين للقيام بهذا الشرف على أحسن وجه، وفطرهم على ذلك فطرة لا تفارقهم.

٢ ـ أن الله عز وجل قد جعلهم هداة للخلق أجمعين، فحملهم أمانة التبليغ عن رسوله ﷺ إلى من يأتي بعدهم وإن كل ما عرفه الناس عن هذا الدين فعن طريقهم، وكل هداية فبسببهم.

---

(١) البقرة/١٤٣

(٢) الحج/٧٨

٣ ـ أنهم أمة مفضلة مشرَّفة بتشريف الله عز وجل، فالوسط من كل شيء أعدَلُه وأحسنه وأفضله، لذلك بعث رسوله ﷺ في خير قبائل العرب، وخير بطون قريش، واختار له أمة أمية صالحة لأداء دورها في هداية الخلق لتكون شاهدة على الناس ومثلا أعلى للمسلمين جميعا إلى يوم القيامة.

٤ ـ أن أصحاب النبي ﷺ هم أمة الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا في أنحاء الأرض كلها وعند جميع الأمم. وقد كان الصحابة المثل الأعلى في ذلك، فعلى أيديهم وأيدي من تبعهم بإحسان من التابعين وتابعيهم فتح الله عليهم الأرض ودخلت في الإسلام أمم وشعوب كثيرة.

٥ ـ أن الله عز وجل قد اجتبى الصحابة لأداء هذه الوظيفة العظيمة، واختارهم من بين الأمم السابقة والمعاصرة لهم (هو اجتباكم) لما علمه من صلاحهم واستعدادهم. وكان هذا الاختيار من لدن سميع بصير قد أحاط بكل شيء علما.

٦ ـ أن أمة محمد ﷺ ـ والصحابة هم طليعة هذه الأمة وخيرها ـ هي أمة قد رفع الله تعالى عنها الحرج في دينها، ووسَّع عليها باب الرخص في العبادات والكفارات والديات وجعلها الأمة المرحومة في الكتب المتقدمة، فذكر أوصافها وسماها الأمة المسلمة وأحلَّ لها الطيبات وحرَّم عليها الخبائث ووضع عنها ما كان على الأمم السابقة من الآصار والأغلال.

٧ ـ أن اسم (المسلمين) خاص بهذه الأمة لم يطلق على غيرها من الأمم السابقة المؤمنة ولم تُسمَّ به غيرها. وقد رجَّح الإمام الطبري أن المراد من الضمير في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هو الله عز وجل وليس إبراهيم عليه السلام، فقال: ولا وجه لما قال ابن زيد من ذلك، لأنه معلوم أن إبراهيم لم يُسمِّ أمة محمد مسلمين في القرآن، لأن القرآن أُنزل من بعده بزمن طويل، وقد قال الله تعالى ذكره:

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ من قبل وفي هذا، ولكن الذي

سمانا مسلمين من قبل نزول القرآن وفي القرآن الله الذي لم يزل ولا يزال.

٨- أن الله تعالى جعل رسوله ﷺ شهيداً على الصحابة بأنه قد بلَّغهم الدين كاملا، وجعل الصحابة شهداء الله على من يأتي بعدهم بأنهم قد بلغوهم الدين ومن هذه الشهادة أن أمة محمد ﷺ تشهد للرسل الذين كذبتهم أقوامهم أنهم قد بلَّغوا ما أرسلوا به.

فقد روى البخاري عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: يجئ نوح وأمته فيقول الله تعالى:هل بلغت؟ فيقول: نعم أي ربِّ. فيقول لأمته: هل بلَّغتكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فتشهد أنه قد بلَّغ، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1].

حبب إليهم الإيمان وزينَّه في قلوبهم:

وفي سورة الحجرات يخاطب الحق سبحانه الصحابة خطاباً مباشراً - ومن ورائهم الأمة المسلمة إلى يوم القيامة - فيقول: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[2]

ومن تدبر الآية الكريمة نجد أن الله تعالى يمتنُّ على الصحابة بأمورٍ أهمها مايلي:

١ - فضله الكبير عليهم إذ جعلهم أصحاب نبيه ﷺ يعيشون معه، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وأن ذلك نعمة عظيمة لم يعطها الله غيرهم، فهم أسعد الناس بصحبته ومعاشرته والنظر إليه وتلقي الوحي عنه ومعرفة أحواله في خشوعه وخضوعه وتواضعه وتوكله على ربه، وزهده في دنياه فتسري بهم أحواله، وتؤثر فيهم أقواله.

---

(١) رواه البخاري والإمام احمد والترمزي وابن حبان.

(٢) الحجرات/٧

٢ ـ أنه قد طهَّر قلوبهم من الشِّرك وأحوال الجاهلية حتى غدوا مؤمنين صالحين قانتين، وأنه حبب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم حتى صار حب الله ورسوله أحب إليهم من أنفسهم وأنه كره إليهم الكفر وماكانوا عليه في ا لجاهلية من عقائد وعادات حتى صاروا راشدين هادين مهديين، وصار حب الخير سجية فيهم.

٣ ـ أنهم مهتدون راشدون ثابتون على ماهم عليه، فليطمئنوا بالاً وليطيبوا نفوساً، بعد أن صاروا أولياء الله وأنصار رسوله والله تعالى شاهد لهم على ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

٤ ـ أن ذلك كله كان بفضل من الله وتوفيقه وإنعامه وأن هؤلاء الصحابة ماكان لهم أن يبلغوا هذه الدرجات العلى إلّا بتمام طاعتهم لله ورسوله وبما علمه الله في قلوبهم، ولو لم يكونوا أهلاً لهذا الخير ما اختارهم له وأنعم عليهم به: ﴿ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

الصحابة في التوراة:

جاء ذكر الصحابة رضوان الله عليهم في التوراة حين سأل موسى عليه السلام ربه معتذراً عما فعله أصحابه الذين ذكر أنه اختارهم ليسمعوا تكليم الله له، فلما سمعوا ذلك سألوه أن يروا الله جهرة فأخذتهم الرجفة وكادوا أن يهلكوا فقال موسى:

﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1] ويظهر من الآيات البينات أن الله تعالى قد بين لنبيه موسى عليه السلام أن أكثر أمته قوم فاسقون، وأن القليلين منهم أتقياء صالحون، وهؤلاء هم الذين سيدخلهم في رحمته، وأما الذين سيدخلهم في رحمته جميعا فهم أصحاب النبي الأمي الموصوف في التوراة والإنجيل، فهؤلاء هم أولياء الله وأنصاره، وهم المتقون الصادقون الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ويبذلون أرواحهم ابتغاء رضوان الله ويلحق بهؤلاء من آمن بهذا النبي من اليهود والنصارى الذين يتَّبعون هذا النبي ويؤازرون أصحابه وهم قليلون، وهؤلاء الصحابة ومن تبعهم الذين يعظمون هذا النبي ويوقِّرونه وينصرونه، ويحرصون على سلامته ويموتون دفاعا عنه وعن دعوته، فهؤلاء هم أولياء الله الذين سيحلُّ عليهم رضوانه ويدخلهم في رحمته وأولئك هم المفلحون.

قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية:

هذا القول إبانة من الله جل ثناؤه عن أن الذين وعد موسى نبيه عليه السلام أن يكتب لهم الرحمة التي وصفها جل ثناؤه بقوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ هم أمة محمد ﷺ لأنه لا يعلم لله رسول وصف بهذه الصفة - أعني الأمي - غير نبينا محمد ﷺ وبذلك جاءت الروايات عن أهل التأويل[2] ا.هـ

ومن الآيات التي تتحدث عن الصحابة في التوراة وما حباهم الله به من الفضل وما كانوا عليه من الخصال الكريمة، الآية الأخيرة من سورة الفتح. واعلم أنه لو لم يكن في القرآن الكريم آية غيرها في صفات الصحابة لكانت وحدها كافية في الشهادة لهم بأنهم خير القرون على الإطلاق، فكيف إذا علمنا أن في سورة الفتح آيات كثيرة تتحدث عن أهل بيعة الرضوان وما أكرمهم به الله من إنزال السكينة على قلوبهم،

---

(١) الاعراف /١٥٥-١٥٧.

(٢) تفسير الطبري ج٦/٥٧.

وزيادة إيمانهم وتكفير سيئاتهم ووعد الله لهم بدخول جناته، وإحلال رضوانه عليهم والشهادة لهم بكثرة ذكره، وصدق حبهم وتوقيرهم للنبي ﷺ، والشهادة أنهم بررة أتقياء صالحون، وأنهم ثابتون على إيمانهم وتقواهم حتى لقاء ربهم، ثم وعد الله لهم بدخول بيته الحرام آمنين، وبنصره لهم وإظهار دينه على أيديهم. وفي القرآن الكريم أيضا عشرات الآيات الأخرى التي تتحدث عن الصحابة وفضلهم وأخلاقهم وجهادهم وإيثارهم وصدقهم وتقواهم. ولو تحدثنا عن ذلك بتفصيل لطال بنا الحديث جدا، ولكننا نكتفي بالآية الأخيرة من سورة الفتح، وفيها نقرأ قول الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[1]. وهذه صفات عظيمة، وشهادة من رب العزة والجلال لهذه الفئة من الذين أكرمهم الله بصحبة حبيبه ونبيِّه ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ.

فضل السابقين من المهاجرين والأنصار:

١ ـ منقبة لم يعطها الله تعالى أحداً غيرهم، وتشمل عبارة ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ كل الصحابة دون استثناء من كان فيهم حاضراً يوم الحديبية وبيعة الرضوان ومن لم يحضر، وليعمَّ اللفظ كل من سينالون شرف الصحبة من الذين أسلموا قبل الصلح والذين أسلموا بعده، فهؤلاء جميعا داخلون معهم، موصوفون بصفاتهم.

٢ ـ هم موصوفون بهذه الصفات في التوراة والإنجيل مذكورون بها قبل أن يخلقهم الله تعالى بقرون كثيرة، ليجعلهم مثلاً أعلى تتطلع إليهم الأمم السابقة لهم، واللاحقة بهم إلى يوم القيامة، وتخص الآية بالذكر أُمَّتين عظيمتين من هذه الأمم هما أمة

---

(١) الفتح /٢٩

موسى وأمة عيسى عليهما الصلاة والسلام، وهما أعظم أمتين انتهى إليهما ميراث النبوة، وخصهما الله بكتابين عظيمين منيرين هما التوراة والإنجيل.

٣ ـ ومما يدل على فضل هؤلاء الصحابة أن الله قد ضرب لهم مثلين مختلفين، فهم في التوراة: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ إنهم بشهادة الله عز وجل: مجاهدون صادقون أقوياء، وهم أشداء على الكفار، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وقد سجل لهم التاريخ المواقف العظيمة التي تثبت ذلك سواء في الغزوات التي خاضوها ضد أهلهم وقراباتهم، أو في معارك الفتوح والجهاد التي خاضوها ضد أعدائهم.

٤ ـ وهم بشهادة الله تعالى متَّصفون فيما بينهم بالرحمة، وهي صفة تدل على علو أخلاقهم، وأنهم متآخون في الله، قد ألَّف الإيمان بين قلوبهم. إن رابطة الإيمان هي التي تجمعهم، وهي أقدس الروابط وأعظمها نفعاً للناس، فكل من دخل في دينهم هو أخوهم يحبون له مايحبون لأنفسهم، ويدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم ونسائهم وأنفسهم.

خشوعهم وخشيتهم تجعلهم القدوة بعد رسول الله فمن المعروف عنهم أنهم إذا جنَّ عليهم الليل ونامت العيون: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ فهم رهبان في الليل، ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وهم صادقون في عبادتهم لاتراهم أعين الناس، ولايعلم بهم إلا الله الذي يراهم في قيامهم وركوعهم وسجودهم يدعونه رغبة ورهبة، وتضرعاً وخفية يتأسون في ذلك بالنبي ﷺ.

٥ ـ وليس لهؤلاء الصحابة غاية في سهرهم ونصبهم الا رضوان الله، والتقرب إليه بما يحب من النوافل والقربات، ولكثرة قيامهم وسجودهم فإنك ترى في وجوههم آثار السجود خشوعا في القلب، ودماثة في الخلق، وتقرحا في الجباه، وقد جاء عنهم

في الآثار أن بين أعينهم كركب المعزى من أثر السجود.

مثلهم في الإنجيل:

أما في الإنجيل فإن الله تعالى ضرب لهم مثلا آخر: أنهم كزرع نبتت أوائله وأفراخه، ثم نبتت فراخ وأفراخ[1] أخرى حتى كثر وغطّى الأرض، ولم يزل ينمو حتى اشتد وأثمر أجود الثمر. وقد وصف الله تعالى هذا الزرع بأن فيه من الخضرة والبهاء والجمال وقوة الإنبات ووفرة الثمر مايبعث في قلوب الزراع الفرحة والاستبشار، والراحة والسرور. ثم تفاجئنا الآية الكريمة بأن هذا الزرع سوف يصبح قوة بشرية إسلامية عظيمة تجاهد الكفار، وتبعث في قلوبهم الخوف والغيظ.

وقد ضرب الإنجيل لهم مثلا بالزرع، لأنهم بدأوا في الدخول في الإسلام وهم قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، وتدخل معهم الجماعة بعد الجماعة، وآزر بعضهم بعضا، وجاهدوا في سبيل الله غزوة بعد غزوة، حتى وصل عددهم إلى عشرة آلاف في فتح مكة، وبلغ عددهم بعد ذلك في غزوة تبوك ثلاثين ألفا، فلما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع حج معه أكثر من مائة ألف من الصحابة.

وقد جاء وصف الصحابة في الإنجيل في قول عيسى عليه السلام لأصحابه: أيها الإخوة إن القدر بالغ السرية، حتى إنني لأقول لكم بالحق: إنه لا يعرفه بجلاء إلا إنسان واحد فقط - يعني النبي ﷺ - هو الذي ترنو إليه الأمم، والذي له تنكشف أسرار الله بجلاء، حتى إنه عندما سيأتي إلى الدنيا، فلسوف يبارك الله هؤلاء الذين سيصغون لكلماته - يعني الصحابة - لأن الله سوف يظلهم برحمته، تماما كما تظلنا هذه النخلة.. هكذا تماما سوف تحمي رحمة الله من الشيطان أولئك الذين يؤمنون بهذا الرجل!!

أجاب الحواريون: أيها المعلم، من سيكون هذا الرجل الذي تتحدث عنه، الذي سيجيء إلى الدنيا؟

أجاب عيسى بابتهاج: إنه محمد رسول الله، وعندما سيجيء إلى الدنيا سيكون

---

(١) أفراخ جمع فرخ وهو ولد الطائر وكل صغير من الحيوان والنبات..

تماما مثل الغيث، يجعل الأرض تجود بالفاكهة بعد انقطاع المطر لزمان طويل.

هكذا تماما سيكون مجيئه فرصة للأعمال الصالحات بين الناس، من خلال الرحمة الفياضة التي سيأتي بها. إنها السحابة البيضاء المليئة برحمة الله، بتلك الرحمة التي سوف ينثرها الله على المؤمنين كأنها الغيث[1].

هذه صفات الصحابة في التوراة والإنجيل، وتلك سماتهم، ذكرهم الله تعالى قبل أن يظهروا على مسرح الوجود بمئات السنين ليكونوا مثلا للعابدين والزاهدين والمجاهدين في كل أمة صالحة من بني إسرائيل، وقدوة لكل من يأتي بعدهم من المسلمين. ولا عجب في ذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[2] وفي رواية الترمذي: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة».

كيف كانوا يتلقون القرآن:

نزل كثير من القرآن الكريم في المناسبات المختلفة، تنزل فيها الآية أو الآيات رداً على سؤال أو بيانا لحال، أو تصحيحاً لموقف، أو تنزيلا لحكم، أو خروجا من حرج، وتعرف هذه المناسبات بأسباب النزول. فلنسمع أبا هريرة رضي الله عنه وهو يصف حال الصحابة وهم يتلقون إحدى آيات هذا الكتاب العزيز. قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم وذلَّت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى في أثرها:

---

(١) إنجيل برنابا، فصل ١٦٣ ترجمة الدكتور أحمد غنيم ١٩٩٣.

(٢) رواه البخاري .

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى فأنزل عز وجل:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ قال: نعم ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال: نعم.

والقائل: (نعم) هو الله عز وجل، ومعناها: قد أعطيتكم ما تسألون، وكل ذلك لكم. وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال الله: ﴿قد فعلت﴾ بدل ﴿نعم﴾ في المواضع الثلاثة وهي في المعنى نفسه.

وفي رواية لابن عباس أنهم قالوا حين نزلت: يارسول الله هلكنا، إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله: قولوا سمعنا وأطعنا، فقالوا: سمعنا وأطعنا، فنسختها هذه الآية ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾ فتجوز لهم عن حديث النفس، وأُخذوا بالأعمال.

قال ابن عباس فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار ا الأمر إلى ان قضى الله عز وجل أن للنفس ماكسبت، وعليها ما اكتسبت في القول والفعل !

وقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «أن الله تجاوز عن أمتي ماحدَّثت به أنفسها، مالم تكلم أو تعمل». وفي حديث لمسلم والنسائي عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء مافتح قط، قال فنزل منه ملك، فأتى النبي

ﷺ فقال: ابشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفا منها إلّا أوتيته.

ومن ينظر بعمق في هذا السلوك للصحابة رضوان الله عليهم يجد أنهم كانوا يأخذون أنفسهم بآيات القرآن، ويلتزمون بتطبيقها في حياتهم، حتى أصبح كل صحابي قرآنا يمشي على الأرض، كما كان رسول الله ﷺ كذلك، وقد امتثلوا في ذلك قول الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، فبلغ خوفهم من الله تعالى هذا المبلغ العظيم.

وانظر وتأمل سعة رحمة الله تعالى بهؤلاء الصحابة وبهذه الأمة المحمدية التي خفف الله عنها، فلم يؤاخذها بنسيان ولا خطأ، ولم يحملها ما لاتطيق من التكاليف الشرعية، ووضع عنها الأغلال والقيود التي كانت على ماقبلها من الأمم، وفتح أمامها باب التوبة والاستغفار وأخذ على نفسه أن يعطيها كل ما تسأله إياه في سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، بل وفي كل آية فيها دعاء وتوبة واستغفار، فلك الحمد ربنا على ماهديتنا وما أنعمت به علينا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

هذا إذاً هو وصف الصحابة في القرآن، ومنه تظهر مكانتهم وحقهم علينا وواجبنا نحوهم رضي الله عنهم وأرضاهم وجزاهم عنا خير الجزاء.

* * * *

الصحابة في السنة النبوية

«خير القرون قرني..»

خير القرون:

جاءت الأحاديث الشريفة الكثيرة عن النبي ﷺ شاهدة للصحابة بأنهم خير من عاش على الأرض بعد الأنبياء، وذلك بفضل صحبتهم للنبي ﷺ، وشدة تأثرهم به، ومعرفتهم لأحواله في أخلاقه وعبادته وخشيته.. فكانوا بذلك أقرب النماذج البشرية تشبهاً به، واتباعاً له، وسيراً على هداه. وقد سرت أحوالهم وأخلاقهم فيمن جاء بعدهم وعاشرهم، وأخذ العلم والإيمان والأخلاق عنهم، فكان هؤلاء أقرب الناس شبهاً بأولئك الصحابة، فلما جاء الجيل الذي بعدهم كان هذا الجيل أقرب النماذج للَّذي قبله فكانت هذه الأجيال الثلاثة خير القرون على الإطلاق. وقد سبقت الأحاديث الدالة على ذلك، ونعيدها ليرسخ في القلوب مفهومها، فقد بين رسول الله ﷺ خيرية هذه الأجيال فقال: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1] وفي رواية عن عبد الله بن مغفل: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». وعن جابر رضي الله عنه: «إنَّ الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين»[2] وفي رواية للشيخين عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا.

نهيه عن سبِّهم:

وقد أوجب رسول الله ﷺ على الأمة احترامهم وتوقيرهم فقال: «لا تسبوا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البزار بسند رجاله ثقات .

أصحابي فلو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[1] وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه وبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون عن دينه»

وعن وكيع قال: سمعت سفيان يقول في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ هم أصحاب محمد ﷺ.

حبهم وتوقيرهم:

أوجب الله عز وجل ورسوله ﷺ على المسلمين حب الصحابة وخلو قلوب المؤمنين من بغضهم والغلَّ عليهم، كما أوجب الدعاء لهم على ما أسدوا للإسلام والمسلمين من معروف، فإن كل من دخل في الإسلام في زمانهم كان بسببهم وبفضل جهادهم وعظيم تضحياتهم، وكل من وحَّد الله وعَبَدَه مخلصاً له الدين إلى يوم القيامة كان توحيده وعبادته وهدايته ثمرة من ثمراتهم، فهم الذين حفظوا القرآن الكريم في صدورهم، وهم الذين كتبوه في المصاحف التي نقل عنها المسلمون في كافة أقطارهم، وهم الذين حفظوا سنة رسول الله ﷺ وبلَّغوها من بعدهم، ورَوَّوْها لطلابها من العلماء والفقهاء والرُّواة، وهم الذين بهم حفظ الله تعالى كتابه وسنة رسوله وهما أساس الدين وأصل الإسلام، وقد أوجب القرآن الكريم والسنة الشريفة حبَّ الصحابة وتوقيرهم كما ثبت ذلك بالنصوص الكثيرة.

وقد كافأ الله عز وجل الأنصار على بذلهم ومعروفهم فجعل حبهم علامة الإيمان، وبغضهم علامة النفاق، فقد روى البخاري قول رسول الله ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله..» وروى أيضا أنه ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار..» ورأى رسول الله ﷺ بعض نساء الأنصار والصبيان مقبلين من عرس فقال: «اللهم

---

(١) متفق عليه

أنتم من أحب الناس إلي... ثلاثاً..».

قال ابن حجر: والأحاديث الواردة في تفضيل الصحابة كثيرة، من أدلها على المقصود ما رواه الترمذي في سننه وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن مغفل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الله الله في أصحابي لاتتخذوهم غرضاً، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه».

ثم نقل عن ابن حزم قوله: الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً، ولكنهم يتفاوتون في الدرجات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٢) فثبت أن الجميع من أهل الجنة، وأنه لايدخل أحد منهم النار، لأنهم المخاطبون بالآية السابقة.

* * * *

(١) سورة

(٢) سورة

الإجماع على عدالتهم:

أجمعت الأمة على أن الصحابة كلهم عدول، ولم يخالف في ذلك إلّا شذوذ، وقد نقل الحافظ ابن حجر في كتابه: «الإصابة» عن الخطيب في «الكفاية» فصلا نفيسا في ذلك فقال: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم، فمن ذلك قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ....﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ أي فضلى، وقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ......﴾ وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ....﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ثم قال: وقد جاء ذلك في آيات كثيرة وأحاديث عديدة، وجميع ذلك يقتضي القطع بتعديلهم، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله لهم إلى تعديل أحد من الخلق، على أنه لو لم يرد عن الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرنا لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الإسلام وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأبناء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين القطعَ على تعديلهم والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم كافة أفضل من جميع الخالفين بعدهم، والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم، هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتمد قوله ا. هـ.

ثم بين ابن حجر رحمه الله حقيقة أعداء الصحابة فروى بسنده إلى أبي زرعة الرازي قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق[1]، وذلك أن الرسول حق، والقرآنَ حق، وما جاء به حق، وإنما أدَّى الينا ذلك كله الصحابة.

ويروي ابن عبد البر عن مهدي بن ميمون قال: سمعت غيلان بن جرير قال: قلت لأنس بن مالك: يا أبا حمزة أرأيت اسم الأنصار اسم سماكم الله به أم أنتم كنتم تسمون به؟ قال: بل اسم سمانا الله به. ثم قال: وقال أبو عمرو رضي الله عنه: إنما وضع الله عز وجل أصحاب رسوله بالموضع الذي وضعهم فيه بثنائه عليهم من العدالة والدين والأمانة لتقوم الحجة على جميع أهل الملة بما أدَّوه عن نبيهم من فريضة وسنة، فصلى الله عليه، ورضي عنهم أجمعين، فنعم العون كانوا على الدين في تبليغهم عنه إلى من بعدهم من المسلمين. ا.هـ.

الاقتداء بهم:

لقد اختار الله تعالى أصحاب النبي ﷺ على العالمين، وهم في المرتبة الثانية بعد الأنبياء والمرسلين كما رأينا ذلك بالأحاديث الصحيحة، وجعلهم الله عز وجل نماذج عالية لكمال الإيمان، ورسوخ اليقين، وصدق التوكل، وإخلاص الدين والعبادة التي يملؤها الخشوع والورع الصادق، والخشية من الله تعالى في الظاهر والباطن والسر والعلانية، والاستقامة على الدين، والتمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما بما لانظير له، فهم لذلك القدوة الصالحة، والأمة المفضلة على كل العصور، لذلك نرى الأخيار في كل قرون الأمة الإسلامية يبحثون عن أخبارهم، ويفتشون عن سيرهم، ويقرأون تاريخهم ويتشبهون بهم، ويسيرون على منوالهم، وهم كما قال الشاعر:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

(١) الزنديق: هو أحد جماعة عبد الله ابن سبأ الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

وقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين لأنهم القدوة العليا فقال: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ..»[1] وجعل ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما مزيد منزلة وعلوَّ مرتبة في السنَّة، وجعل ما يسنَّانه جزءاً من السنة الشريفة فقال: «إني لاأدري قدر بقائي فيكم فاقتدوا باللَّذين من بعدي، (أبي بكر وعمر) واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه»[2] وسئل ﷺ عن الفرقة الناجية فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»[3].

وأخرج رزين عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «سألت ربي عن اختلاف أصحابي من بعدي فأوحى إلي: يا محمد أصحابك عندي بمنزلة النجوم من السماء بعضها أقوى من بعض ولكل نور، فمن أخذ بشيء مما هم عليه من اختلاف فهو عندي على هدى». وأخرج الترمذي عن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم».

وأخرج أبو نعيم كذلك في الحلية عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «من كان مستناً فليستن بمن مات، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة».

وأخرج أبو نعيم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أنتم أكثر صياما وأكثر صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا خيرا منكم، قالوا: لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة، وأخرج أبو نعيم عن قتادة قال: سئل ابن عمر رضي الله عنهما: هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون؟

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي عن العرباض بن وسارية.

(٢) أخرجه الترمذي عن حذيفة.

(٣) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو.

قال: نعم، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال. فهم بشر كسائر البشر، ولكنهم سعدوا بالصحبة لرسول الله ﷺ، وشاهدوه وتربوا في مدرسة النبوة، فكانوا خير من آمن، وصدق، وجاهد، رضي الله عنهم جميعا.

السكوت عما جرى بينهم:

ظل الصحابة في أيام الخلفاء الراشدين الأربعة على ما وصفهم الله تعالى من الايمان والإحسان والتراحم والتآلف والتحابب والتناصر، أشداء على الكفار رحماء بينهم.. قد انصرفوا في حياتهم إلى الجهاد في سبيل الله، ودعوة الناس إلى الله، فهدى الله بهم العباد، وفتح البلاد، وأنقذ بهم كثيرا من شعوب الأرض من النار.

اجتهدوا فاختلفوا وهم مأجورون:

ثم وقع بين المسلمين ما وقع بعد استشهاد سيدنا عثمان رضي الله عنه من الفتنة التي أشعل نارها عبد الله بن سبأ وجماعته، وحدثت على إثرها بين المسلمين وقعتان عظيمتان فرّقتا صفوف الأمة، وجرّتا عليها كثيرا من المصائب والآلام، كان الصحابة خلالها ناصحين مجتهدين، كل فريق يرى أنه على الحق ويسعى إليه:

- فئة تطالب بالقصاص من قتلة عثمان وترى أن القصاص في أعناق المسلمين جميعا لا يجوز تأخيره وكان في مقدمة هؤلاء طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ومعاوية.

- ورأى سيدنا علي ~، وهو المعروف بالذكاء والحكمة والوعي بأبعاد المرحلة الحرجة التي تمر بها الأمة في ذلك الوقت العصيب، أن معالجة الأمر تحتاج إلى سياسة حكيمة وتصرف يحقق الهدف الأسمى وهو: القصاص من قتلة سيدنا عثمان ~ من ناحية والحفاظ على تماسك الأمة من ناحية أخرى، ولهذا فقد رأى بصائب نظرته أن إقامة القصاص على القتلة غير ممكن في ذلك الظرف العصيب، وغالب الثوار والقتلة من أبناء القبائل، وهم قريبو عهد بجاهلية، وأن قتلهم سيثير حمية قبائلهم، وقد انضم إليهم كثير من الفقراء والعبيد ومن الأعراب حول المدينة، وأصبحوا متحكمين في الأمر، يفرضون على الناس ما يريدون، ولهذا رأى سيدنا علي رضي الله

عنه أهمية معالجة الأمر بحكمةٍ وتريُّثٍ وتدبر، ولم يهمل قطُّ في موضوع القصاص، ولكنه آثر الصبر وتدبر الأمر، ثم التحرك في الوقت المناسب.

ورأت طائفة ثالثة من الصحابة اعتزال الفريقين لأنها لم تستطع أن تتبين أي الفريقين كان على الحق فوقفت على الحياد فلم تشترك بسيوفها، وأمسكت ألسنتها عن الخوض فيما حدث، واعتبرت ذلك فتنة أصابت المسلمين بما وقع من قتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ~.

حرصوا على الصلح ولكن:

من الاختلاف ما وقع وأدى ذلك إلى موقعة صفين، وقد دارت بينهما مفاوضات كثيرة قبل المعركة ثم عقدا بينهما هدنة لمدة شهر طمعا في الصلح ولكن المفاوضين لم يوفقوا إلى ذلك ثم انتهى الأمر إلى القتال.. ولم يكن أحد من الصحابة في كلا الفريقين طالب دنيا، بل قدَّم كثير منهم دماءَهم دفاعاً عن الحق الذي رأوه، وكانوا بذلك مجتهدين معذورين، ولاشك أن الحق كان في جانب الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، والواجب على المسلمين أن يسكتوا عما وقع بين الصحابة من الاختلاف إلا لمن أراد بيان وجه الحق في ذلك والدفاع عنهم لمن اشتبه عليه الأمر، فيكون الخوض في هذه المسألة لتبرئة الصحابة، وقطع ألسنة الخائضين فيهم بغير علم، والقائلين فيهم بغير حق سواء كان هؤلاء ممن خاضوا في الصحابة تأثراً بأعدائهم والحاقدين عليهم من الفرق الضالة، أو تأثراً بالمستشرقين الذين يجدون فيما بين أيديهم من روايات المؤرخين واختراعات الوضاعين مادة خصبة لتشويه تاريخ الإسلام وتاريخ الصحابة الكرام، إرضاءً لأهوائهم وأحقادهم على الإسلام وأهله.

إن ما وقع بين المسلمين في هاتين الوقعتين هو من دلائل النبوة، فقد أخبر النبي ﷺ فيما روى أبو موسى الأشعري أنه قال: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب».

وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان من المسلمين، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة».

ومعلوم أن هذا الحديث محمول على ما جرى بين الصحابة في يوم الجمل، وقد رأينا كيف تم الصلح بين الفريقين، وكيف أيقظ المجرمون الفتنة حفاظا على دمائهم التي أصبحت مهددة.. قال الطبري: «وبات الذين أثاروا الفتنة على عثمان بشرٍّ ليلةٍ باتوها قط، وقد جعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر، واستسرّوا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر فغدوا من الغَلَس وما يشعر بهم جيرانهم، وانسلّوا إلى ذلك الأمر انسلالا»[1].

ويرجح بعضهم ـ والله أعلم ـ أن الفئة الباغية هي السبئية التي خرجت على عثمان وقتلته، وأنهم هم الذين قتلوا عماراً، وأشعلوا الفتنة، وحرصوا على تطوير الخلاف وبثّ الفرقة بين الفئتين، وقد أخبر ﷺ بأن الله تعالى سيصلح بالحسن بن على بين طائفتين عظيمتين فقال: إن ابني هذا سيد، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[2].

وقد تحقق ذلك حين تنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه وحقن بذلك دماء المسلمين تماما كما وصفه رسول الله ﷺ، وتحمل هذا السبط الحبيب المسئولية، وتصرف بحكمة وأمانة، وآثر الآخرة على الأولى، والباقية على الفانية، ولا عجب فجده رسول الله ﷺ وجدته خديجة وأبوه الخليفة الراشد العظيم، وهو سيد شباب أهل الجنة وأخوه الحسين الشهيد العظيم سيد شباب أهل الجنة، وأمه فاطمة الزهراء الصادقة الصابرة البتول أم أبيها، حبيبة رسول الله ﷺ، وحبيبة كل من أحب رسول الله ﷺ. وهؤلاء الخمسة هم أصحاب الكساء، وهم مع أزواج النبي ﷺ وآل بيت رسول الله ﷺ وذرية رسول الله ﷺ محصورة بهم بطريق السبطين الشريفين، الحسن والحسين رضي الله عنهما.

* * * *

---

(١) الطبري ٥/٢٠٢-٢٠٣ ومنهاج السنة ٢/١٨٥، ٣/٢٢٤-٢٢٥

(٢) رواه البخاري

مراتب الصحابة

أفضل الصحابة هم السابقون إلى الإسلام في مكة، وفي مقدمة هؤلاء العشرة المبشرون بالجنة، ولا خلاف في أن الخلفاء الراشدين هم أفضل الصحابة جميعا، وقد روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم.

وفي رواية الطبراني زاد: فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا ينكره، وفي رواية أبي داود عن ابن عمر أيضا قال: «كنا نقول ورسول الله ﷺ يسمع: خير هذه الأمة بعد نبيها، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، فلم ينهنا».

وقال أبو منصور البغدادي ـ وهو من أكابر أئمة الشافعية ـ: أجمع أهل السنة والجماعة على أن أفضل الصحابة أبو بكر فعمر فعثمان فعلي فبقية العشرة المبشرة بالجنة، فباقي أهل بدر، فباقي أهل أحد، فباقي أهل بيعة الرضوان، فباقي الصحابة(١).

ويأتي بعد أهل بيعة الرضوان أهل خيبر، ثم أهل فتح مكة، وهم عشرة آلاف، ثم أهل غزوة تبوك وهم ثلاثون ألفا، ثم باقي الصحابة الذين حضروا حجة الوداع وكانوا أكثر من مائة ألف، ثم باقي الصحابة.

العشرة المبشرون بالجنة:

هم خيرة هذه الأمة السعيدة، وأعظمها حظاً وأشدُّها صدقاً ووفاءً لله تعالى وحبا لرسوله ﷺ، وأكثرها تضحية وبذلاً في سبيل الله.

وقد اشتهر عند علماء السيرة، أن هؤلاء العشرة قد بشّرهم رسول الله ﷺ بالجنة في مناسبات مختلفة، عند ذكر بعض المواقف التي كانت لهم في نصرة الدعوة الإسلامية، والتضحية والبذل بكل غالٍ ونفيس حتى النفس، وقد تميز هؤلاء

---

(١) نقلة السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٥٣

العشرة بأنهم كانوا من السابقين إلى الإسلام، وذاقوا من العذاب ألوانا في أول العهد بالإسلام، وفارقوا الأهل والديار مهاجرين إلى الله والرسول، وبذلوا وأنفقوا في سبيل الله، وشهدوا مع رسول الله ﷺ المشاهد، وكان لهم برسول الله ﷺ لهم أسوة وقدوة، فكانوا لمن بعدهم قدوة ومثلاً في الجهاد والجود والزهد في الدنيا، والتقوى والورع.

أخرج الإمام أحمد في المسند ١/ ١٩٣: عن عبد الرحمن بن حميد عن أبيه أن سعيد ابن زيد حدَّثه في نفر أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «عشرة في الجنة: أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن، وأبوعبيدة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، فعدَّ هؤلاء التسعة ثم سكت عن العاشر. فقال القوم: ننشدك الله يا أبا الأعور أنت العاشر؟ قال: إذ أنشدتموني بالله أبو الأعور في الجنة»، وأبو الأعور كنية سعيد بن زيد وهو راوي الحديث رضي الله عنه.

وهؤلاء العشرة هم صفوة الصحابة باتِّفاق الأمة، وإجماع السلف والخلف، وقد وضع الله عز وجل محبتهم في قلوب الصحابة أجمعين، ومن جاء من بعدهم من المسلمين إلى يوم الدين، رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد أخرج البخاري رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إن الله قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض».

ومن هنا فإن من واجب المسلمين محبة صحابة رسول الله ﷺ جميعاً، وفي مقدمتهم هؤلاء العشرة رضوان الله عليهم جميعاً، ونسأل الله أن يحشرنا في معيتهم وبصحبتهم، تحت لواء سيدنا محمد ﷺ، نَرِدُ عليه الحوض إن شاء الله، ونشرب بيده الشريفة، وما ذلك على الله بعزيز، ونحن نشهد الله على حبه وحب حبيبه سيدنا محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته الكرام البررة، وفي مقدمتهم هؤلاء العشرة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل.

* * * *

تضحيات الصحابة

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ..﴾

قدم الصحابة الكرام من التضحيات وبذلوا من الجهود ما لو أردنا الإحاطة به لاحتجنا إلى كتاب مستقل، بل إلى كتب ولكننا نكتفي بذكر نماذج من بذلهم وتضحياتهم فنحن أمام بحر زاخر، فما من صحابي أو صحابية إلا وله ولها في هذا الباب مواقف وتضحيات تطأطىء لها الهامات، ويعز أن نرى لها نظيراً في تاريخ البشر. فقد مكث رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام خفية ثلاث سنين، فأسلم بدعوته السابقون الأولون، زوجته خديجة، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق وسائر العشرة المبشرين بالجنة، وأسلم غيرهم كثير، فكانوا يستخفون بدينهم ويعبدون الله سرّاً ويوحّدونه، ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ أن يصدع بالدعوة إلى الإسلام، فأنذر عشيرته الأقربين، ثم دعا بطون قريش فلما فشا الإسلام في قريش وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبالرمضاء إذا اشتد الحر، يفتنونهم عن دينهم!!.

روى ابن اسحاق عن حكيم بن جبير عن أبيه سعيد. قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه، من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن العجل ليمر بهم فيقولون له: أهذا العجل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم افتداءً منهم مما يبلغون من جهده.. ورغم ذلك صبروا وتحملوا ذلك كله في سبيل الله، فلم يصدّهم عن دينهم شيء!!.

صبر بلال بن رباح:

كان بلال بن رباح رضي الله عنه مملوكاً لأمية بن خلف، فكان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول له: لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فكان بلال يقول: أحد.. أحد.. وكان يقول: لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، وكان ورقة بن نوفل يمر به فيسمعه فيقول: أحد أحد والله يا بلال.. وكانوا يجعلون في عنقه حبلا، ويدفعون به إلى الصبيان يلعبون به حتى أثر الحبل في عنقه، فما صرفه ذلك عن دينه!!.

وظل أمية على ذلك مدة يعذبه ويضربه ومر به أبو بكر وهم يصنعون به هكذا فقال لمولاه أمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين؛ حتى متى؟ فقال أميه: أنت الذي أفسدته فأنقذه.. فقال أبو بكر: أفعل، فاشتراه وأعتقه، وقيل: بل أعطاه به غلاما أسود أجلد منه وأقوى كان على دين قريش فرضي أمية بذلك.. وأعتق أبو بكر رضي الله عنه ست رقاب أخرى منهم، عامر بن فهيرة.

صبراً آل ياسر:

وعذبت قريش آل ياسر عذاباً شديداً، ولقيت هذه الأسرة المسلمة من الأذى والعدوان مثل ما لقي بلال، فقد كان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه سميه بنت خياط إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ويلبسونهم دروع الحديد المحماة بالنار، فما ضعفوا وما استكانوا، وكان يمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة، ويروى أن عماراً شكا من العذاب فقال: يا رسول الله بلغ منا العذاب كل مَبْلَغ، فقال له: اصبر أبا اليقظان، اللهم لاتعذب من آل ياسر أحداً بالنار.

وقد بلغ من تضحيات هذه الأسرة الصابرة أن المشركين قد قتلوا سمية أم عمار وهي تأبى إلا الإسلام، قتلها أبو جهل بطعنة في موضع العفة منها فماتت، فكانت أول شهيدة في الإسلام، وذهبت بهذا الشرف العظيم امرأة ضعيفة من الإماء،

وذهب أبو جهل بذلك العار والخزي يلاحقه إلى يوم القيامة، وأذاقه الله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

مالقيه صهيب الرومي:

هو صهيب بن سنان النمري، ويعرف بالرومي لأن الروم أسرته في الموصل وهو صغير، ثم جلب إلى مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان، وهو من السابقين إلى الإسلام. قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: أبوبكر، وبلال، وخباب، وصهيب، وعمار وأمه سمية، والمقداد. فلما علم آل جدعان بإسلامه أخذوا يعذبونه مع بلال وعمار بن ياسر في قوم من المسلمين، قال مجاهد: فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ، حتى أعطوهم ما سألوا. - يعني التلفظ بالكفر - وقد عذره الله وإخوانه، وأنزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1].

وعن ابن عباس أن الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ نزلت في صهيب ونفر من أصحابه، أخذهم أهل مكة يعذبونهم ليردوهم إلى الشرك حتى لايدري مايقول.. وقد صبر صهيب على العذاب والأذى ما شاء الله أن يصبر. فلما فرضت الهجرة، وهاجر رسول الله ﷺ خرج مهاجرا في أثره، فلما رآه أهل مكة قالوا: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فتغير حالك. قال: أرأيتم إن تركت مالي، أفتخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فخلع لهم ماله. فبلغ ذلك النبي ﷺ. فقال: ربح صهيب.. ربح صهيب.

وعن سعيد بن المسيِّب قال: أقبل صهيب مهاجرا، واتبعه نفر، فنزل عن راحلته، ونثر كنانته وقال: لقد علمتم أني من أرماكم، وأيم الله لاتصلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي، فإن شئتم دللتكم على مالي، وخليتم سبيلي. قالوا:

---

(١) النحل /١٠٦

نفعل، فدلهم عليه. قال: وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ في قباء. فلما رآني قال: ربح البيع أبا يحيى (ثلاثا). فقلت ما أخبرك إلا جبريل !.

وفي صهيب وإخوانه المستضعفين والمهاجرين أنزل الله عز وجل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ما لقيه خباب بن الأرت التميمي:

كان خباب قد سبي في الجاهلية، وبيع بمكة لأم أنمار الخزاعية، وكان يعمل في صناعة السيوف، فلما بلغته الدعوة إلى الإسلام كان سادس ستة دخلوا في الدين، فلما سمعت مولاته أم أنمار وأخوها سباع بإسلامه بادرا إليه فسألاه عن ذلك فقال: والله ما صبأت، بل آمنت بالله وحده لا شريك له، ونبذت أصنامكم، وشهدت أن محمدا عبد الله ورسوله، فانهالا عليه ضربا وركلا، وأخذا يقذفانه بما بين يديه من المطارق وقطع الحديد حتى أغمى عليه، وبدأ سباع وقومه بتعذيب خباب، فكانوا إذا اشتدت الهاجرة وغدت أشعة الشمس تلهب الأرض، أخرجوه إلى بطحاء مكة، ونزعوا عنه ثيابه وألبسوه درع الحديد ومنعوا عنه الماء حتى إذا بلغ منه الجهد كل مبلغ أقبلوا عليه وقالوا: ما تقول في محمد؟ فيقول: عبد الله ورسوله جاءنا بدين الحق والهدى ليخرجنا من الظلمات إلى النور، فيوسعونه ضرباً ولكماً ثم يقولون له: ما تقول في اللات والعزّى؟ فيقول صنمان أصمّان أبكمان لا يضرّان ولا ينفعان.. فيأتون بالحجارة المحمية ويلصقونها بظهره ويبقونها عليه حتى يسيل دهن كتفيه.. ولم تكن أم أنمار أقل قسوة على خباب من أخيها سباع، فقد رأت رسول الله ﷺ يمر بدكان خباب ويكلمه فجن جنونها لما رأت.. وأخذت تجيء إلى خباب يوما بعد يوم فتأخذ حديدة محمية من كيره وتضعها على رأسه حتى يدخن رأسه ويغمى عليه[2].

---

(١) النحل /٤١.

(٢) يروى أن أم أنمار اشتكت رأسها، فكانت تعوي كالكلاب، فلما استطب لها أبناؤها قيل لهم: لا شفاء لها إلا أن يكوى رأسها بالنار، فكان خباب يحمي الحديدة فيكوي بها رأسها.

وكان رسول الله ﷺ يمر على خباب فيشكو إليه ما يلقى من العذاب، فيتألم له، ويدعو له فيقول: اللهم انصر خباباً.

وكان ﷺ يأمر أصحابه بالصبر، كلما اشتد عليهم الكرب أو شكوا إليه شدة ما يلقون، لأن الله تعالى لم يأذن لهم بالقتال بعد، فصبروا حتى تعجب منهم الصبر،فلنسمع ما روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتي بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

فأي تصوير لما لقيه الصحابة من الضر والأذى يعدل هذا التصوير، واي درس في الصبر يعدل هذا الدرس الشاخص أمام الأبصار، حتى لكأن رسول الله ﷺ بين أصحابه في ظل الكعبة، ونحن معهم، نسمع ونرى!!.

ومما يروى عن خباب أنه دخل ذات يوم على عمر بن الخطاب في خلافته فأعلى عمر مجلسه وبالغ في تقريبه وقال له: ما أحد أحق بهذا المجلس غير بلال.. ثم سأله عن أشد ما لقي من أذى المشركين، فاستحيا أن يجيبه، فلما ألَحَّ عليه أزاح رداءه عن ظهره فجفل عمر مما رأى وقال: كيف صار ذلك؟ فقال خباب: أوقد المشركون لي حطباً حتى أصبح جمراً، ثم نزعوا عني ثيابي، وجعلوا يجرونني عليه، حتى سقط لحمي عن عظام ظهري، ولم يطفىء النار إلا الماء الذي نزَّ من جسدي [1].

بعض ما لقيه الصديق ~

لم يقتصر الأذى على العبيد والإماء الذين ذكرنا نبذا عنهم، بل تجاوز ذلك إلى كل

---

(١) صورة من حياة الصحابة للدكتور/ عبد الرحمن الباشا.

الصحابة، إلى الأشراف والسادة، الذين كانوا قبل الإسلام في مواضع التقدير والاحترام.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان مصدقا أمينا خبيرا بأنساب قريش وأنساب العرب، يضمن الغارمين ويكفل أصحاب الديات، وكان ذا مروءة وعفة وكان بنو تيم رهط أبي بكر يلون لقريش أمر الديات والمغارم، ومع ذلك فإنه لم يسلم من الأذى، بل أصابه من ذلك ما لا يكاد يصدَّق، وأورد هنا نماذج من البلاء الذي أصابه رضي الله عنه !!.

١ - مالقيه في دفاعه عن النبي ﷺ

بدأ الصديق رضي الله عنه حياة الجهاد والدفاع عن الحق منذ أن دعي فأجاب، وشهد شهادة الحق، فلقد وقف مدافعا عن الحق وعن رسول الله ﷺ، وله في ذلك مواقف مشهورة يرويها التاريخ. منها ما روى البزار في مسنده عن علي رضي الله عنه قال:(ولقد رأيت رسول الله ﷺ وقد أخذته قريش، من كل جانب، وهذا يتلتله ويزعزعه، وهذا يدفعه، ويقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً، ولم يدن منه أحد من الصحابة سوى أبو بكر رضي الله عنه، يدفعهم عنه، ويمنعه ويقول: ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله. ثم رفع على بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبوبكر؟ فسكت القوم فقال: ألاتجيبونني؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك يكتم إيمانه وهذا رجل يعلن إيمانه)[١]. وعاد إلى بيته رضي الله عنه وقد ضرب بعد أن تحول المشركون عن رسول الله ﷺ إليه يضربونه، حتى لم يعد فيه عضو ليست فيه إصابة أو كدمة، وما أن أفاق حتى أخذ يسأل عن رسول الله ﷺ، ولم يهدأ باله حتى حمل إلى رسول الله ﷺ واطمأنَّ بنفسه على سلامته.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي /٤٤.

٢ - أمنيته في إظهار الدين (١)

روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: بلغ عدد المسلمين ثمانية وثلاثين رجلا وكانت للصديق رضي الله عنه أمنية هي أن يظهر المسلمون الإسلام، فأخذ يلح على رسول الله ﷺ في أن يخرج بالمسلمين، والرسول يقول: يا أبابكر إنا قليل، لكن الصديق لم يطق أن يكبت أمنيته، وظل يكرر رجاءه حتى وافق عليه الصلاة والسلام، وظهر بالمسلمين في المسجد، وتفرق المسلمون كل في عشيرته، في نواحي المسجد، وقام أبو بكر يخطب يدعو إلى الله ورسوله، والنبي ﷺ جالس، وثار المشركون على الصديق، وضربوه ضرباً شديداً، ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، وركب بطنه حتى شوه وجهه، فلا يعرف موضع أنفه منه، ولم ينقذه منه سوى تدخل بني تيم، جاءوا فأزاحوه عنه، وحملوا الصديق رضي الله عنه مغشيا عليه في ثوب إلى بيته، وهم يتوقعون موته، حتى لقد ذهبوا يهددون بقتل عتبة بن ربيعة إن مات أبوبكر، وظل أهله به حتى أفاق وتكلم من آخر النهار، وكانت أول كلمة قالها: ما فعل رسول الله، فسبّوه ولا موه، وتركوه لأمه عسى أن تطعمه شيئا، وهو يقول: ما فعل رسول الله؟ فقالت أُمُّه: والله مالي علم بصاحبك فقال: اذهبي إلى أُمِّ جميل بنت الخطاب فاسأليها عن رسول الله ﷺ، فقالت أم جميل لأمه: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن شئت ذهبت معك إلى ابنك، فذهبت بها إليه فلما رأته على حالته فزعت وصاحت تقول: «إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم منهم»، ولم يكن هذا هم أبي بكر، ولكنه كان يريد أن يعرف ما فعل رسول الله ﷺ، فقالت فاطمة بنت الخطاب: هذه أمك تسمع، قال لا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟، قالت: في دار الأرقم. فأقسم أن لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى يرى رسول الله ﷺ. وانتظر حتى أوى الناس إلى بيوتهم، وقلّ السائرون في طرقات مكة، وسكن الناس،

---

(١) من حياة الصحابة ج١/٢٦٠ للكاندهلوي.

فخرجتا يتكيء عليهما (أمه وأم جميل) حتى أدخلتاه على حبيبه، فمال عليه رسول الله ﷺ يقبّله ورقّ له رِقّة شديدة، وأكبَّ عليه المسلمون يحيونه، فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يارسول الله، مابي من بأس إلا مانال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، فادعها إلى الله وادع لها الله، عسى الله أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ فأسلمت.

٣- مثلك لايخرج

فلما رأى أبوبكر ما تفعله قريش برسول الله ﷺ وأصحابه، وأصابه منها ما أصابه، ضاقت عليه مكة، فاستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له، فخرج مهاجراً، حتى مشى يوماً أو يومين، فلقيه ابن الدُّغنَّة، فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي، وآذوني، وضيَّقوا علي. قال: مثلك لايخرج فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري. فرجع معه، فقال ابن الدُّغنّة: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضنَّ له أحد إلا بخير، فكفوا عنه.

٤ - فإني أردُّ إليك جوارك

كان لأبي بكر مسجد في داره يصلي فيه، وكان رجلا رقيقا، إذا قرأ القرآن استبكى، وكان النساء والصبيان والعبيد ينظرون إليه فيعجبون لما يرون من هيأته وخشوعه، فمشت قريش إلى ابن الدغنة. فقالوا: إن أبابكر إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرُّق ويبكي، فنحن نخاف على نسائنا وصبياننا وعبيدنا أن يفتنهم، فمُرْهُ أن يدخل بيته فليصنع ما شاء، فمشى إليه ابن الدغنة فقال له: يا أبا بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما شئت. قال: أوَ أردُّ عليك جوارك، وأرضي بجوار الله؟ قال: فاردد علي جواري، قال: قد رددته عليك، فقام ابن الدغنة فقال: يامعشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردَّ علي جواري، فشأنكم بصاحبكم. فلقيه سفيه من سفهاء قريش وهو ذاهب إلى الكعبة، فحثا على رأس أبي بكر التراب، فمر الوليد بن

المغيرة، فقال له أبوبكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ قال: أنت فعلت ذلك بنفسك، فقال أبوبكر: أي ربِّ ما أحلمك، أي ربِّ ما أحلمك.

ما لقيه عمر بن الخطاب:

أما عمر فإنه لما أسلم ورأى ما لقيه الصحابة من الشدة، والأذى، ذهب إلى خاله أبي جهل بن هشام يتحداه بإسلامه، فلما أخبره دخل أبو جهل بيته وأغلق الباب دونه، فقال عمر: ما هذا بشيء إن المسلمين يضربون وأنا لا أضرب، فذهب إلى رجل لا يكتم السر فأخبره بإسلامه فقام الرجل فنادى، والناس جالسون في المسجد: إن ابن الخطاب قد صبأ، فقاموا إليه يضربهم ويضربونه، واجتمع عليه الناس، وجاء خاله أبو جهل فلما علم أنه عمر وأنهم يضربونه ضربا شديدا أشار إليهم بكمه: ألا إني أجرت ابن أختي، فتكشفوا عنه، فلما رأى عمر أن المسلمين يضربون ويتعرضون للعدوان والأذى، جاء إلى خاله فرد عليه جواره، فتجرأت عليه قريش فما زال يضربهم ويضربونه حتى أعز الله الإسلام[1]، وكان رضي الله عنه قوياً عنيفاً شديد البأس، فكانوا يخشونه، ويحسبون له حساباً.

ما لقيه عثمان بن عفان:

كان عثمان رضي الله عنه في عزٍّ من قومه، فلما لم يجرؤ عليه أحد من قريش، قام عمه الحكم بن أبي العاص فربطه بالسلاسل والقيود وقال له: أترغب عن دين آبائك إلى دين محمد؟ والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال عثمان: في تحد وعزيمة وإصرار: والله لا أدعه ولا أفارقه.. فلما رأى عمه صلابته وعزمه يئس منه فتركه. لكن عثمان لم يأمن على نفسه الفتنة فهاجر إلى الحبشة مع زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، فكان أول مهاجر هاجر بزوجته بعد لوط عليه السلام.

مالقيه علي بن أبي طالب:

ولقي علي بن أبي طالب رضي الله عنه أذى كثيرا، فقد حورب وعودي وتعرض

---

(١) بتصرف عن تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣١ - ١٣٢

للحصار في الشعب ثلاث سنين، وتحمل من الجوع وضنك العيش ما تعرض له بنو هاشم وبنو عبد المطلب، ولولا أن النبي ﷺ قد أعده للمهمّات الصعبة لهاجر مع من هاجر إلى الحبشة، ولولا أن قريشا كانت تحسب لأبيه أبي طالب ألف حساب لصبت عليه من صنوف العذاب والفتنة ما صب على المستضعفين من المسلمين، وقد كان نومه في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة تضحية من أكبر التضحيات، وبطولة تتضاءل أمامها كثير من البطولات، وسيوف فرسان قريش توشك أن تنقض عليه في لحظة واحدة فتمزقه إرباً إرباً، وقد سلَّمه الله في تلك الليلة، وأدّى عن رسول الله ﷺ الأمانات إلى أهلها، ثم لحق به في قباء، ودخل معه المدينة في يومها السعيد.

ما لقيه عثمان بن مظعون:

عاد عثمان بن مظعون من الحبشة ودخل في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى ابن مظعون ما يتعرض له الصحابة من الأذى قال: والله إن غدوّي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي. فمشى إلى الوليد فقال: قد رددت إليك جوارك، فقال الوليد: لعله آذاك أحد من قومي؟ فقال: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره، فمضيا إلى المسجد ليخبرا قريشا، فوقف عثمان فقال: قد وجدته وفيّاً كريم الجوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره!!.

وانصرف عثمان بن مظعون فمر في المسجد بلبيد بن ربيعة ينشد:

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل. فقال: صدقت.

فقال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل.

فقال: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

فقال رجل للبيد: هذا سفيه في سفهاء معه، فلا تجدن في نفسك من قوله[1]، فرد

---

(١) لا تغضب.

عليه عثمان، فقام إليه ذلك الرجل فلطمه فأصاب عينه بأذى، فقال الوليد بن المغيرة لعثمان: والله إن كانت عينك عن هذا لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة فقال عثمان: والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر، فقال الوليد: هلمّ فعد إلى جوارك.. فقال: لا!!

فانظر إلى عزة الإيمان عند عثمان بن مظعون، كيف استعذب الأذى وأحب التضحية في سبيل الله!!.

ومكث الصحابة بعد ذلك في مكة وهم يقاسون من قومهم وعشائرهم صنوف الأذى وألوان العذاب والفتنة.

حصار بني هاشم ومقاطعتهم:

ومضت قريش في إيذائها وعدائها وتضييقها على النبي ﷺ وأصحابه، وفرضت الحصار على بني هاشم وعلى المسلمين في الشعب، وكتبت قريش في ذلك كتاباً تعاقدوا فيه على أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا تأخذهم بهم رأفة، وانحاز أبو طالب إلى النبي ﷺ، فدخل معه الشعب، وانحاز بنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه الشعب، وخرج من بني هاشم عدو الله وعدو رسوله عم النبي ﷺ أبو لهب فانحاز إلى قريش وخرج على أعراف الجاهلية، مع ما في ذلك من العار!!.

ودام الحصار ثلاث سنين لقي النبي ﷺ والمسلمون خلالها شدةً وبلاءً وجهداً شديداً حتى أكلوا ورق الشجر، وكان الرجل إذا أراد أن يشتري لأولاده طعاماً أضعفوا عليه الثمن فيعود إلى أولاده يتضاغون من الجوع.

ما لقيته أم سلمة وزوجها وابنها:

هاجرت أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة مع زوجها أبي سلمة بن عبد الأسد الهجرتين، فمكثت مع زوجها ما شاء لهما الله أن يمكثا غريبين في أرض الحبشة، فلما عادا دخل أبو سلمة في جوار أبي طالب، فعاتبت قريش أبا طالب في ذلك فقال: إنه استجار بي وهو ابن أختي.!

ولما أذن النبي ﷺ للصحابة بالهجرة إلى المدينة، عزم أبو سلمة على الهجرة بزوجته وابنه، وأعد لذلك بعيره، وحمل معه زوجته وابنه سلمة، فلما رآه بنو المغيرة وهم عشيرة أم سلمة قالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوها وابنها منه، وغضب بنو أسد رهط أبي سلمة فقالوا: لا والله، لانترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وأخذ بنو عبد الأسد ولد أم سلمة، وحبس بنو المغيرة أم سلمة، وانطلق أبو سلمة مهاجرا، ففرَّقوا بين المرأة وزوجها وولدها، فكانت أم سلمة تخرج كل غداة إلى الأبطح فما تزال تبكي حتى تمسي، وظلت على ذلك سنة أو قريبا من سنة.. تقول أم سلمة: حتى مرَّ بي رجل من بني عمي، فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها.. قال: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.. وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي في المدينة وما معي أحد من خلق الله، فقلت: أَتَبَلَّغُ بمن لقيتُ ـ أستعين بمن أجده مسافرا ـ حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة فقال لي: أَوَ معك أحد؟ فقلت: لا والله إلا الله وبنيَّ هذا..قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فو الله ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ، أرى أنه كان أكرم منه.. فلم يزل بي حتى أقدمني المدينة.. ثم انصرف راجعا إلى مكة.. فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قطُّ كان أكرم من عثمان بن طلحة[1].

فانظر كم كانت تضحيات هذه الأسرة المسلمة التي هاجرت إلى الحبشة، ثم تعرضت للفتنة، حتى تمت لها الهجرة إلى المدينة، فاجتمع شملها في ضيافة الأنصار...!!

---

(١) كان مشركا حين هاجر بأم سلمة، ثم أسلم بعد الحديبية، وهاجر قبل الفتح، وقد استشهد في أجنادين في خلافة عمر.

تضحيات أصحاب بئر معونة ويوم الرجيع:

أما قصة هؤلاء الشهداء فنوجزها بما يلي:

جاء أبو البراء عامر بن مالك بن جعفر، ويعرف بملاعب الأسنَّة إلى النبي ﷺ فعرض عليه الإسلام فأعجبه ولكنه لم يسلم، فطلب أن يرسل معه رجالا من الصحابة إلى نجد يدعونهم إلى الإسلام رجاء أن يستجيبوا، وقال أنا لهم جار، فبعث معه النبي ﷺ سبعين رجلا من خيار الصحابة، وجعل عليهم المنذر بن عمرو، وكانوا يعرفون بالقرَّاء، وكان فيهم: الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، فلما نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل ولكن عامراً لم ينظر في الكتاب بل عزم على الغدر بهم، فأوعز إلى جبار بن سلمى أن يضرب حرام بن ملحان بالرمح من خلفه، فلما طعنه قال حرام: فزت ورب الكعبة!!.

قال جبار: إن مما دعاني إلى الإسلام أني لما طعنت رجلا منهم بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فزت ورب الكعبة، فقلت في نفسي: ما فاز، ألست قد قتلت الرجل؟!!، حتى سألت عن ذلك فقالوا: الشهادة، فقلت: فاز لعمر الله، فكان سبباً لإسلامه(١).

غدر بني سليم

ثم استصرخ عامر بن الطفيل عليهم بني عامر، فأبوا أن يخفروا ذمة أبي البراء، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم؛ رعلا وذكوان وعصبتة، فأجابوه، وغشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم وكانوا أزيد من مائتين، فلما رأى الصحابة ذلك صبروا على قتال المشركين فقاتلوا حتى قتلوا عن بكرة أبيهم، إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق ولم يشعروا به، وعمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن عقبة كانا في رعي الإبل، فإنهما لما علما بما أصاب أصحابهما قال المنذر لعمرو: ما ترى؟ قال: أرى أن

---

(١) رواه البخاري.

نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر: لكني لا أرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لأخبر عنه الرجال، ثم قاتل رضي الله عنه حتى قتل!!.

وعاد عمرو إلى المدينة فأخبر النبي ﷺ بما صنع هؤلاء فمكث النبي ﷺ شهرا يدعو في صلاة الصبح على رعل وذكوان وعصية الذين غدروا بالقراء فقتلوهم، وخفروا ذِمَّة أبي البراء مع ما فيها من الشناعة والقبح في عرف العرب!!.

فانظر إلى هؤلاء القراء ما أعظم إباءهم وتضحيتهم، وانظر كيف واجهوا الغدر الخسيس، بعزيمة الإيمان، فبذلوا أرواحهم في سبيل الله، وصدقوا ما عاهدوا عليه الله، وماتوا شهداء، فهم عند ربهم يرزقون!!.

ما لقيه أصحاب يوم الرجيع:

قدم على النبي ﷺ بعد أحد رهطٌ من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله: إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرؤوننا القرآن.. فبعث النبي ﷺ معهم ستة نفر من أصحابه، هم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن بكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن الأقلح من الأوس، وخبيب بن عدي من الخزرج، وزيد بن الدثنة من الخزرج، وعبد الله بن طارق، وجعل عليهم مرثد بن أبي مرثد أميراً، فخرجوا مع القوم حتى وصلوا ماء الرجيع بناحية الحجاز فغدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلا، فإذا بالرجال قد أحاطوا بهم، فأخذ الصحابة الستة أسيافهم ليقاتلوا، فقال القوم:... لكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فقال مرثد وخالد وعاصم؛ والله لانقبل من مشرك عهدا، فقاتل هؤلاء حتى قتلوا.. وأرادت هذيل أخذ رأس عاصم ليبيعوه إلى سلافة بنت سعد، وكانت قد نذرت لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر، لأنه قتل ابنيها يوم أحد، وحمى الله رأس عاصم بالدبر فلم يقدروا عليه، وانتظروا الليل ليأخذوه، فأرسل الله سيلا فاحتمل عاصما فذهب به، وكان عاصم قد أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك، ولا يمسّ مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع في حياته.!!

مالقيه خُبيب :

أما الثلاثة الباقون فإنهم صدقوا ما أعطاهم القوم من الأمان، فاستسلموا فأسروهم وذهبوا بهم إلى مكة ليبيعوهم، حتى إذا كانوا بمرِّ الظهران انتزع عبد الله ابن طارق يده وكان مربوطا مع صاحبيه بحبل، واستأخر عن القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه. وأما خبيب وزيد فقدموا بهما مكة، فاشترى حجير بن إهاب خبيباً ليقتله بأبيه إهاب، قالت ماوية مولاة حجير بن إهاب وقد أسلمت بعد: حبس خبيب في بيتي، فلقد رأيته يوما ومعه قطف من عنب يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل!!.

فانظر إلى هذه الكرامة التي أكرم الله بها خبيبا بهذا العنب يتقوى به في حبسه، ويتخلص به من جوعه!!.

وخرجوا بخبيب إلى التنعيم ليصلبوه فقال: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين؟ قالوا: فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم قال للقوم: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة، فرفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة نبيك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحداً.. ثم قتلوه رحمه الله.

قال ابن اسحاق: وكان مما نزل من القرآن في تلك السرية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي: شروا أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله، والقيام بحقه، حتى هلكوا على ذلك، يعني تلك السرية.

ويروى أن خبيبا قال قبل أن يقتل شعرا وفيه:

إلى الله أشْكُو غُربَتِي ثم كُربتي ... وما أرصد الأحزابُ لي عند مَصْرَعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يُبارك على أوصالِ شِلْوٍ مُمزَّعِ

فلستُ أبالي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَى أيِّ جنبٍ كان في الله مَصْرَعِي

مقتل زيد بن الدُّثُنَّة:

أما زيد بن الدثنة فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل في بدر، وبعث به صفوان إلى التنعيم ليقتلوه خارج الحرم، واجتمع لذلك رهطٌ فيهم أبو سفيان، فقال أبو سفيان لزيد حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنَّك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً!!.

فانظر هذا الحب الذي تعجب منه أبو سفيان كيف وصل إلى أن زيدا قد رأى أن قتله بالسيف أحب إليه من أن يكون النبي ﷺ في بيته وأهله وتصيبه شوكة، مجرد شوكة!!.

وليس أبو سفيان وحده هو الذي تعجب من هذا الموقف العظيم، بل إن كل إنسانٍ إلى يوم القيامة يبلغه ما قال خبَّاب في موقفه ذاك لايملك نفسه من أن تدهش وتعجب أعظم العجب!!

وما هذه إلا نماذج فقط من البلاء والامتحان الذي مرَّ بصحابة رسول الله ﷺ، فلقد عانوا من أنواع البلايا والرزايا من مشركي قريش، ولكنهم صبروا، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فأكرمهم الله، وكرَّمهم، وصَدَق وعده، ونصر عبده والذين معه من الرجال والنساء والناشئة، وأظهر دينه، وكان فتحاً مبيناً، وقف فيه بلال يؤذن فوق الكعبة !!.

* * * *

الهجرة إلى الحبشة

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي..﴾

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه»، فخرج المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة مخافة الفتنة، فكانت أول هجرة في الإسلام،فلم تعرف الهجرة إلا في أصحاب رسول الله ﷺ لما أراد الله بهم من الكرامة والأسوة الحسنة!!.

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه أول من هاجر في سبيل الله بزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ بعد لوط عليه السلام. وهاجر أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة مع امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، وهاجر الزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن ابن عوف، وهاجر أبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة، وهاجر عثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، وهاجر أبو سبرة بن أبي رهم، وسهيل بن بيضا، ثم خرج جعفر بن أبي طالب معه امرأته أسماء بنت عميس.. وتتابع المهاجرون إلى الحبشة حتى بلغ عددهم بضعا وثمانين رجلا، وكان فيهم سبعة عشر رجلا معهم زوجاتهم فأصبح عدد المهاجرين نيِّفاً ومائة، ضحّوا بالقرابة والعشيرة والمساكن والأوطان، وآثروا حياة الغربة والحرمان لما تعرضوا له من أهليهم من الفتنة والبلاء، ولم يقيموا وزنا لروابط العشيرة والقبيلة التي أجمعت على حربهم وفتنتهم عن دينهم، وضربوا بذلك أروع الأمثلة على استعلاء العقيدة وتمكن الإيمان في القلوب، والتضحية بأعز ما يملك الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وقد قرن الله عز وجل الخروج من الأوطان بقتل الأنفس لما فيه من التضحية فقال تعالى في وصف حال اليهود: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1]

---

(١) النساء ٦٦.

موقف قريش من المهاجرين:

ساء قريشا ما رأت من هجرة المسلمين إلى الحبشة وأمنهم على دينهم وعبادتهم، وأنهم أصبحوا في خير دار، فأرسلت إلى النجاشي عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، وأرسلت إليه والى بطارقته بهدايا نفيسة، واستعدوه عليهم، فسفهوا دينهم وحقروا شأنهم، فأبي النجاشي إلا أن يسمع من المهاجرين، فأرسل إليهم فسألهم عن دينهم الذي فارقوا فيه قومهم. فكان الذي أجابه جعفر بن أبي طالب فقال: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده، لانشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحلَلْنا ما أُحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، و حالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك. فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه علي، قالت: فقرأ عليه صدرا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ حتى أتى على قصة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا لحاهم وأناجيلهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، وقال لوفد قريش انطلقا فلا والله

لا أسلمهم إليكما ولا يكادون. أي لا أسمح بأي أذىً أو كيد يصيبهم.

ثم إن عمرو بن العاص لم ييأس من نجاح مهمته، فعاد إلى النجاشي في اليوم التالي فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.. فأرسل إليهم ليسألهم عنه.. فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود.. ثم قال: أنتم آمنون، من سبكم غرم، وردَّ على قريش ما بعثته إليه من الهدايا، وأقام المسلمون عنده بخير دار، مع خير جار، ورجع وفد قريش يتجرع مرارة الخيبة وحرقه الغيظ!!.

ثم أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأعزَّ الله به الإسلام، فأظهر المسلمون في مكة إسلامهم، وتحدى عمر قريشا في أنديتها فتعرض لأذى كبير وبلغ المهاجرين أن قريشاً أسلمت فأقبلوا عائدين إلى مكة فوجدوا قريشاً على ما كانت عليه في عدائها وإيذائها للنبي ﷺ وأصحابه، فدخل منهم من دخل إما مستخفياً، أو في جوار، وعاد عثمان بن عفان مع زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ إلى مكة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

عاد المهاجرون من الحبشة، فأقبلت كل عشيرة على من عاد من أبنائها تسومهم سوء العذاب، وتشتد في إيذائهم والتنكيل بهم، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة، فكانت هجرتهم الثانية أعظم مشقة، وأكثر مرارة لما وجدوه في هجرتهم الأولى من فراق رسول الله ﷺ، وما عانوه من فقر وضنك عيش، واعتذر عثمان إلى رسول الله ﷺ فقال: ... فهجرتنا الأولى، وهذه الآخرة إلى النجاشي، ولست معنا؟ فقال له: أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ، لكم هاتان الهجرتان جميعا، قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله!! أي: يكفينا من الله تعالى أن يكتب لنا هجرتين!!.

وكان عدَّة من هاجر الهجرة الثانية ثلاثة وثمانين رجلا، وثماني عشرة امرأة، منهنَّ أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيد الله ابن جحش، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار، فلما بدأت الهجرة إلى المدينة عاد ثلاثة وثلاثون رجلا إلى مكة، وثماني نساء، هاجروا بعد ذلك إلى المدينة، إلا سبعة نفر حبستهم قريش عن الهجرة.

إسلام النجاشي:

بدأ رسول الله ﷺ يدعو ملوك عصره وأمراء العرب إلى الإسلام، فأرسل إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري، فلما قرىء عليه الكتاب استشار بطارقته وحاشيته في ذلك وحثهم على قبول الإسلام، فأنكروا عليه ذلك، وأوشكوا أن يثوروا عليه، فتظاهر أنه أراد أن يعرف صلابتهم في دينهم، وتمسكهم به، ولكنه أسلم سراً، وقال: لو أستطيع الذهاب إليه لذهبت. وقد روى ابن إسحق أنه لما أحسَّت الحبشة منه ذلك ثاروا عليه، فخرج إليهم فسألهم فقال: ما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد. قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله !!. فقال النجاشي ووضع يده على صدره: إني أشهد أن عيسى بن مريم، فرضوا وظنوا أنه يقول بما يقولون، ويعتقد بما يعتقدون، فرضوا وانصرفوا عن قتاله، فلما بلغت أقوال النجاشي وأعماله النبي ﷺ، شهد له بالإسلام.

وظل النجاشي عونا للمسلمين ماداموا عنده، فلما مات في السنة التاسعة للهجرة نعاه النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، ورُفِع إليه سريره وهو في المدينة، فصلى عليه بالبقيع [1].

تزويج أم حبيبة:

كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان قد هاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، فارتدَّ زوجها عن الإسلام ودخل في النصرانية، ثم مات هناك،

---

(١) عن ابن هشام ١/٣٤١.

فلما علم رسول الله ﷺ بخبرها، أراد أن يكرمها بأعظم ما تكرم به صحابية مهاجرة تأيَّمت، فمثلها لا ينبغي أن تبقى غريبة، وأراد أن يجعل بينه وبين أبي سفيان نسبا وصهرا، عسى الله أن يجعل له في ذلك مودة، فكتب إلى النجاشي أن يزوجه أم حبيبة، فأرسل النجاشي إليها إحدى جواريه فأخبرتها بخطبة رسول الله ﷺ، ففرحت وقالت: بشرك الله بالخير، وأعطتها أساور وخواتيم من فضة سروراً بما بشرتها به، فكان النجاشي وكيل رسول الله ﷺ في قبول العقد، وأرسلت أم حبيبة إلى ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص ليكون وليَّها، فتمَّ العقد، ودفع النجاشي مهرها أربعمائة دينار، ثم بعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وجهَّزها من عنده، إكراماً لرسول الله ﷺ.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾ هو تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين[1].

الهجرة من الحبشة إلى المدينة:

فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة بدأت هجرة المهاجرين من الحبشة إلى المدينة، ولم يبق في أرض الحبشة إلا بضعة عشر رجلا، فلما كان صلح الحديبية أرسل النبي ﷺ إلى النجاشي أن يبعث إليه من بقي عنده، وأن يحملهم على نفقته، وكان قد انضمَّ إلى مهاجرة الحبشة جماعة من الأشعريين[2]، وقد روى البخاري خبرهم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: بَلَغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأَخَوانِ لي، أحدهم أبو بردة، والآخر أبو رهم، في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلا من قومي، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه، حتى قدمنا جميعا، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح

---

(١) رواه البيهقي - بداية ١٤٣/٤.

(٢) نسبة إلى قبيلتهم وهي إحدى قبائل اليمن، ومنهم أبو موسى الأشعري.

خيبر، فكان أناس من الناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة!!.

النجاشي يحملهم في سفينة:

فلما جاء كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي أن يحمل من بقي عنده من المهاجرين حملهم في سفينة مع عمرو بن أمية الضمري، وكان الذين تأخروا مع جعفر بن أبي طالب ستة عشر رجلاً، مع بعضهم زوجاتهم وأولادهم. وقد ولد لجعفر بن أبي طالب ولده عبد الله، وولد لخالد بن سعيد ولداه، سعيد، وأخت له يقال لها: أمة.

وقد حملهم النجاشي على سفينة مع إخوانهم الأشعريين، فأرست السفينة في ميناء الجار[1]، فاستأجر المهاجرون ظهوراً حملتهم إلى المدينة المنورة، فوجدوا رسول الله ﷺ خارجاً إلى خيبر، فخرجوا للقائه، فوجدوه قد فرغ من فتحها، فسُرَّ النبي ﷺ والمسلمون بلقائهم سروراً عظيماً، والتزم ابن عمه جعفرا وقال: والله ما أدري بأيهما أنا أُسرُّ، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر!! ثم كلَّم رسول الله ﷺ الصحابة في أن يقسم لهم من الغنائم فطابت بذلك نفوسهم، وقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: قدمنا على النبي ﷺ بعد أن فتح خيبر، فقسم لنا، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا.

ولكم أصحاب السفينة هجرتان:

فرح المسلمون بوصول إخوانهم المهاجرين من الحبشة إلى المدينة، وتزاور الأقرباء والأصدقاء، وزارت أسماء بنت عميس حفصة بنت عمر، فسأل عمر ابنته حفصة عن ضيفتها فقالت: هي أسماء بنت عميس، فقال عمر: الحبشية هذه، البحرية هذه؟!! قالت أسماء: نعم، فقال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت أسماءوقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ، يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء في الحبشة، وذلك في الله، وفي رسول الله ﷺ، وأيم الله لا أطْعَمُ طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت للنبي ﷺ،

---

(١) ميناء الجار مكان معروف حتى اليوم في غرب مدينة بدر، وماتزال الآثار باقية فيه.

وأسأله، والله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه، فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا، قال: فما قلت له؟ فأخبرته بما قالت، فقال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أصحاب السفينة هجرتان.

عادت أسماء بنت عميس راضيةً مسرورة، وأخبرت بذلك بعض أصحاب السفينة، فلما بلغهم فرحوا أعظم الفرح، قالت: فرح أهل السفينة ببشارة رسول الله ﷺ فرحاً عظيماً، قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وأهل السفينة يأتوني أرسالا، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ، قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني!!.

زهد الأشعريين وإيثارهم وعبادتهم:

كان الأشعريون[1] مثلاً رائعاً في جهادهم وصبرهم على الفقر والجوع، وزهدهم في الدنيا وفي تعاونهم وتكافلهم في السراء والضَّراء، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعامهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّوية، فهم مني، وأنا منهم وروى البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار، منهم حكيم إذا لقي العدو .. قال لهم: إن أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم[2]!!.

* * * *

---

(١) سبقت قصة هجرتهم وتعريفهم في الصفحة السابقة..

(٢) لا يبدأون العدو بقتال حتى يستكملوا عددهم وعدتهم!!.

الهجرة النبوية

﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾

مؤامرة قريش:

أحست قريش بخطر الهجرة، ورأت أن المهاجرين قد أصابوا داراً ووجدوا منعة وأنصاراً، فخشيت خروج النبي ﷺ، وما يحمله ذلك من تهديد لأمنها ومصالحها وآلهتها التي تعبدها من دون الله عز وجل، فتداعت إلى الاجتماع بدار الندوة التي كانت لا تقضي أمراً إلا فيها. وجاء إبليس فحضر الندوة بصورة شيخ نجدي، وتدارس القوم الأمر فأشار بعضهم بحبسه، وأشار آخر بإخراجه من مكة، فردَّ إبليس عليهما وسفَّه الرأيين وحذرهم عاقبتهما، فقام أبو جهل فأشار بقتله، وذلك بأن يختاروا من كل قبيلة شابا جلداً نسيباً ثم يعطوا كل واحد سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد كي يتفرق دمه في القبائل، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يثأروا له فيقبلوا الدية. وأقرَّ إبليس الخطة وقال: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، وجعلوا لذلك ليلةً تواعدوا عليها، وأتى جبريل رسول الله ﷺ وأخبره خبرهم وقال: لا تبت هذه الليلة في فراشك.

دور أبي بكر في الهجرة:

مشى رسول الله ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه في ساعة الهاجرة فأخبره أن الله قد آذن له بالهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة. قالت عائشة: فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ.

وكان أبو بكر قد أعدَّ راحلتين لهذه المهمة العظيمة، فاستأجرا عبد الله بن أرقط ـ

وكان مشركا ـ ليكون دليلهما يسلك بهما طريقا غير مألوف تعمية على قريش، وأمر النبي ﷺ علياً أن يبيت في فراشه تلك الليلة ليؤدي الأمانات التي عنده لأصحابها وأخبره أنه لن يصيبه شيء يكرهه.

وأحاط الرجال بالبيت المبارك ليقتلوا رسول الله ﷺ عند خروجه إلى الصلاة، ونام علي بن أبي طالب على فراش النبي ﷺ، وقال أبو جهل ساخراً: يزعم محمد أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنات كجنات الشام، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها!!.

وسمع النبي ﷺ مقالة أبي جهل فأخذ حفنة من تراب، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم، وقال لأبي جهل وهو يضع على رأسه التراب: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم!! وتلا هذه الآيات: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ .. إلى قوله : وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ولم يدع منهم أحداً إلا وضع على رأسه التراب، ثم خرج، ثم أتاهم آتٍ فأخبرهم أن محمداً قد خرج، فجعلوا ينظرون إلى الفراش فيرون في الفراش نائماً في بردة النبي ﷺ، فلما نهض وعلموا أنه علي قالوا: لقد صدقنا الذي أخبرنا أن محمداً قد خرج!!.

وقد ذكر القرآن الكريم ما دار في تلك الجلسة من آراء، ولكن بعد أن مضى على الهجرة عام ونصف فإذا أبو جهل صريع في بدر مع من قتل من زعماء المشركين.. وأنزل الله تعالى بعد بدر سورة الأنفال، وذكر فيها ما تآمروا به، وما تداولوه من مقترحات فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (1) ليذكِّر نبيَّه ﷺ وأمته معه بعظيم فضله عليهم، وإنجاز وعده لهم بالنصر والتمكين في الأرض، وإنفاذ وعيده لقريش بالهزيمة والقتل الذي سخر منه أبو جهل وأصحابه، ونزل به القرآن آيةً بينةً: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فهزموا وولوا الأدبار وكان أمر الله مفعولا.

---

(1) الأنفال ٣٠، وقد قيل إنها نزلت في مكة، وقيل بعد وصوله المدينة، والأول هو الأرجح والله أعلم.

قالت أسماء بنت أبي بكر: لما خرج رسول الله ﷺ، وأبوبكر رضي الله عنه، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي، قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدّي لطمة طرح منها قرطي!!.

الخروج إلى الغار:

ذهب رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، فخرجا من باب في ظهر بيته إلى غار ثور، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمَّع أخبار قريش ثم يأتيهما إذا أمسى، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ثم يريحها عليهما في الغار يشربان من لبنها، وكانت أسماء تأتيهما بالطعام إذا أمست، وكانت الغنم تمحو آثار عبد الله وأسماء إذا سرحت، فلا تظفر قريش بشيء!! واحتمل أبو بكر رضي الله عنه ماله كله خمسة أو ستة آلاف درهم. وفي الطريق إلى الغار كان أبو بكر يمشي تارة أمام النبي ﷺ وتارة خلفه، فسأله عن ذلك فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك -أي خشية أن يدركك المشركون من خلف- وأذكر الرصد -مراقبة المشركين لك من أمام- فأمشي بين يديك!!.

فلما وصلا الغار وأراد النبي ﷺ أن يدخله أبى أبو بكر إلا أن يدخل قبله خشية أن يكون فيه سبع أو حية أو هامة!!.

لا تحزن إن الله معنا:

ما إن علمت قريش بخروج النبي ﷺ سالماً حتى استشاطت غضبا، واضطربت أنحاء مكة للخطب الذي ألم، وتنادى الناس يبحثون عن محمد ﷺ في كل سبيل، وجاؤوا بمن اقتصَّ الأثر حتى وقف الجمع على باب الغار، فأبصروا الحمامة تحضن بيضها في فم الغار، والعنكبوت قد نسجت بيتها على بابه، فقالوا لو دخل أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه؛ وغشّى الله على أبصارهم فلم يروه!!.

ورأى أبو بكر الصديق القوم، وسمع وقع الأقدام فخشي أن يصلوا إلى النبي ﷺ

بشيء يكرهه، وبدا عليه الفزع وقال: أما والله ما على نفسي، ولكن أن أرى فيك ما أكره، ثم قال: يارسول الله، لو نظر أحدهم أسفل قدمه لرآنا، فقال له النبي ﷺ: «يا أبا بكر لاتحزن إن الله معنا».

ورجعت قريش عن الغار خائبة بعد أن أصبح النبي ﷺ وصاحبه تحت سمعها وبصرها، وأصبح القوم منهما قاب قوسين أو أدنى ولو نظر أحدهم أسفل قدمه لرآهما، فسبحان من غشَّى على أبصارهم فلم يروهما، ورجعوا خائبين !!.

وتخليدا لهذا الموقف العظيم، وليذكر المسلمون لأبي بكر رضي الله عنه هذا المشهد الرائع، وليعرفوا فضله وصحبته وهجرته مع النبي ﷺ أنزل الله عز وجل قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

لكن قريشا لم تقعد عن الطلب، وجعلت مائة ناقة لمن يدلها على محمد ﷺ أو يأتيها به حياً أو ميتاً، وظلت دائبة في بحثها وطلبها حتى مضت ثلاث فتركت الطلب يائسة، و خيَّب الله سعيها وكيدها كله!!.

الخروج من الغار:

وفي الليلة الثالثة جاء عبد الله بن أُرَيْقط بالبعيرين، وجاءت أسماء بالسُّفرة، فلما لم تجد ما تعلِّقها به أخذت من نطاقها عصاماً علَّقتها به، فلُقِّبت: ذات النطاقين.

وقدَّم أبو بكر رضي الله عنه أفضل البعيرين للنبي ﷺ، ثم قال: اركب، فداك أبي وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بعيراً ليس لي»، قال: فهي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: «لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟» قال: كذا وكذا، قال: «قد أخذتها به»، قال: هي لك يا رسول الله، ثم أردف أبوبكر مولاه عامر بن

---

(١) التوبة ٤٠ .

فهيرة على بعيره ليخدمهما، ثم سار الدليل بهم جنوباً، ثم غرباً، ثم توجه شمالا في طريق لايسلكها أحد تضليلاً لقريش !!

خبر سُراقة:

وبينما كان سراقة بن مالك بن جعشم في نادي قومه إذ أقبل رجل منهم فأخبرهم أنه رأى ركباً مسافرين، وأنه يظنهم محمدا وأصحابه، فقال سراقة: إنهم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، ثم مكث برهة ثم قام إلى فرسه فأسرجها، وإلى سلاحه فلبسه، ثم خرج من ظهر بيته لئلاّ يشعر به أحد، ثم لحق بالركب طمعاً بمائة الناقة الجائزة التي جعلتها قريش لمن يأتيها بمحمد حياً أو ميتاً، فتبعهم حتى إذا كان في الطريق ورآهم عثر به فرسه ووقع عنه، فأبى إلا المضيَّ في غايته، فلما انطلق عثر به فرسه وسقط عنه، ثم أعاد المحاولة فساخت أقدام فرسه في الثالثة، فأدرك أنه ممنوع منهم، فقال سراقة: أنظروني أكلِّمكم، فوالله لايأتيكم مني شيء تكرهونه، ووعد أن لايخبر عنهما أحداً.. وطلب منهما علامة، فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يكتب له كتابا يكون علامة له، فكتب، وأخذ سراقة الكتاب، وقال له النبي ﷺ: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟ فقال سراقة: كسرى بن هرمز، قال: كسرى بن هرمز،فتعجب سراقة مما سمع ورجع إلى أهله وكأنه في حلم!!.

وعاد سراقة إلى مكة، وبرَّ بوعده فلم يذكر عنهما شيئا، ولم يدل عليهما أحدا، وعمّى عنهما كل من سأله، ومرت الأيام والسنون، فلما كان فتح مكة وحنين لقي سراقة النبي ﷺ بالجعرانة عائداً من الطائف، فزاحم الركب حتى دنا من رسول الله ﷺ فرفع يده بالكتاب وقال: أنا سراقة بن مالك بن جعشم، فقال النبي ﷺ: يوم وفاءٍ وبرٍّ، فدنا، فأسلم في ذلك اليوم!!.

فلما كانت خلافة عمر وأتي بكنوز كسرى، دعا عمر سراقة فألبسه سواري كسرى ومنطقته وتاجه، فتذكر سراقة ما قاله النبي ﷺ له، وروى ما وقع له يوم الطلب، والناس في دهشة وفرحة وسرور بما فتحه الله عليهم من الكنوز والأموال وما أدال

بهم من الملوك والتيجان، وحرر بهم من الشعوب والأوطان، فلم تزل تلك الشعوب ثابتة على هذا الدين، تلهج بذكر الصحابة، وتثني عليهم، وتدين بحبهم.

في خيمة أم معبد:

ثم واصل الركب المبارك السير حتى مروا على خيمة أم معبد الخزاعيه، وكانت عندها شاة خلفها الجهد عن الغنم، فاستأذنها رسول الله ﷺ أن يحلبها فأذنت، فمسح ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ودعا فدرَّت، فحلب ثم سقاها وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب وحلب فيها ثانيا حتى ملأ الإناء، وأم معبد لاتكاد تصدق عينيها، فلما رجع أبو معبد ورأى اللبن سألها عن ذلك فقالت: مرَّ بنا رجل مبارك، ثم وصفته وصفاً دقيقاً[1] فقال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه!!.

الإعداد والأخذ بالأسلوب:

فانظر إلى هجرته المباركة كيف هيَّأ لها كل الأسباب المادية، فقد حبس أبابكر عن الهجرة ليهاجر معه، وأمر علياً أن يبيت بفراشه ليوهم الذين حاصروه أنه في متناول سيوفهم، وليؤدّي عنه الأمانات التي كانت عنده إلى أهلها، وكتم خبر هجرته إلا عن أبي بكر وآل بيته، وأعدَّ أبوبكر راحلتين للهجرة قبل وقت كان يعلفهما لهذا الغرض، واستأجر دليلا أمينا خبيراً بالطريق إلى المدينة، ثم خرج مع صاحبه إلى الغار ومكث فيه ثلاثة أيام حتى يئست قريش من العثور عليه، وكان أولاد أبي بكر في خدمة الهجرة الشريفة، فأسماء تأتيهما بالطعام والشراب، وعبد الله يأتيهما بأخبار قريش، وعامر بن فهيرة لخدمتهم، يرعى الغنم ويأتيهما باللبن، ويُعفّي على آثار أسماء وأخيها، وحين خرج من الغار أمر الدليل أن يسير بهم إلى الجنوب، هو يريد المدينة في الشمال، ثم مشى بهم الدليل في طريق غير معهودة، وأمر أن يهيأ لهم زادٌ يتبلغون به، وفي ذلك تعليم للأمة وتشريع لها لتأخذ بالأسباب، والإعداد للأمور المهمة، ولو كان ترك الأسباب مشروعاً لتركها ﷺ، وهو الذي تكفَّل الله تعالى أن يعصمه من

---

(١) انظر وصفها له في كتابنا علموا اولادكم محبة رسول الله ﷺ.

الناس، ولو أراد أن يسري الله به وبأصحابه كما أسرى به إلى المسجد الأقصى لأعطاه الله ذلك، وأراحه من المشقات، وقد فعل كل ما ذكرناه تعليماً للأمة لأنه المشرِّع لأمته، ولأن شرعه المطهر صالح لكل زمان ومكان، ولكل الأجيال إلى قيام الساعة، فلا إفراط فيه ولا تفريط.

* * * *

تعظيم شأن الهجرة

﴿...فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي...﴾

جاءت الآيات الكثيرة في فضائل الهجرة والمهاجرين، وبيان سابقتهم، والثناء عليهم بما قدَّموه من التضحيات، وما تحمَّلوه من الأذيَّات، وما وعدهم الله تعالى به من التمكين في الأرض، وتحول الحال من العسر إلى اليسر، والحياة الطيبة في الدنيا، وما أعدَّه لهم من المغفرة والرحمة والنعيم المقيم في الدرجات العلى من الجنة، فمن ذلك قوله تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[4].

وأما الأحاديث الشريفة فكثيرة أيضا، فمن ذلك قوله ﷺ لعمرو بن العاص: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ماكان قبله..؟

---

(١) البقرة ٢١٨

(٢) النحل ٤١

(٣) آل عمران ١٩٥

(٤) النساء ١٠٠.

ومن ذلك أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال له: «ويحك، إن شأنها شديد، فهل لك من إبلٍ تؤدي صدقتها؟ قال: نعم، قال فاعمل من وراء البحار، فإن الله لن يتِرَكَ من عملك شيئا !!»[1].

قال الإمام النووي في شرح الحديث: «المراد البحار هنا: القرى،.. والمراد بالهجرة التي سأل عنها الأعرابي: ملازمة المدينة مع النبي ﷺ، وترك أهله ووطنه، فخاف عليه أن لا يقوى لها، ولا يقوم بحقوقها، فقال له: إن شأن الهجرة التى سألت عنها لشديد، ولكن اعمل بالخير في وطنك، وحيثما كنت، فهو ينفعك، ولا ينقصك الله منه شيئا، والله أعلم». ا.هـ

ومما يدل على أن مقام الهجرة أعلى مقام في الإسلام أن القرآن الكريم لم يذكر المهاجرين والأنصار في آية إلا وقدم المهاجرين على الأنصار، وأن النبي ﷺ قال للأنصار حين عتبوا عليه بشأن الغنائم: ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار[2] !!

وإنما منعه من الانتساب إلى الأنصار سمة الهجرة التى لا يجوز تبديلها في حق الدين، لأنها الأعلى مقاماً، والأحسن ندِيّاً.

ومما يدل على عظيم مقام الهجرة أن أبا فاطمة رضي الله عنه قال: يارسول الله حدِّثنى بعمل أستقيم عليه وأعمله؟ فقال: عليك بالهجرة فإنه لا مثيل لها[3]!!

وقد أغلق باب الهجرة حين فتحت مكة، فلم يعد يدخل منه أحد، فقد جاء مجاشع ابن مسعود بأخيه أبي معبد وسأل النبي ﷺ أن يبايع أخاه على الهجرة فقال له: «مضت الهجرة لأهلها، ولكن أبايعه على الإسلام والجهاد»[4]. وفي رواية البخاري: «ذهب أهل الهجرة بما فيها» أي من الأجر العظيم والمنزلة العالية.

---

(١) متفق عليه، ومعنى يترك: ينتقصك، أو يضيّع عليك.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه النسائي والطبراني في الكبير بأسانيد حسان.

(٤) متفق عليه

تعظيم شأن المهاجرين:

كان المهاجرون هم السابقين الأولين إلى الإسلام، وقد تحملوا من الضر والأذى من قومهم مالم يتحمله أحد، حتى اضطروا إلى الهجرة فرارا بدينهم، وهم الذين صبروا على الغربة، وفارقوا الديار والأموال، وتحملوا من شظف العيش، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاد، ولم يريدوا بذلك إلا وجه الله عزوجل، والدلائل على تعظيم شأن المهاجرين كثيرة ثابتة في كتاب الله عز وجل، وفي سنة النبي ﷺ.

ومما يدل على تعظيم شأن المهاجرين أن الله تعالى قد ذكرهم في القرآن الكريم بكلمة (هاجروا) تسع مرات، وقرن في ست منهن بين الهجرة والجهاد: (هاجروا وجاهدوا) وقرن بين (هاجروا وأوذوا وقاتلوا وقتلوا) في واحدة، وقرن بين (هاجروا وظلموا) في واحدة،وكل هذه الآيات تشهد لهم بما بذلوه وما تحملوه في سبيل إقامة دين الله في الأرض، فأَعْظِم بها من شهادات من ربٍ رحيمٍ عليم!!.

كذلك قدَّم الله تعالى ذكر المهاجرين على الأنصار في الآيتين اللتين ذكر فيهما الأنصار بهذا الاسم، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ..﴾ [١] ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [٢].

ومما يدل على عظيم مقام المهاجرين أن النبي ﷺ لم يأذن لأحد من المهاجرين أن يعود إلى وطنه وبيته وأهله، ولم يأذن لأحد أن يبقى بعد الفتح في مكة، أو بعد أداء الحج والعمرة إلا ثلاثة أيام، وأن لايزيدوا على ذلك، فقد روى الشيخان أن النبي ﷺ قال: «يقيم المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا» [٣].

صدقوا ماعاهدوا الله عليه:

ومما يدل كذلك على عظيم مقام المهاجرين وعظيم تضحياتهم أن أحدا من

---

(١) التوبة ١٠٠.

(٢) التوبة ١١٧.

(٣) متفق عليه.

المهاجرين لم يعد فى شي من بيته أو ماله الذى خرج منه مهاجرا إلى الله ورسوله، ولم يطلب ممن أخذه ثمناً ولا عِوَضاً، لأنهم إنما تركوا ذلك لله وابتغاء رضوانه كما شهد لهم بذلك العزيز الحكيم بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾.

فأقدمهم هجرة:

ومما يدل على عظيم مكان المهاجرين أن النبي ﷺ قدم المهاجر في الإمامة بالصلاة، وأن الأقدم هجرة يقدم على المتأخر، فعن أبي مسعود الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلما...»[(١)] - أي دخولاً في الإسلام.

اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم:

وقد كان النبي ﷺ يكره أن يموت المهاجر في الأرض التى هاجر منها، لتسلم له هجرته كاملة، فقد روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قد عاده في مكة في حجة الوداع من وجع اشتد به... وخاف سعد أن يدركه الموت في مكة، وأن يحبس عن الجهاد في سبيل الله، وشكا ذلك إلى النبي ﷺ فأخبره أنه لن يحبس، وأن أجله سيمتد حتى يشارك في الفتوح، ويهدي الله على يديه خلقا كثيرا، ثم قال ﷺ: «اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم»، لكن البائس سعد بن خولة - يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة[(٢)].

وقد استجاب الله عزوجل دعوة نبيه ﷺ فمات أكثر المهاجرين في الغزوات الكثيرة التي غزوها مع النبي ﷺ، أو في معارك الفتوح في الشام والعراق وفي بلاد الروم وفارس وما وراء النهر في بلاد الخزر والقوقاز وأرمينية في أقاصي الشمال، وفي مصر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه، وانظر الحديث كاملا في الباب الأول من (رياض الصالحين).

وبلاد المغرب، وتناثرت قبورهم في تلك الأصقاع النائية شاهدة على حسن بلائهم وعظيم جهادهم، وكأن كل واحد من أصحاب تلك القبور يقول ما قاله عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يوم استشهد في مؤته وهو يقول:

لكنَّني أَسأَلُ الرَّحمنَ مَغْفِرَةً ... وضَرْبةً ذاتَ فرغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا

حتّى يُقال إذا مَرُّوا عَلَى جدَثي ... أَرْشَدَهُ اللهُ مِنْ غَازٍ وقَدْ رَشَدَا

فرضي الله عنهم وأرضاهم.

* * * *

استقبال الأنصار

لم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء قد أسلموا بدعوة مصعب بن عمير، ودعوة إخوانهم الذين بايعوا النبي ﷺ في العقبة الأولى والثانية. وكان هؤلاء الذين أسلموا ولم يروا النبي ﷺ بأشد الشوق إلى رؤيته، كما كان الذين رأوه وبايعوه أشد شوقا لرؤيته، وأعظم فرحاً وترقباً لوصوله. فلما سمعوا بخروجه إليهم تضاعفت أشواقهم وعظمت أفراحهم بمقدمه، وبدأوا ينتظرون وصوله إليهم في ظاهر الحرة منذ الصباح، حتى إذا اشتد الحر دخلوا البيوت، فلما كان اليوم الذي وصل الركب إلى قباء، وكان القوم قد دخلوا البيوت من شدة الحر، إذا بيهودي يراه فيصيح: هذا جدكم الذي تنتظرون[1] قد جاء، فخرجوا فوجدوا رسول الله ﷺ وسلم في ظل نخلة، فلم يعرفوه حتى زال عنه الظل وقام أبو بكر فأظلّه بردائه فعرفوه، ونزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن هدم، فمكث في قباء أربعة أيام، الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ينتظرون وصول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يقعد النبي ﷺ في قباء للراحة، ولم يدع هذه الأيام القليلة تضيع سدى، بل بدأ فأقام المسجد ليعلّم أمته قيمة الأيام مهما كانت قليلة، ويبين أهمية المسجد في حياة المسلمين، فكان مسجد قباء أول مسجد أسس على التقوى.

وكان هذا الانتظار في قباء وفاء منه وتقديرا لبطولة ابن عمه علي وفدائيته العظيمة حين نام في فراشه، وأدى عنه أماناته إلى أهلها، وليكون دخوله إلى المدينة بصحبته وصحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

فلما قام علي رضي الله عنه بالمهمة، امتطى راحلته التي طارت به في أثر الرسول

---

(١) أي حظكم من الأنبياء.

ﷺ، فلما وصل قباء خرج رسول الله ﷺ يوم الجمعة يريد دخول طيبة الطيبة، فأدركته الصلاة في وادي رانوناء فخطب وصلى الجمعة فكانت أول جمعة صلاها المسلمون مع رسول الله ﷺ.

عاشت المدينة خلال هذه الأيام أفراحها العظيمة، فهذا رسول الله ﷺ على أبوابها يوشك أن يدخلها، وكانت تلك الأيام أطول الأيام في حياتها. فلما مشى الركب المبارك إليها، أحاطت به القلوب، وصدحت الحناجر، وخرجت المدينة برجالها ونسائها وولدانها وجواريها لاستقبال النبي ﷺ، وهم يتلهفون للنظر إليه. وأحاط أخواله من بني النجار، ورجال آخرون من المهاجرين والأنصار بناقته القصواء، وبأيديهم سيوفهم تحميه من كل من تسوِّل له نفسه أن يصيبه بأذى، وأبوبكر خلفه على الناقة، والناس في فرحة عظيمة، فاستقبلهما حوالي خمسمائة من الأنصار، فأقبل رسول الله ﷺ بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى إن العوائق فوق البيوت يتراءينه يقلن أين هو؟ وكان يوماً مشهوداً لم تَرَ المدينة أجمل منه في تاريخها كله. وخرج الناس والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله.. الله أكبر جاء رسول الله.. وكان اسم المدينة قبل الهجرة يثرب، فسماها رسول الله ﷺ المدينة.

وخرجت جوارٍ من بني النجار يضربن بالدفوف ويقلن:

نَحْنُ جوار مِنْ بَني النَّجّار ... ياحَبَّذَا مُحمّد مِنْ جَار

وبدأ السرور في وجهه وهو يرى هذه القلوب المؤمنة والوجوه المشرقة المستبشرة تستقبله حتى كأن وجهه القمر، وسأل النبي ﷺ هؤلاء الجواري الصغيرات فقال: أتحببنني؟ فقلن: نعم. فقال: الله يعلم أن قلبي يحبكن.

ويروى أن المسلمين من أهل المدينة قد استقبلوا رسول الله ﷺ بالتهليل والتكبير، وبهذا النشيد العفوي يرددونه فرحين مستبشرين:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَـــا مِنْ ثَنِيَّاتِ الـوَدَاعِ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَـا مَـا دَعَـا لله دَاعِ
أيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَـا جِئْتَ بِالأَمْرِ المطَاع
جِئْتَ شَرَّفْتَ المدِينَةَ مَرْحَباً يا خَيْرَ دَاع

دعوها فإنها مأمورة:

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة كانت عشائر الأوس والخزرج تقف على أبواب البيوت على جانبي الطريق، تنتظر رسول الله ﷺ وتستقبله فرحة مستبشرة. وكان رئيس كل عشيرة، ورب كل بيت يطمع أن يقبل ضيافته، ويدعوه للنزول عنده، ويقول: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، ورسول الله ﷺ يعتذر إليهم ويقول: «دعوها فإنها مأمورة» ـ يعني ناقته ـ حتى مرت بدار بني عدي بن النجار ـ وهم أخوال جده عبد المطلب ـ فقالوا له: يا رسول الله هلمّ إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «دعوها فإنها مأمورة»، حتى أتت دار بني مالك بن النجار بركت الناقة وهو مرسل لها زمامها لا يثنيها، ولم ينزل عنها، ثم قامت فسارت غير بعيد، ثم التفتت إلى مبركها الأول فبركت فيه، فنزل عنها رسول الله ﷺ والناس ينظرون فرحين مستبشرين.

في ضيافة أبي أيوب وزوجته:

أسرع أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه إلى رحل رسول الله ﷺ فاحتمله إلى بيته، فلم يجد بداً من قبول دعوته، فنزل عليه رسول الله ﷺ، فظل في ضيافته سبعة أشهر، حتى بنى مسجده الشريف، وبنى مساكنه. وبتوفيق من الله تعالى حاز أبو أيوب بهذا الشرف الأسنى، والفخر الأعلى الذي لم يظفر بمثله أحد قبله ولا بعده.

كان بيت أبي أيوب الأنصاري متواضعا ليس فيه إلا غرفتان، سفلى وعليا، فنزل النبي ﷺ في السفلى، وكان أبو أيوب وزوجته في العليا، فكره ذلك فقال: يا نبي الله

اظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال له: يا أبا أيوب؛ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت!!.

فانظر إلى هذا التواضع، وهذه الرحمة العظيمة من النبي ﷺ بمن يغشاه من الصحابة ومن أصحاب الحاجات!!.

قال أبو أيوب: انكسر جب لنا[1]، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفا أن يقطر منه شيء على رسول الله ﷺ فيؤذيه!!

يتلمسان أثر يده:

قال: وكنا نصنع العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا ردَّ علينا فضله تلمَّست أنا وأُمُّ أيوب موضع يده، فأكلنا منه، نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً أو ثوماً، فردَّه رسول الله ﷺ، ولم أرَ فيه ليده أثراً، فجئته فزعا فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك، ولم أر فيه موضع يدك، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة؟ قال: إني وجدت ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجى ربي، فأما أنتم فكلوه، فأكلناه، ولم نعد نصنع له تلك الشجرة بعد، وهذا توجيه نبوي كريم لكل ذي وجاهة أو سلطان لكي ينأى بنفسه عن كل ما يؤذي الناس من رائحته سواء كانت في بدنه أو ثيابه أو فمه.

فانظر إلى هذا الحب والتخوف من أن يصل شيء من الماء إلى رسول الله ﷺ، وانظر إلى هذا الأدب الجم مع النبي ﷺ، فلا يأكل من الطعام شيئاً حتى يأكل رسول الله ﷺ، فإذا أكل أكل وأكلت زوجته من الموضع الذي أكل منه ابتغاء البركة بأثر يده. وانظر إلى ذاك الطعام الذي لا إسراف فيه ولاتنويع في ألوانه، ولكن فيه كرم الضيافة، وجودة الصنعة. وانظر إلى رفق النبي ﷺ ورحمته بمن يناجيه، وخشيته أن يشم منه أحد رائحة غير طيبة!!.

هنيئاً لك:

فهنيئا لك أبا أيوب ولزوجتك هذا الشرف العظيم الذي فزت به، باستضافة النبي

---

(١) جرة ماء.

ﷺ في بيتك، وأكله من طعامك، ودعائه لك ولزوجك، والبركة العظيمة التي أكرمك الله تعالى بها أنت وزوجك الطيبة، فإذا أكل أكلتما من موضع يده المباركة، فقد والله فزتما بأكرم ضيف، وظفرتما بدعاء أشرف من دعا، ومشى في بيتكما أبر وأتقى من مشى !!

وهنيئا لك أبا أيوب ما أكرمك الله به من الصحبة والنصرة والجهاد، مع حبيبك رسول الله ﷺ، وحضور غزواته، والجهاد معه ومع خلفائه الراشدين من بعده ! وهنيئا لك الشهادة التي أكرمك الله بها على أسوار القسطنطينية، عندما ركبت البحر غازياً في سبيل الله في خلافة أمير المؤمنين معاوية -رضي الله عنه- وكان يزيد بن معاوية أمير ذلك الجيش، ومعك عشرات الصحابة الأبرار، والمجاهدين الأبطال، وأنتم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «ناسٌ من أمتي عُرضوا علي غزاةً في سبيل الله يركبون ثبج[1] هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة»[2]، فكان قبرك وقبور أصحابك هناك، حتى فتح الله تلك العاصمة على المسلمين، على يد الخليفة العثماني العظيم الفاتح، فبنى إلى جانب قبرك مسجداً عظيماً مازال يحمل اسمك شاهداً على حسن بلائك وصدق جهادك حتى يقوم الناس لربِّ العالمين، فرضي الله عنك وأرضاك وقد فعل.

* * * *

---

(١) ثبج: عرض البحر .

(٢) متفق عليه وانظر الحديث بطوله في: فتوحات عثمان (معاوية يغزو البحر المتوسط).

بناء المسجد

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾

تنافس الصحابة في بناء المسجد:

بدأ النبي ﷺ عهده بالمدينة بإقامة المسجد، لأنه مكان اجتماع المسلمين للصلاة والخطبة، وتلاقي القلوب على الإيمان، وما يدعو إليه من التراحم والتعاون والتناصر والعدالة والمساواة بين جماعة المسلمين، وإشاعة المحبة بينهم. وكان مكان المسجد لغلامين يتيمين من الأنصار كانا في كفالة أسعد بن زرارة، وأراد الغلامان أن يهبا المكان بلا ثمن، فأبى النبي ﷺ إلا أن يدفع الثمن رحمة بهما، وأرسل إلى ملأ من بني النجار كان لهم حائط فقال: ثامنوني بحائطكم، فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، وكان في مكان المسجد شجر ونخيل وقبور قديمة، فبدأ العمل بقطع الأشجار ونبش القبور، وقد شارك النبي ﷺ بالعمل ليرغب المسلمين في الأجر، وكان المهاجرون والأنصار يتنافسون ويحث بعضهم بعضا على العمل، فلما رأى الناس ذلك قائل قائلهم:

لَئِنْ قَعَدْنَا والرَّسُولُ يَعْمَلُ ... لَذاكَ مِنَّا العَمَلُ المضَلَّلُ

وقال بعضهم:

لا عَيْشَ إلّا عَيْشُ الآخِرَة ... اللّهم ارْحَمِ الأنْصارَ والمهَاجِرَة

فأعجب ذلك الصحابة فرددوه، فقال رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار»، فقدم وأخر لأنه لا ينبغي له أن يقول شعراً، كما حكى القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ...﴾

فانظر كيف قدّم المهاجرين على الأنصار، وفي ذلك لفتة كريمة، وبيان واضح إلى فضل المهاجرين على الأنصار. فالهجرة وترك الأهل والديار ومعاداة العشيرة والقبيلة في سبيل الله لايعدله شيء من البذل والإيثار مهما بلغ.

وارتجز علي رضي الله عنه وهو يعمل في بناء المسجد فقال:

لا يَسْتَوي مَنْ يَعْمُرُ المساجِدَا   يَدْأَبُ فيهَا قَائِماً وقَاعِدَا

وَمَنْ يُرَى عَنِ الغُبَارِ حَائِدَا

فأقبل من كان لايعمل من الصحابة على العمل، وشمَّر الجميع عن سواعد الجد حتى تم بناء المسجد الشريف. بنوه باللبن والطين، وجعلوا عضاداته من جذوع النخل، وسقفه من جريد النخل وفرشوا أرضه بالرمل فكان في غاية التواضع!!.

وكان عمار بن ياسر رجلا جلدا، فكان بعض الصحابة يُحملونه ويُثقلون عليه، فقال عمار: يا رسول الله قتلوني، يحملون علي مالا يحملون! فأشفق عليه النبي ﷺ، ونفض عن رأسه التراب وقال: « ويح ابن سميّة، ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية»!!.

وكان هذا من دلائل النبوة، فقد قتل رضي الله عنه في صِفّين، وكان في فئة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتلته الفئة التي كانت مع معاوية بن أبي سفيان، وقد سماها رسول الله ﷺ الفئة الباغية.

بناء الحجرات:

وبنى ﷺ لنفسه حجرتين في جنوب شرق المسجد، ولم يكن له حين هاجر إلا زوجتان، سودة بنت زمعة تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين، ثم هاجرت بعده، وعائشة بنت أبي بكر تزوجها قبل الهجرة ودخل بها في المدينة. وبنى حجرة للسيدة فاطمة وأختها السيدة أم كلثوم رضي الله عنهما، وكانت الحجرات صغيرةً متواضعةً على غرار المسجد وعلى نعته، من اللَّبِنْ وجريد النّخل، فلما تم بناء حجراته انتقل إليها ﷺ وانتهت بذلك إقامته في بيت أبي أيوب رضي الله عنه.

صفة الحجرات:

وكانت الحجرات في شرق المسجد من الجنوب وخارجة عنه، وكانت الأرض التي بنى عليها الحجرات لحارثة بن النعمان رضي الله عنه، وكان كلما تزوج النبي ﷺ زوجة تنازل له حارثة عن جزء من بيته، فيبني عليه حجرة أخرى من اللبن وجريد النخل، على غرار حجرة السيدة عائشة. فلما ضاق المكان بالحجرات، بنى ثلاث حجرات في شمال المسجد، واحدة لجويرية بنت الحارث، وأخرى لرملة بنت أبي سفيان، وثالثة لصفية بنت حيي رضي الله عنهن، فكنَّ ست حجرات في جوار حجرة السيدة عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي، وثلاثا في شمال المسجد.

ويصف الحسن البصري هذه الحجرات فيقول: كنت أدخل بيوت رسول الله ﷺ وأنا غلام مراهق وأنال السقف بيدي. وخلاصة ما يستفاد من الروايات عن الحجرات الشريفة أن مساحة كل حجرة لا تزيد عن خمسة أو ستة أمتار مربعة، وارتفاع سقفها لا يزيد عن مترين إلا قليلا. وقد هدمت هذه الحجرات بأمر الوليد بن عبد الملك حين جدَّد بناء المسجد،وكان عمر بن عبد العزيز أميراً على المدينة.

لوددت أنهم تركوها:

قال سعيد بن المسيب: والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشيء من أهل المدينة، ويقدم القادم من الآفاق، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر.

وقال عمران بن أبي أنس بعد أن وصف الحجرات وبناءها من اللبن وجريد النخل: فأما ماذكر من البكاء يومئذ، فلقد رأيتني في المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبي ﷺ، وإنهم ليبكون حتى أخضلوا لحاهم من الدمع!!.

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: ليتها تركت فلم تهدم، حتى يقصر عن البناء، ويروا ما رضي الله لنبيه، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده!!.

فانظر وتأمل كيف عاش هذا النبي الأسوة مع أزواجه أمهات المؤمنين في هذه الحجرات المتواضعة زاهداً في الرفاهية والزينة، وكيف عاش أصحابه على غرار حياته في الزهد والتواضع والإعراض عن الحياة الدنيا وزينتها، وكيف باعوا حياتهم لله حتى أقاموا في الأرض أعظم دولة، وشيدوا للبشرية أشرف حضارة، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

* * * *

تعظيم شأن الأنصار

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

رأينا كيف ضرب الأنصار مثلاً أعلى في التضحية والإيثار والمواساة، وبلغوا في ذلك شأواً لا يستطيع بلوغ مثله مجتمع بشري في التاريخ الإنساني كله. والسر في ذلك أنهم تلقوا الإيمان والقرآن والتربية والتزكية في مدرسة النبوة الكريمة، فاستنارت قلوبهم بأنوارها، وتكاملت الفضائل في أنفسهم تكاملا عجيبا، وكانوا خير من آوى، ونصر الله ورسوله إلى آخر الدهر !!

وكفى بالله شهيداً:

ولقد شهد الله تعالى للأنصار بهذه الخصال الكريمة قرآنا يتلى إلى يوم القيامة فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(1).

أكرمي ضيف رسول الله:

روى الشيخان في سبب نزول هذه الآية عن أبي هريرة، أن رجلا أتى رسول الله ﷺ، فلم يجد عند نسائه ما يضيِّفه به، فقال: «من يضيِّف هذا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيِّئى طعامك، وأصبحي سراجك، ونوِّمي صبيانك

---

(1) الحشر – ٩.

إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح، غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (١).

ألسنا نرى في هذه القصة ما يبعث على الدهشة، والإعجاب والتقدير على هذا الإيثار، وما كان بينهم وبين المهاجرين من تحابٍّ وتوادٍّ وتآزرٍ وإيثارٍ على النفس والأهل والأولاد، حتى إنهم ليقدمون حاجات إخوانهم على حاجاتهم، ويفضِّلونهم على أنفسهم!!

ومن هذا القبيل ما نقرؤه في آيتين أخريين من سورة الأنفال تجمعان بين المهاجرين والأنصار جمعاً يجعلهم وحدة إيمانية فريدة يستحيل أن تتكرر، وكأنهم في توادِّهم وتراحمهم جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى !!

آووا ونصروا:

نرى هذا واضحا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ...﴾ (٢).

أوليست هذه الصفات الكريمة العزيزة نادرة الوجود، إلا في أصحاب النبي ﷺ الذين بلغوا ذروة الإيمان، وكانوا خير أمة أخرجت للناس بشهادة الله!!.

ونرى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٣).

نلاحظ أن الآيتين تصفان الأنصار بصفتي الإيواء والنصرة: ﴿....وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ بالأموال والأنفس.. وهما من أخصِّ صفاتهم الدَّالة على مواساتهم

---

(١) الحشر ٩

(٢) الأنفال ٧٢

(٣) الأنفال ٧٤

لإخوانهم في أموالهم وديارهم، والجهاد معهم والتضحية بالدماء والأرواح.

الله سماهم:

ومن تمام فضل الله تعالى وثنائه عليهم أنه هو سبحانه الذي سمَّاهم بهذا الاسم الكريم، فأنزل الوحي بتسميتهم بلقب (الأنصار) في آيتين كريمتين أُخريين تأكيداً على توادِّهم وتناصرهم، وزيادةً في الثناء عليهم، والإشادة بفضائلهم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(1).

روى غيلان بن جرير قال: قلت لأنس رضي الله عنه: أرأيت اسم الأنصار كنتم تُسمُّون به، أم سمَّاكم الله تبارك وتعالى؟ قال: بل سمَّانا الله عز وجل(2).

أما الآية الثانية التى جاء فيها تسميتهم بالأنصار فهى قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ...﴾(3).

فما أعظمها من توبة، وما أعظمها من بشارة لهم بالمغفرة والرحمة، حتى خصَّهم الله تعالى برأفته ورحمته زيادةً في بيان رضوانه عنهم وحبِّه لهم فقال ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

آية الإيمان حُبُّ الأنصار:

أحب الرسول ﷺ الأنصار حباً عظيماً وأمر بحبهم والإحسان إليهم والعفو عن مسيئهم، ودعا لهم، وأشاد بصدقهم وإخلاصهم في مواقف كثيرة خالدة، ما تزال حية نابضة شاخصة للأبصار تدعو إلى التفكر والاعتبار !! ولولا أن هذه المواقف قد جاءت بها الروايات الصحيحة لظُنَّت من صنع الخيال!!. فقد روى الشيخان عن

---

(1) التوبة ١٠٠

(2) رواه البخاري.

(3) التوبة ١١٧

أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار!!».

قال ابن حجر في الفتح: خُصّوا بهذه المنقبة لما فازوا به.. من إيواء النبي ﷺ ومن معه، والقيام بأمرهم ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم، وإيثارهم إياهم.. على أنفسهم.. فلهذا جاء التحذير من بغضهم، والترغيب في حبهم.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر!!».

لايبغضهم إلا منافق:

ومن دلائل علوِّ منزلة الأنصار عند الله ورسوله أن الله يحب من أحبهم، ويبغض من أبغضهم، فقد روى الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول للأنصار: «لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله!!».

أحب الناس إليه:

لذلك كان حب الأنصار يظهر لدى رسول الله ﷺ في شتى المناسبات وأكثر الأحوال، فلا يدع موقفا من المواقف المهمة إلا ويعلن عن حبه لهم. فمن ذلك ما رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى صبياناً ونساءً من الأنصار مقبلين من عرس، فقام ممثلا[(١)] فقال: «اللهم أنتم من أحبِّ الناس إليّ، اللهم أنتم من أحبِّ الناس إلي». وعند البخاري: (قالها ثلاث مرات).

لَسَلَكْتُ وادي الأنصار:

ومن ذلك ما رواه الشيخان أيضا أن النبي ﷺ قال للأنصار حين عتبوا لأنه لم يعطهم من غنائم حُنَين، وأعطى المؤلّفة قلوبهم: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبوا برسول الله؟ قالوا: بلى.. ثم قال: «لو سلك الناس وادياً،

---

(١) مظهراً الاهتمام.

وسلك الأنصار شِعباً لسلكت وادي الأنصار، أو شعب الأنصار!!».

وفي هذا الموقف إياه أشاد بالأنصار وذكر سابقتهم ونصرتهم وتضحياتهم وإيواءهم فقال ﷺ: «يا معشر الأنصار، لو شئتم لقلتم فلصدقتم، أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك!! فصاحوا يبكون ويعتذرون: بل المنّ علينا لله ولرسوله!!».

فما بالك بقوم يشهد لهم رسول الله ﷺ أنهم صدَّقوه ونصروه وآووه وآسوه؟!! بينما كذَّبه قومه وخذلوه وآذوه وهمّوا بقتله!!.

دعاؤه لهم:

ومما يدل على عظيم الحب القائم بين النبي ﷺ وبين الأنصار ما رواه مسلم عن أبي هريرة أن الأنصار قالت يوم الفتح: أما الرجل - يعني النبي ﷺ - فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته، فجاء الوحي إليه بما قالوا، فأخبرهم به، فقالوا: قد قلنا ذلك، فقال: «كلا والله، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والمات مماتكم!!» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله وبرسوله -أي خشية أن نفارقك -! فقال ﷺ: «إن الله ورسوله يصدِّقانكم ويعذرانكم!!» ثم دعا للأنصار فقال: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»[1]. وفي رواية للترمذي زيادة: «ولنساء الأنصار، ولذراري ذراريهم».

الله ورسوله يصدِّقانكم:

فانظر إلى هذا الحب العميق الصادق الذي أحبَّ به الأنصار رسول الله ﷺ، وانظر إلى حبِّ النبي ﷺ للأنصار، وماقاله في ذلك، ثم انظر إلى هذا الاعتذار الذي قدَّمه الأنصار بين يدي النبي ﷺ: بكاءاً يبلِّل لحاهم، واعتذاراً يفيض وفاءً وبرّاً، وإنهم ما قالوا ذلك إلا حبّاً لرسول الله ﷺ خشية أن يقيم في بلده مكة فيفارقونه إلى ديارهم. ثم انظر أخيرا إلى شهادة الله ورسوله لهم حين قال: «إن الله ورسوله

---

(١) متفق عليه.

يصدِّقانكم ويعذرانكم»، ما أعظمها من شهادة وكفى بالله شهيدا وكفى برسوله مصدِّقا وعاذرا.

أوصيكم بالأنصار:

ومن المواقف المؤثرة حقاً، والدَّالة على عظيم الحب المتبادل بين النبي ﷺ وبين الأنصار مارواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر - رضي الله عنه - مرّ على مجلس للأنصار يبكون - حين مرض النبي ﷺ مرضه الذي توفى فيه، فدخل أبو بكر عليه فأخبره ببكائهم، فخرج ﷺ وقد عصب رأسه، فصعد المنبر - ولم يصعده بعد ذلك اليوم - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي [1] وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»!!.

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أيها الناس إن الناس يكثرون وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام؛ فمن ولي منكم أمرا يضرُّ به أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم!».

فانظر وتأمل في هذا الحب العجيب، والوفاء الكبير لهؤلاء الأنصار، جزاء ما قدَّموه للإسلام من تضحيات، وانظر كيف تحامل ﷺ على مرضه وآلامه في آخر حياته المباركة، فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك ليوصي بالأنصار، ويوجب على المسلمين عامة، وعلى أولي الأمر خاصة أن يقدِّروا إحسانهم وإحسان أبنائهم وأحفادهم ويكافؤوهم عليه، وأن يتجاوزوا عن المسيئين ويعفوا عن المخطئين!!.

كثرة شهداء الأنصار:

شهد التاريخ للأنصار - رضوان الله عليهم - أنهم كانوا مجاهدين صادقين، حريصين على الشهادة في سبيل الله، وقد رزقهم الله ذلك في المواطن الكثيرة، في حياة النبي ﷺ

---

(١) الكرش: مستودع الغذاء للدابة، الذي تكون به صحتها وقوتها، والعيبة: الوعاء الذي تحفظ فيه الأشياء النفيسة الغالية، وقد مثلهم النبي ﷺ بهذين ليدل على أن الأنصار هم بطانته وخاصته وموضع ثقته، والله أعلم.

وبعد وفاته، فقد روى البخاري في صحيحه عن قتادة رضي الله عنه قال: ما نعلم حيّاً من أحياء العرب أكثر شهيدا، أعزَّ يوم القيامة من الأنصار!! قال قتادة: وحدثنا أنس ابن مالك: أنه قتل منهم يوم أُحُدٍ سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون.

ولا ينفي هذا القول استشهاد غيرهم في تلك المواطن، بل مراد أنس رضي الله عنه أن أكثر من استشهد في أحد ويوم بئر معونة كان منهم، أما في اليمامة فقد كان عدد شهداء المسلمين نيِّفاً وخمسمائة شهيد، منهم سبعون من الأنصار!! وهذا عدد كبير إذا ما قيس إلى كثرة المجاهدين من غيرهم، ولعل هذا أفضل ما يفسر قول النبي ﷺ حين أوصى بهم فقال: «.. أيها الناس إن الناس يكثرون، وتقلّ الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام» ولعلَّ مراد النبي ﷺ - والله أعلم - الإخبار بصدق جهادهم، وكثرة حروبهم، حتى يقضي أكثرهم نحبه في ساحات الجهاد، فيقلَّ نسلهم، ويندر وجودهم!!!.

فرضي الله عنهم وأرضاهم، وعن سائر الصحابة أجمعين، وأصلح الله قوما أبغضوهم، وحقدوا عليهم، وشوَّهوا تاريخهم بالإثم والعدوان، فهم كما قالت عائشة رضي الله عنها: أمروا أن يستغفروا لهم فسبّوهم!!!.

ونسألك اللهم أن تغفر لنا ولأصحاب النبي ﷺ مهاجرين وأنصار، ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

* * * *

مُبايعاتهم

كان الرجل إذا أسلم إذا أسلم يكون إسلامه بيعة للنبي ﷺ على القيام بأعمال الإسلام، وتحمُّل الصِّعاب والصَّبر على الأذى، وبذل الجهد والراحة والنفس في سبيل إقامة الدين، ومناصرة الرسول ومتابعته، دون أن يكون لهم في ذلك غاية دنيوية، ولا حظٌّ من حظوظ النفس العاجلة، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم بقول الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

ثم صارت البيعة عملاً جماعياً حين بايع النبي ﷺ الأنصار في العقبة الأولى والثانية، وكانت البيعة على الإسلام وعلى السمع والطاعة، وعلى الجهاد وعلى حماية النبي ﷺ والدفاع عنه، وعلى قتال الأبيض والأسود في سبيل نصرة الإسلام وإقامة دولته في الأرض، لذلك رأيناهم يسألون النبي ﷺ قبل أن يبايعوه: فما لنا؟ قال: الجنة، فقالوا: امدد يدك يا رسول الله نبايعك، فبايعوه.

وفي الحديبية بايع الصحابة النبي ﷺ على الموت وعدم الفرار، وعلم الله صدقهم فأنزل السكينة عليهم ورضي عنهم، وسميت بيعتهم تلك بيعة الرضوان، لأن الله عزوجل أنزل فيها: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[2].

---

(١) التوبة ١١١

(٢) الفتح ١٨

وحتى تكون البيعة تامة الشروط فلابد من الثبات عليها وعدم النكث فيها، فقد حذَّر الله عز وجل أهل بيعة الرضوان من النكث فيما بايعوا عليه يوم الحديبية فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١) وليس هذا خاصّاً ببيعة الرضوان، بل يشمل كل صحابي بايع النبي ﷺ في حياته، وكل مسلم يبايع إماما من أئمة المسلمين إلى يوم القيامة!!.

١ - مبايعتهم على السمع والطاعة وقول الحق:

كانت مبايعات الصحابة تختلف باختلاف المرحلة التي تتم فيها البيعة، فالبيعة قبل لقاء الأنصار كانت على أعمال الإسلام. فلما فرضت الهجرة أصبحت البيعة على الإسلام والهجرة. أما الأنصار فكانوا يبايعون على السمع والطاعة، وعلى حماية النبي ﷺ من كل أعدائه، ولم يكونوا يبايعون على الهجرة، لأن الناس كانوا يهاجرون إليهم، فعن عبادة بن الصامت الأنصاري رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أَثَرةٍ علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف لومة لائم» (٢).

٢ - البيعة على الإسلام والجهاد:

لما فتحت مكة انقطعت الهجرة، فلم يعد النبي ﷺ يبايع على الهجرة، لأن مكة أصبحت دار إسلام، فلا هجرة بعد الفتح، فعن يعلى بن منية رضي الله عنه قال: جئت رسول الله ﷺ ثاني يوم الفتح فقلت: يا رسول الله بايع أبي على الهجرة، قال: «بل أبايعه على الجهاد، وقد انقطعت الهجرة يوم الفتح» (٣).

---

(١) الفتح ١٠

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه النسائي.

وأخرج الشيخان عن مجاشع بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ أنا وأخي فقلت: بايعنا على الهجرة، فقال: « مضت الهجرة لأهلها»، قلت علامَ تبايعنا؟ قال: «على الإسلام والجهاد».

٣- البيعة على أن لا نسأل الناس شيئا:

ومن عظيم تربية النبي ﷺ للصحابة أنه كان يربِّيهم على العفَّة وعدم المسألة في الأموال، ويرتفع بهم إلى ما هو أعلى من ذلك وأشرف، وهو الاستغناء عن الناس في الصغيرة والكبيرة، وهذا ما لم تصل إليه تربية دنيوية لا في القديم ولا في الحديث.

فمن ذلك ما رواه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية، فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟! قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا، وأَسرَّ كلمة خفية، ولا تسألوا الناس».. قال عبد الرحمن فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه[1].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا أَتكفَّل له بالجنة؟» فقلت أنا، فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب، فلا يقول لأحدٍ ناولنيه، حتى ينزل فيأخذه.[2]

وعن أبي مليكة قال: ربما سقط الخطام من يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيضرب بذراع ناقته فينيخها فيأخذه، فقالوا له: أفلا أمرتنا فنناولكه؟ قال: إن حِبِّي رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئا[3].

٤- أن لا أخاف في الله لومة لائم:

ومن مبايعات الصحابة أنهم كانوا يبايعون على عدم الخوف إلا من الله تعالى، فعن

---

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي

(٢) رواه احمد والنسائي وابن ماجة.

(٣) رواه أحمد

أبي ذر رضي الله عنه قال: بايعني رسول الله ﷺ خمساً، وأوثقني سبعاً، وأشهد الله علي سبعاً: أن لا أخاف في الله لومة لائم، فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «هل لك إلى البيعة ولك الجنة؟» قلت: نعم، وبسطت يدي، فقال رسول الله ﷺ وهو يشترط علي أن لا أسأل الناس شيئا، قلت: نعم، قال: «ولا سوطك إذا سقط منك حتى تنزل فتأخذه!!».

٥- البيعة على الجهاد والصدقة:

جاء بشير بن الخصاصية ليبايع فقال للنبي ﷺ: علام تبايعني يا رسول الله؟ فمد رسول الله ﷺ يده فقال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وتصلي الصلوات الخمس لوقتها، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله»، فقال بشير: كُلاً نطيق إلا اثنين فلا أطيقهما!!؛ الزكاة، والله مالي إلا عشر ذودُهنَّ رسل أهلي وحمولتهم، أما الجهاد فإني رجل جبان، وأخاف إن حضر القتال أن أخشع فأفرّ فأبوء بغضب من الله، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم قال: يا بشير لا صدقة ولا جهاد، فبم إذن تدخل الجنة؟ فقال: يا رسول الله ابسط يدك أبايعك، فبسط يده، فبايعته عليهن كلهن[1].

مبايعات المهاجرات:

هاجر كثير من النساء بعد صلح الحديبية من مكة إلى المدينة، وكنَّ قبل ذلك مستضعفاتٍ لا يستطعن الهجرة وكان أكثرهن متزوجاتٍ بمشركين، فنهى الله تعالى النبي ﷺ عن ردّهن إلى أزواجهن، وأنزل تحريم زواج المسلمات بمشركين، ولم تستطع قريش أن تطالب بردِّهن لأنه لم يرد في بنود الصلح ذكر للنساء، فأذن الله عز وجل لرسوله أن يبايعهن على الإسلام، فبايعهن دون أن يصافحهن كما يصافح الرجال، فقد روى البخاري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها أخبرته أن النبي ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ

---

(١) رواه الإمام أحمد، والهيثمي في مجمع الزوائد١/٤٢.

ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قالت عائشة: فمن أقر بهذه الشروط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاما، ولا والله ما مست يده امرأة في المبايعة قط.

وأخرج مالك، وصححه ابن حبان عن أميمة بنت رقيقة أن النبي ﷺ حين أخذ عليهن الشروط: قال: «فيم استطعتنَّ وأطقتنَّ؟» فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلمَّ نبايعك يا رسول الله فقال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة!!».

عمر يبايع نساء الأنصار:

ومن صور بيعة النساء ما روي عن أم عطية رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إليهنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقام على الباب، وسلم عليهن فرددن السلام، فقال: «أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن»، فقلن: مرحباً برسول الله ﷺ، وبرسول رسول الله ﷺ، فقال: «تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئا، ولا تسرقن، ولاتزنين، ولا تقتلن أولادكُنَّ، ولا تأتين ببهتانٍ تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصين في معروف».. قلن: نعم،.. فمدَّ عمر يده من خارج الباب، ومددن أيديهن من داخل، ثم قال: اللهم اشهد.

مبايعة النبي ﷺ:

لما فرغ النبي ﷺ من مبايعة الرجال يوم الفتح، جلس عند الصفا ليبايع النساء، فحضرن فبايعن، وقد روي أنه دعا بقدح فيه ماء فغمس فيه يده، ثم بايعهن، فغمسن فيه أيديهن، وكانت هند بنت عتبة قد جاءت متنقبةً خوفاً من رسول الله ﷺ لما صنعته بحمزة يوم أحد، فبايعهن رسول الله ﷺ بيعة النساء، فقال: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا، ولا تسرقن». فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس

يعطيني ما يكفيني، الا ما أخذت منه وهو لا يعلم؟!! فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال !! فضحك رسول الله ﷺ وقال: «أنت هند؟» قالت: نعم، فاعف عما سلف، عفا الله عنك. فقال: «خذي مايكفيك وولدك بالمعروف»، ثم قال: «ولا يزنين». فقالت: وهل تزني الحرة يارسول الله؟ فقال عمر: لو كان قلب نساء العرب على قلب هند مازنت امرأة قط !! فقال: «ولا يقتلن أولادهن» فقالت: ربيناهم صغارا، وقتلتهم كبارا، فأنت وهم أعلم. (وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان وأبوها عتبة، وعمُّها شيبة، وأخوها الوليد قد قتلوا جميعاً يوم بدر). فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ، فقال: «ولا يأتين ببهتان»، فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «ولا يعصين في معروف»، فقالت والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، فلما اطمأنّت إلى عفو النبي ﷺ قالت: يارسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباءٍ أحبّ إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباءٍ أحب إلي أن يعزّوا من أهل خبائك، قال: وأيضاً والذي نفسي بيده.

وفي هذا العفو والصفح الجميل ما لانظير له عند أحد من الناس !! فقد محا إسلامها وبيعتها من قلبه الشريف كل ماكان فيه من البغض والكراهية على ما فعلته بعمه حمزة رضي الله عنه، وكل ما كان من صدِّها وإعراضها عن الإسلام، وكذلك كان عفوه عن قريش وزعمائها وماكان من صدهم وعداوتهم، فلم يبق في قلبه من كراهيتهم شيء بعد أن أسلموا.

مبايعته للأطفال:

ومن عناية النبي ﷺ بالأحداث والصبيان ما أخرجه الطبراني عن محمد بن علي ابن الحسين رضي الله عنهم أنه بايع الحسن والحسين وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر وهم صغار لم يبلغوا، ولم يبايع صغيراً إلّا منا.

ومن ذلك ماوراه الطبراني أيضا أن النبي ﷺ بايع عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر وهما ابنا سبع سنين، فلما رآهما رسول الله ﷺ تبسم وبسط يده فبايعهما.

ونحن إذا تأملنا في هذه البيعات الصادقات اللاتي بايعها الصحابة الكرام رأينا مقدار اهتمام النبي ﷺ بتربية أصحابه على فضائل الأخلاق وأعمال الإسلام، وكيف كان الصحابة نماذج رائعة للصدق في العهد، والصراحة في السؤال عما يعاهدون عليه، حتى يعلموا علام يبايعون؟، فإذا رأى أحدهم في شروط البيعة مالا يستطيع الوفاء به أظهره لئلا يقع منه نكث،.. ورأينا كيف كان يأخذ بأيديهم إلى عزائم الأمور، وقوة الإرادة، فيرغِّبهم ويرهِّبهم حتى يعطوا البيعة راضين عازمين على توطين النفس على الوفاء بالعهد مهما تطلب ذلك من بذل!! ثم رأينا مقدار اهتمامه بالنساء ورحمته بهن حتى قلن متعجبات: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا!! وكيف كان ﷺ يعلِّمهن العفَّة والاحتشام ويبعدهنَّ عن أسباب الفتنة. ورأينا كذلك اهتمامه بالصبيان والأطفال وأنه كان يبايعهم كما يبايع الرجال، ويبشُّ في وجوههم لتبقى ذكراه وصورته ثابتةً في أنفسهم فلا ينسونه أبدا!! وفي ذلك أعظم الحكمة والإحسان في التربية!!.

* * * *

زهدهم وورعهم

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾

كان الصحابة رضوان الله عليهم أزهد الناس في الدنيا ونعيمها، وأكثر القرون رغبة في الآخرة، فشهد لهم بذلك الله تعالى في كتابه الكريم. وعن النبي ﷺ أخذوا القدوة والأسوة وساروا على نهجه القويم، فقد كان سيد الزاهدين وكانت لهم به أسوة حسنة. فلننظر كيف كان يربيهم ويزكيهم ويحذرهم من الاغترار بزينة الدنيا والتنافس عليها بأقواله وأفعاله وأحواله.

نماذج من زهده وتربيته:

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل».

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود ~ قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثَّر في جنبه، قلنا يا رسول الله، لو اتخذت لك وِطاءً؟ فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة، ثم تركها».

وروى مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي، ما يجد من الدقل [(١)] ما يملأ به بطنه.

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح

---

(١) رديء التمر.

عليكم من الدنيا وزينتها».

وفي الحديث المتفق عليه عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للصحابة بعد صلاة الفجر حين جاء أبو عبيدة -رضي الله عنه- بجزية البحرين فقال: «أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق والناس كَنَفَتْهُ، (أي أحاطوا به) فمر بجديٍ أسكٍّ ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟» فقالوا: مانحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ ثم قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا أنه أسك، فكيف وهو ميت؟!!. فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم!!».

زهد عُتبة بن غَزوان:

تحمل الصحابة من شظف العيش، ومن الجوع والعطش والعري ما لا يستطيع احتماله إلا الصابرون، وهم قليلون لا يصنع أمثالهم إلا الإيمان الحق، والرغبة في الآخرة.

روى مسلم عن خالد بن عمير أن عتبة بن غزوان رضي الله عنه،[1] لما كان أميرا على البصرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابّها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم.. ثم قال: ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين

---

(١) كان من السابقين، هاجر إلى الحبشة، ثم المدينة، وشهد بدرا وما بعدها، جعله عمر أميرا على الفتوح، فاختط البصرة وجعلها منطلقا لفتوحاته الكثيرة.

سعد بن مالك، فاتَّزرت بنصفها، واتَّزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما، وعند الله صغيرا».

وهنا يعبر عتبة رضي الله عنه أن الدنيا توشك على الانتهاء والرحيل، وأن الآخرة هي دار البقاء، ويوضح لمن حوله بأنه عاش أياما على شظف، ثم أفاء الله عليهم النعم، وحذرهم من الاغترار بالدنيا وزخارفها.

فانظر إلى هذا الأمير العظيم كيف يعظ رعيته، ويعلمها الزهد في الدنيا، ويذكرها ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من شظف العيش، ويحذرها من الاغترار بالدنيا، بعد أن أقبلت إقبال السيل، وانظر إليه وهو يشفق على نفسه من الفتنة بالمنصب والجاه!!.

مُصْعَب يتخلى عن الرفاهية!!.

أقبل مُصعب بن عُمير ورسول الله ﷺ جالس بقباء ومعه نفر، فقام مصعب وعليه بردة ما تكاد تواريه، ونكس القوم رؤوسهم تأثرا بمنظره، فجاء فسلم فردوا عليه، فأثنى عليه النبي ﷺ خيراً ثم قال: «لقد رأيت هذا عند أبويه بمكة يكرمانه وينعمانه، وما فتى من فتيان قريش مثله، ثم خرج من ذلك ابتغاء مرضاة الله ونصرة رسوله... أما لو تعلمون من الدنيا ما أعلم لاستراحت أنفسكم منها»[1] .. وعند الطبراني والبيهقي عن عمر رضي الله عنه قال: «انظروا إلى هذا الذي نوَّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حِلّة شراها ـ أو شريت له بمائتي درهم ـ فدعاه حبُّ الله وحبُّ رسوله إلى ما ترون!!».

فانظر إلى هذا الصحابي العظيم، الذين كان أول من هاجر إلى المدينة، وأول من دعا إلى الإسلام في يثرب فهدى الله به خلقا كثيرا، كيف أعرض عن كل ما كان يعيش به من رفاهية العيش، وكيف بذل روحه وراحته في سبيل الله حتى رزقه الله

---

(١) الحاكم ٦٢٨/٣

الشهادة في أُحد، فلم يجد الصحابة شيئاً يكفِّنونه به إلا نَمِرَة فكانوا إذا وضعوها على رأسه انكشفت رجلاه، وإذا وضعوها على رجليه انكشف رأسه، فأمرهم النبي ﷺ أن يغطّوا بها رأسه، وأن يجعلوا على رجليه من نبات الإذخر

عمر يبكي خوفا من الدنيا:

دعا عمر رضي الله عنه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فإذا بين يديه نطعٌ فيه الذهب منثور، فقال عمر: «هلُمَّ فأقسم هذا بين قومك، فالله أعلم حيث زوى هذا عن نبيه ﷺ، وعن أبي بكر فأعطيته، لخير أعطيتُه أم لشر؟!!»، ثم بكى وقال: «كلا والذي نفسي بيده ما حبسه عن نبيه وعن أبي بكر إرادة الشّر لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له»[١].

عمر يأبى أن يبدِّل جُبَّته!!.

ظلّ عمر رضي الله عنه على جبَّته، وكان قد رقّعها اثنتي عشرة رقعة، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرونها عليه، فمشى خلفه عيون المهاجرين والأنصار، فلم يجرأوا أن يسألوه أن يغير هذه الجبَّة بثوبٍ ليِّنٍ يُهاب فيه منظره، فقال بعضهم لبعض: ليس لهذا إلا علي بن أبي طالب فإنه أجرأ الناس عليه، وصهره على ابنته.. فكلّموه في ذلك فقال: لست بفاعل ذلك، ولكن عليكم بأزواج النبي ﷺ، فإنهن يجترئن عليه، فقالت عائشة: إني سائلة أمير المؤمنين ذلك، وقالت حفصة: ما أراه يفعل.. فلما دخلتا عليه هشّ لهما وبشّ وقرَّبهما لمكانتهما من رسول الله ﷺ، فاستأذنت عائشة فأذن لها، فتلطّفت في حديثها ومهدت، ثم قالت: قد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر.. ودانت لك أطراف المشرق والمغرب، ونرجو من الله المزيد.. ورسل العجم ووفود العرب يردون عليك، وعليك هذه الجبة قد رقعتها اثنتي عشرة رقعة.. فلو غيّرتها بثوبٍ ليّنٍ يُهاب فيه منظرك، ويغدى عليك بجفنة من الطعام، ويراح بجفنة تأكل أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار؟ فكان جوابه أن بكى بكاءً شديداً ثم قال: يا عائشة، سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ شبع من خبز برّ عشرة

---

(١) الطبقات ٣/٢١٨

أيام، أو خمسة، أو ثلاثة، أو جمع بين عشاءٍ وغداءٍ حتى لحق بالله؟ فقالت: لا.. فأقبل على عائشة وحفصة فقال: أنتما زوجتا رسول الله ﷺ، وأمهات المؤمنين، ولكما على حق، ولكن أتيتما تُرغباني بالدنيا، ثم أخذ يذكرهما بلباس رسول الله ﷺ وطعامه، فكلما حدّثهما من ذلك بشيء قالتا نعم! ثم قال: ألا يا حفصة، أنت حدثتيني أنك لينت فراش النبي ﷺ فعاتبك في ذلك وقال لك:.. ما لي وللدنيا، ما لي شغلتموني بلين الفراش !!، يا حفصة أما تعلمين أن رسول الله ﷺ كان مغفورا له.. أمسى جائعا، ورقد ساجدا، ولم يزل راكعاً وساجداً ومتضرّعا في آناء الليل والنهار، إلى أن قبضه الله برحمته ورضوانه؟ ثم قال: لا أكل عمر طيّباً، ولا لبس ليّناً، فله أسوة بصاحبيه، ولا جمع بين أدمين إلا الملح والزيت، ولا أكل لحما إلا في كل شهر !! فلم تستطيعا أن تجيباه بشيء، فخرجتا فخبّرتا بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فلم يزل عمر كذلك حتى لحق بالله عز وجل [(١)].

عثمان ينام في المسجد:

أخرج أبو نعيم في «الحِلْية» عن عبد الملك بن شدّاد قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة على المنبر، عليه إزارٌ عدنيّ غليظ، ثمنه أربعة دراهم أو خمسة دراهم وريطة، ورابطة كوفية ممشقة !!

وسئل الحسن البصري عن القائلين في المسجد فقال: رأيت عثمان يقيل في المسجد، وهو يومئذٍ خليفة، ويقوم وأثر الحصى بجنبه، فيقال: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين [(٢)].

علي يربط إزاره بخرقة:

وأخرج ابن المبارك عن زيد بن وهب قال: خرج علينا علي رضي الله عنه وعليه رداءٌ وإزارٌ قد وثّقه بخرقة فقيل له، فقال: إنما ألبس هذين الثوبين ليكون أبعد لي من

---

(١) رواه ابن عساكر عن الحسن البصري، وانظر حياة الصحابة ٢/٢٦٣.

(٢) صفة الصفوة ١/١١٦ والحلية ١/٦٠

الزهو، وخيراً لي في صلاتي، وسنة للمؤمن[١].

خَبّاب يخشى أن تكون طيِّباته قد عُجِّلت له:

سكن خباب بن الأَرَت رضي الله عنه الكوفة، فلما مرض مرضه الذي مات فيه عاده جمعٌ من الصحابة، فأرادوا أن يواسوه، فبشَّروه بلقاء النبي ﷺ والورود على الحوض، ولقاء الأحبة، وسمّوا له بعض السابقين ممَّن توفي من الصحابة فقال: كيف بهذا؟ - وأشار إلى أعلى البيت وأسفله - وقد قال رسول الله ﷺ إنما يكفي أحدكم كزاد الراكب!!.

وفي رواية عن طارق بن شهاب أنَّ خباباً بكى وقال: أما إنه ليس بي جزع - أي من الموت - ولكنكم ذكرتموني أقواماً، وسمَّيتم لي إخواناً، وإن أولئك قد مضوا بأجورهم كلهم، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم.

لقد رأى خباب رضي الله عنه أنه ليس كأولئك الصحابة لأنه بنى لنفسه بيتا!!، ونال شيئا من حظوظ الدنيا !!

وأخرج البخاري عن خباب رضي الله عنه أنه قال: هاجرنا مع النبي ﷺ نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنّا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً. كان منهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، قتل يوم أحد، لم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطَّينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غُطِّي بها رجلاه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غطُّوا بها رأسه، واجعلوا على رجله الإذْخِر، ومنا من أينعت ثمرته فهو يهدبها»[٢].

سلمان يبكي خشية من الدنيا:

عاد سعد بن أبي وقاص سلمان الفارسي في مرضه الذي مات فيه فبكى سلمان، فلما سأله سعد: ما يبكيك؟ تلقى أصحابك، وتَرِدُ على رسول الله ﷺ الحوض، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنك راض!! قال: ما أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً على

---

(١) المنتخب ٥/٥٨

(٢) رواه البخاري ومسلم، وانظر رياض الصالحين رقم ٤٧٦، ومعني يهدبها: يقطفها ويجنيها طازجة.

الدنيا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا فقال: ليكن بُلْغةُ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب، وهذه الأساود حولي.. وإنما حوله مطهرة أو إنجانة[1] ونحوها، فقال له سعد: اعهد إلينا عهداً نأخذ به بعدك؛ قال: اذكر ربك عند هَمَّكَ إذا هَمَمْتَ، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت[2].

وعند ابن ماجه: قال ثابت: فبلغني أنه ماترك إلا بضعة وعشرين درهما، مع نفيقة[3] كانت عنده!!.

زهد أبي ذَرّ:

كان رضي الله عنه أشد الصحابة زهداً في الدنيا، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، فلما فاض المال وأقبلت الدنيا زهد بها وأعرض عنها، وكان عطاؤه من بيت المال أربعة آلاف، فإذا جاءته أمر غلامه أن يشتري له ما يكفيه لسنته، ثم يوزع ما زاد على الفقراء، وقد أنكر على الصحابة الذين بنوا البيوت وسكنوا القصور وجمعوا الأموال، وكان يرى تحريم الكنز ويقول: ليس وعاء ذهب ولا فضة يوكأ عليه إلا وهو يتلظى على صاحبه يوم القيامة، فلم يوافقه على ذلك أحد من الصحابة، لأن المال إذا زُكّي فليس بكنز.

بالغ أبو ذر في الإنكار على الأمراء فقال لأبي موسى الأشعري حين ناداه يا أخي: لست بأخيك، إنما كنت أخاك قبل أن تُسْتَعْمَل أي قبل أن تصبح أميراً. ومرّ على أبي الدَّرداء وقد بنى مسكناً فقال: ما هذا؟ تعمر داراً أمر الله بخرابها!! ومن أشدِّ مواقفه حِدَّة أنه أنكر على عثمان سياسته في الأموال، ثم خرج إلى الشام فأنكر على معاوية، فشكاه معاوية إلى عثمان فأرسله إلى المدينة، فتحدث معه عثمان، وأنكر عليه قوله في تحريم الكنز، فلم يتراجع، وخرج من عند عثمان وهو يقول: سامعٌ مطيعٌ ولو أمرني أن آتي عدن، فخرج إلى الرَّبْذة فاعتزل فيها.

---

(١) وعاء لغسل الثياب.

(٢) الطبقات ٦٥/٤، والحلية ١٩٥/١ وأخرجه الحاكم.

(٣) قليل من المال

وعن عبد الله بن الصامت أن أم ذرٍّ قالت: والله ما سيَّر عثمان أبا ذرٍّ ـ تعني إلى الربذة ـ ولكن رسول ﷺ قال له: إذا بلغ البناء سلعا فاخرج منها فخرج مع زوجته وولده وغلامه، حتى توفي رضي الله عنه وحده، كما أخبر النبي ﷺ حين كان في غزوة تبوك فقال: يرحم الله أبا ذرٍّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده!!.

أسألك أن تشفع لي!!.

كان ربيعة بن كعب رضي الله عنه أحد الذين خدموا رسول الله ﷺ، فلنستمع إليه يحدثنا عن نفسه، فقد أخرج الإمام أحمد عن ربيعة بن كعب قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ نهاري أجمع حتى يصلّي العشاء الآخرة، فأجلس ببابه، حتى إذا دخل بيته أقول: لعلَّها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فما أزال أسمع رسول الله ﷺ يقول: سبحان الله وبحمده.. فقال لي يوما لما يرى من حقي له، وخدمتي إياه: يا ربيعة بن كعب، «سلني أُعطِكَ»، فقلت: أنظر في أمري يا رسول الله، ثم أعلِمُكَ ذلك، قال: ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيكفيني ويأتيني، فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي، فإنه من الله بالمنزل الذي هو به، قال: فجئته، فقال: «ما فعلت يا ربيعة؟» فقلت: نعم يا رسول الله، أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار، فقال: من أمرك بهذا يا ربيعة؟ فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أمرني به أحد، ولكنك لما قلت: سلني أعطك وكنت من الله بالمنزل الذي أنت به، نظرت في أمري فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقا يأتيني، فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي.. قال: فصمت رسول الله ﷺ طويلا ثم قال: «إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود»[1].

عن العاجل رغبت!!.

أخرج ابن عساكر وابن مَنْده عن عبد الجبار بن الحارث الحرشي رضي الله عنه يروي قصة إسلامه وفيها: «فحملني رسول الله ﷺ على فرس، فأقمت عنده أقاتل

---

(١) الترغيب ١/٢١٣.

معه فقال: «ما لي لا أسمع صهيل فرس الحرشي» ... فقيل لي: لو سألت النبي ﷺ كتاباً كما سأله ابن عمك تميم الدّارِي فقلت: أعاجلا سأله أم آجلا؟ فقالوا: بل عاجلا سأله، فقلت: عن العاجل رغبت، ولكن أسأل رسول الله ﷺ أن يغيثني بين يدي الله عز وجل»[1] أي يشفع لي.

كِدتَ تُهلِكُني:

أخرج الإمام أحمد في الزهد عن محمد بن سيرين، وأبو نعيم عن زيد بن أرقم قصة أبي بكر مع مملوكه، وأنه أتاه ليلة بطعام فأكل منه لقمة، ثم سأل مملوكه من أين جاء بالطعام فقال: مررت بقوم في الجاهلية فتكهَّنت لهم فوعدوني، فلما كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني، فقال: «كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ» .. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل جسد نبتَ من سُحْت فالنار أولى به»، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة[2].

وأخرج مالك والبيهقي عن زيد بن أسلم مثل هذه القصة عن عمر رضي الله عنه، في شربة لبن فأعجبه، فسأل الذي سقاه من أين لك هذا اللبن؟ فأخبره أنه ورد على إبل الصدقة وهم يسقون، فحلبوا له من ألبانها، فأدخل عمر يده فاستقاء.

وأخرج بن سعد عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: كنا نلزم عمر بن الخطاب نتعلم منه الورع[3].

بيننا وبينهم:

كان من ورع الصحابة رضوان الله عنهم ما رواه أنس رضي الله عنه أنه قال لبعض التابعين: «إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد

---

(١) المنتخب ٥/٢١٥ وانظر حياة الصحابة ٢/٥٩٦.

(٢) المنتخب٤/٣٦٠.

(٣) الطبقات ٣/٢٩٠.

رسول الله ﷺ من الموبقات»[1].

فانظر هذا الورع الكبير عند خير القرون الذي جعل أنساً رضي الله عنه يقول لأحد التابعين ما قال، مع أن التابعين مشهودٌ لهم بأنهم خير القرون بعد الصحابة، فماذا يكون حال من جاء بعدهم؟، وماذا يكون حالنا نحن في هذا الزمان؟!!.

أفبعد هذا يبقى شك في أن الصحابة الكرام كانوا بحقٍّ جيلاً فريداً لانظير له في البر والتقوى، و الزهد والورع، والبذل والعطاء، والتضحية والجهاد، والإيثار على النفس، وأن الله تعالى هو الذي اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، بفضل الله ورحمته، وتعليمهم وتزكيتهم بآياته، وصدقهم في طاعته وعبادته ومناجاته. وبفضل صحبتهم لرسول الله ﷺ، وما تلقوه عنه من تعليمه وتزكيته في غدواته وروحاته ومجالسته، وبصدقهم في التأسي به واتباعه، وفي حبه وطاعته، وفيما عاهدوا الله ورسوله عليه، وما بدلوا تبديلا، فرضي الله عنهم وأرضاهم وقد فعل.

* * * *

---

(١) رواه البخاري والموبقات: المهلكات.

إنفاقهم

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ..﴾

استرخص الصحابة إنفاق كل ما يملكون في سبيل الله، استجابة لدعوة الله لهم أن يبيعوا في سبيله أغلى ما يملكون حيث قال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ...﴾ ووفاءً ببيعتهم مع رسول الله ﷺ حين بايعوه على حرب أعداء الإسلام، وعلى إنفاق الأموال وبذل الأرواح بأن لهم الجنة. فقد رأينا إنفاق أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم كثير، ورأينا إنفاق الصحابة في تجهيز الجيوش للقتال، وأنهم كانوا يشترون الظهر والسلاح ويتزودون للقتال من حر أموالهم، الفقراء والأغنياء كلٌّ حسب استطاعته. ورأينا هجرتهم وتركهم أموالهم وديارهم، حتى صاروا فقراء، بعد أن كانوا أغنياء. وممن نذكر في هذا السياق صهيباً الرومي، الذي كان من الموالي الفقراء الذين عُذِّبوا في سبيل الله، كما عُذِّب عمَّار، وكان صديقاً له، وذاق من ذلِّ العبودية والفتنة في دينه مثل ما ذاق. فلما أراد أن يهاجر تبعه نفر من المشركين يريدون أن يمنعوه فقال لهم: يا معشر قريش إني من أرماكم، ولا تصلون إلي حتى أرميكم بكل سهم، ثم أضربكم بسيفي، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه، فرضوا ودلهم فرجعوا وأخذوا ماله، فلما لحق بالمدينة قال له رسول الله ﷺ: ربح البيع أبا يحيى، وقد أنزل الله تعالى فيه وفي أمثاله قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(١).

ولا عجب أن ينفق الصحابة أموالهم في سبيل الله وقد وعدهم الله تعالى بمضاعفة

---

(١) رواه ابن سعد وابن أبي خيثمة عن سعيد بن المسيب.

الأجر إلى سبعمائة ضعف، وإلى ما فوق سبعمائة ضعف فقال سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

ولا عجب أن يتسابق الأغنياء والفقراء إلى الإنفاق في سبيل الله وهم تلاميذ مدرسة النبوة، التي تلقوا عنها الدعوة إلى الإنفاق، وتعلموا فيها الجود والسخاء، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة[2] وهو ﷺ الذي علمهم أن يتقوا النار ولو بشق تمرة كما في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ.

أبو طَلْحَة يتخلى عن أحب ماله إليه:

فلنسمع قصة إنفاق هذا الصحابي الجليل كما رواها أنس -رضي الله عنه- قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله فقال: يارسول الله إن الله تعالى أنزل عليك ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحبَّ مالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ! ذلك مالٌ رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلتَ، إني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يارسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[3].

---

(١) البقرة ٢٦١

(٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه.

لقد عجبت السيدة عائشة رضي الله عنها من امرأة جاءت تسألها ومعها ابنتان فأعطت كل واحدة تمرة فأكلت كلُّ ابنةٍ تمرتها، ثم نظرت إلى أمها فقسمت الأم تمرتها نصفين فأعطت كل واحدة نصف التمرة، فلما جاء النبي ﷺ ذكرت ذلك له فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة»[١].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[٢].

فأيُّنا المغبون:

وأخرج الطبراني أن حكيم بن حزام رضي الله عنه باع داراً له بستين ألفاً اشتراها منه معاوية رضي الله عنه، فقيل له: غبنك معاوية!! فقال: والله لقد أخذتها في الجاهلية بزقِّ خمر، وأُشهدكم أنها في سبيل الله والمساكين والرقاب، فأيُّنا المغبون.؟!!.

أطولكن يداً:

وكانت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها امرأةً صناعاً، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق به في سبيل الله، وكانت تغزل الغزل وتعطيه سرايا النبي ﷺ يخيطون به، ويستعينون به في مغازيهم، وقد روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال لنسائه: «أسرعكن لحوقاً بي أطولكنَّ يدا»، قالت عائشة رضي الله عنها: فكنا إذا اجتمعنا ببيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نتطاول في الجدار، فلم نزل نفعل حتى توفيت زينب، وكانت امرأة قصيرة، ولم تكن بأطولنا، فعرفنا أنه ﷺ أراد طول اليد بالصّدقة[٣]، وكانت أسرعنا لحوقا به، وكانت تحب الصدقة !!.وكانت المعنية هي زينب رضي الله عنها.

أعطيه إيّاه:

وجاء مسكين إلى عائشة وهي صائمة وليس في بيتها سوى رغيف فقالت لمولاة

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري والحاكم وابن سعد في الطبقات، واللفظ للحاكم.

لها: أعطيه إياه، فقالت: ليس عندك ما تفطرين عليه!! فقالت: أعطيه إياه، فلما أمستا جاءهما من أهدى إليها شاة مطبوخة، فقالت عائشة: كلي من هذا، خير من قرصك!!.

لو ذكرتيني:

وجاءها يوما عطاؤها من الخليفة مائة ألف، فأنفقتها قبل أن تمسي، فلما أمست قدَّمت لها مولاتها خبزاً وزيتاً، وقالت: يا أُمَّاه لو تركت لنا درهمين نشتري لحما، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت!!

أبو الدَّحدَاح يقرض بستانه:

وروى أبو يعلى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا.... ﴾ قال أبو الدحداح: يارسول الله إن الله يريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح، قال: فأعطني يدك»، فقال أبو الدحداح: قد أقرضت ربي حائطي. وكان في حائطه ستمائة نخلة. وذهب إلى حائطه وفيه زوجه وعياله فنادى أم الدحداح فقالت: لبيك، قال: اخرجي، وأخرجي الأولاد، فقد أقرضته ربي.

وسارعت أم الدحداح فخرجت مع أولادها راضيةً، وقد روي أنها انتزعت ما في أيدي أولادها من الثمار، وردتها إلى البستان الذي أصبح للفقراء والمحتاجين، فرضي الله عنها وأرضاها وقد فعل.

النبي ﷺ يدعوهم للإنفاق:

ومن الصُّور الرائعة في إنفاق الصحابة، ماروّاه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي أنهم كانوا عند النبي ﷺ صدر النهار، فجاء قومٌ حفاةق عراةٌ يلبسون النِّمار أو العباء، عامَّتهم من مُضر، فظهر أثر ذلك في وجه النبي ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل بيته ثم خرج، ثم أمر بلالاً فأذن واقام فصلى، ثم خطب فقال: يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة.. الخ الآية.. والآية التي في الحشر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...... ﴾.. الخ الآية ثم قال: تصدَّق رجلٌ

من ديناره، تصدَّقَ رجلٌ من درهمه، تصدَّقَ رجلٌ من ثوبه، من صاع برِّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقِّ تمرة، قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها، بل عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال: من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء.

وسأل عثمان بن أبي العاص ~ رجلاً مر عليه بكبشٍ فقال: بكم اشتريته؟ قال: باثني عشر درهما، فقال أبو نضرة - رجل فقير - لو كان معي اثنا عشر درهماً اشتريت بها كبشاً فضحيت وأطعمت عيالي - وكان ذلك في أيام العَشْر - فلما ذهب أبو نضرة أرسل إليه عثمان صرة فيها خمسون درهما، ! قال أبو طلحة فما رأيت دراهم قط أعظم بركة منها، أعطاني وهو لها محتسب، وأنا إليها محتاج !!.

ونكتفي بهذا القدر من إنفاقهم وقد مرَّ بنا وسيمر الكثير من النماذج الأخرى.

* * * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب:

سبحان الذي هو أحقُّ من يذكر، وأحقُّ من يشكر، فقد علَّمنا سبحانه وتعالى أن ذكره عزَّ وجل يطمئِنُّ القلوب المؤمنة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، وأثنى الله على الذاكرين الله كثيرا والذاكرات.

وذكر الله عبادة قلبية ولسانية، تنوِّر القلب وتملأ النفس سكينة وطمأنينة وخشية من الله تعالى، وإيماناً به وحبّاً له، ومسارعة في مرضاته وطاعته، وإحساساً بقربه ومراقبته، وبعداً عن محارمه.. واطمئناناً به، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (١)

عبادة قلبية ولسانية:

أما كونه عبادة قلبية فلقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ (٢).

وأما كونه عبادة باللسان فلأنَّ اللّسان آلة الذكر من قراءة قرآن، ومن التلفظ بالشهادة، ومن التسبيح والتحميد والتكبير، ومن الاستغفار والتوبة والدعاء والصلاة على النبي ﷺ ... وقد بيَّن الله تعالى الفرق بين الذاكرين والغافلين فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (٣).

---

(١) الرعد ٢٨.

(٢) الأعراف ٢٠٥.

(٣) الزمر ٢٢.

والذكر الأمثل هو الذي يواطئ فيه القلب اللسان، ويترك أثره على الجوارح، حتى يصبح الذاكر حبيباً لله، لا يسمع إلا ما يحبّه الله، ولا ينظر إلا كما يحبُّ الله، ولا يمشي إلا في طاعة الله، كما جاء في الحديث القدسي .. «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..»[1].

ذكره بطاعته:

وذكر الله تعالى يكون بالقلب واللسان كما يكون بالأخلاق والأعمال، فإذا كان مجرد كلمات يتحرك بها اللسان والشفتان، ولا يترك أثره في القلب والأعمال، فليس بالذكر المطلوب.. قال سعيد بن جبير رحمه الله: «الذكر طاعة لله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن كثر منه التسبيح وتلاوة القرآن..».

ذكره عند محارمه:

وقال الحسن البصري رحمه الله: الذِّكر ذِكْران، ذكر الله بينك وبين نفسك وبين الله عز وجل، ما أحسنه وأعظم أجره، وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرَّم الله عز وجل!! أي الوقوف عند الحرام وعدم الإقدام عليه خوفاً من الله فهو أعظم الذكر.

الذّكر بلاحدّ:

وقد أمر الله تعالى أنبياءه وصالحي عباده بذكره الكثير، فقال لزكريا عليه السلام: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[2] .. وقال موسى في مناجاة ربه: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا .. وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[3]، وخاطب الله تعالى موسى وأخاه بقوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[4].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) آل عمران ٤١

(٣) طه ٣٣ - ٣٤

(٤) طه ٤٢

الترغيب في الذكر:

كان الصحابة أكثر الخلق ذكرا لله بعد الأنبياء، امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. واقتداءً بسيد الذاكرين رسول الله ﷺ، فهم كما قال الله عز وجل: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ وكما وصف أولي الألباب بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ .....﴾[1] ولقد دعاهم إلى ذكره بقوله ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ....﴾[2] فاستجابوا لدعوته حتى صار ذكر الله أحبَّ إليهم من أنفسهم، وأصبحوا من كثرة الذكر كما قال قائلهم: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وإلى أهل النار في النار يتضاغون.. وأصبح أحدهم يقول لصاحبه: تعال يا أخي نؤمن ساعة !! أي نذكر الله.

وما أحسن ما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيها.

أذكار وأثمار:

ولاعجب أن تكون هذه أحوالهم فقد كان النبي ﷺ أسوتهم ومعلِّمهم، وقد رغَّبهم في ذكر الله، وبيّن لهم ما عند الله من الأجر العظيم للذاكرين بقوله: «من قال لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شئ قدير، عشر مرات، كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»[3] وبيّن لهم أن من قال ذلك «مئة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذاك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا رجل عمل أكثر منه»[4].

ومما رغبهم في الذكر قوله ﷺ «لأنْ أقولَ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله،

---

(1) آل عمران ١٩١

(2) البقرة ١٥٢

(3) متفق عليه

(4) متفق عليه

والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»(١) وقوله ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»(٢). وقوله: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقليتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(٣). ومن ذلك قوله: «إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده»(٤) وقوله: «من قال سبحان الله العظيم غرست له شجرة في الجنة»(٥).

ومما زادهم رغبة في ذكر الله أنه ﷺ سألهم يوماً فقال: «ألا أُنبِّئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضَّة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكر الله تعالى»(٦).

ومما رغبهم في ذكر الله تعالى تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً أن النبي ﷺ بلغهم تحية أبيهم إبراهيم عليه السلام فقال: «لقيت إبراهيم ﷺ ليلة أُسْرِيَ بي، فقال: يامحمد، أقرئ أمتك منّي السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(٧). أي إن الله يغرس بكل واحدة من هذه الأذكار الزكية غرسة في الجنة، ومن ذلك قوله: «الطُّهورُ شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماء والأرض»(٨).

ومن الأحاديث المرغِّبة في الذكر قوله ﷺ في الحديث الذى يرويه عن ربه عزوجل: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) الترمذي والحاكم.

(٤) رواه مسلم

(٥) رواه الترمذي والحاكم.

(٦) الترمذي والحاكم.

(٧) الترمذي

(٨) رواه مسلم.

ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[1].

تنوع الأذكار باختلاف الأحوال:

لقد شرع النبي ﷺ لأمته أذكاراً كثيرة، فلكلِّ حالٍ صيغة من الذكر يتعبد المسلم بها ربَّه عزوجل، فللصباح أذكاره، وللمساء أذكاره، وكذلك الحال عند النوم والاستيقاظ، وعند ركوب الدَّابة أو السفينة، وعند الوضوء والتيمم، وعند دخول الخلاء والخروج منه، وعند سماع الأذان... الخ.. وقد صنفت في الأذكار المأثورة كتب كثيرة، بعضها مختصر وبعضها مطوَّل، ولعلَّ من أجمعها وأنفعها كتاب (الأذكار) للإمام النووي رحمه الله. وفي كتاب (الترغيب والترهيب) للإمام المنذري فصول كثيرة في الترغيب بالذكر ومجالسه، ومايقال من الأذكار على اختلاف الأزمنة والأحوال. وفي الكتب الصغيرة المختارة من الأذكار ـ وهي كثيرة جدا ـ أذكار وأدعية جديرة بالاهتمام والاطلاع، وأن يكون للمسلم منها ورد في الصباح والمساء، وحد أدنى لسائر الأحوال.. وفي كتاب «رياض الصالحين» بعض الأبواب في فضل الذكر، وما يقال من الأذكار في الصباح والمساء وعند النوم، يحسن حفظها والمحافظة عليها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

(١) أذكارهم في الأسفار والغزوات:

أخرج البخاري أن النبيَّ ﷺ لما توجَّه إلى خيبر أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، الله أكبر، الله أكبر، فقال رسول الله ﷺ: «أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»، قال أبو موسى ـ راوي الحديث ـ وأنا خلف دابة النبي ﷺ فسمعني وأنا أقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، فقال: يا عبد الله بن قيس، قلت لبيك يارسول الله؟ قال: «ألا أدلُّك على كلمة من كنز الجنة؟» قلت: بلى يارسول الله، فداك أبي وأمي، قال: «لاحول ولا قوة إلا بالله!!».

---

(١) متفق عليه.

(٢) ذكر الله يطهِّر قلوبهم ويملؤها خشية من الله:

أخرج ابن عساكر عن ابن عمر أن الصحابة كانوا إذا خرجوا في الغزو يكثرون ذكر الله، والتذكير به، ويواسون الصاحب، وينفقون كرائم أموالهم، فهم أشدُّ اغتباطاً بما أنفقوا من أموالهم منهم بما استفادوا من دنياهم، فإذا كانوا في مواطن القتال استحيوا من الله في تلك المواطن أن يطلَّع على ريبة في قلوبهم، أو خذلان للمسلمين، فإذا قدروا على الغلول طهَّروا منه قلوبهم وأعمالهم، فلم يستطع الشيطان أن يفتنهم، ولا يكلِمَ قلوبهم، فبهم يعزّ الله دينه، ويكبت عدوه!!.

فانظر إلى تلك الأخلاق العظيمة التي تحلّو بها، فإنهم لم يستطيعوا بلوغها إلا بصدق إيمانهم، وصالح أعمالهم وبكثرة ذكرهم لله.

(٣) الصحابة يتنافسون على الأخرة:

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدَّثور بالدَّرجات العُلى والنعيم المقيم، يصلُّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال، يحجون ويعتمرون ويتصدقون !! فقال: «ألا أعلِّمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبِّحون وتحمدون وتكبِّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»، فلم يمضِ إلا قليل حتى رجع هؤلاء إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله؟ فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !!». فكأنه يقول للفقراء: إن الله تعالى قد فتح أمامكم أبواب الخير، فاسبقوا إخوانكم بالزيادة على ما قلت لكم!! وكأنه يقول ذلك لكل مسلم إلى يوم القيامة!!. ويبدو ذلك واضحاً في قوله: (ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم).

(٤) ذكر الله تعالى قبل النوم:

روى البخاري عن علي رضي الله عنه أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحى مما

تطحنه، فبلغها أن النبي ﷺ أتي بسبي، أي جاءه، فأتته تسأله خادماً فلم توافقه، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء ذكرت عائشة ذلك له فذهب إليهما وقد أخذا مضجعيها فقال: «ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما - أو إذا أخذتما مضاجعكما - فكبّرا ثلاثاً وثلاثين، وسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين فهذا خير لكما من خادم!!»، وفي رواية: التكبير أربع وثلاثون.[1]

وفي رواية: أن فاطمة أتت النبي ﷺ تسأله خادما فقال: «ألا أخبرك ما هو خير لك منه، تسبِّحين الله عند منامك ثلاثاً وثلاثين، وتحمدين الله ثلاثا وثلاثين، وتكبرين الله أربعاً وثلاثين،.. قال - علي - فما تركتها بعدُ، قيل: ولا ليلة صفِّين، قال: ولا ليلة صفِّين»[2].

وأخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ وكَّله بحراسة زكاة رمضان، فجاء في الليل رجل وأخذ يسرق من الطعام، فأمسكه أبو هريرة، فقال: إني محتاج وعليَّ عيال، فخلَّى سبيله، ثم جاء في الليلة الثانية فأمسكه فقال مثلما قال في الأولى، فخلَّى سبيله، فلما تكرَّر ذلك في الثالثة، قال: دعني أعلِّمُك كلماتٍ ينفعك الله بها، إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية... فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولن يقربك شيطان حتى تصبح، فخلَّى سبيله.

وكان النبي ﷺ يسأل أبا هريرة في كل مرة فيقول ما فعل أسيرك؟ فيقول: رحمته وخلّيت سبيله، فيقول ﷺ: إنه كذبك وسيعود، فلما كانت الثالثة قال: تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة؟ قال: لا: قال: ذاك شيطان[3].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري في باب الوكالة، وانظر الحديث في رياض الصالحين، باب الحث على سور وآيات مخصوصة حديث رقم ١٠٢٠.

فإذا علمنا أن الله تعالى قد أخبرنا أننا لا نرى الشياطين فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تبين لنا أن رؤية أبي هريرة لهذا الشيطان كان خرقا للمألوف، فهي كرامة من كرامات أبي هريرة رضي الله عنه. وفي السنة الشريفة أذكار أخرى كثيرة قبل النوم وبعده، يرجع إليها في كتب الأذكار.

(٥) إن الله يباهي بالذاكرين ملائكته:

كان من شأن الصحابة أنهم إذا وجدوا فراغا من شغل اجتمعوا في المسجد يقرأون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، أو يذكرون الله ويسبحونه ويحمدونه ويهلّلونه ويكبّرونه، لما علموه من فضل التلاوة والذكر، وأن الله تعالى يباهى بأهل الذكر ملائكته، فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية رضي الله عنه على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله. قال آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم استحلفكم تهمةً لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثا مني، إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته!!

(٦) الصحابيّات والذكر:

كان غالب أحوال أمهات المؤمنين رضي الله عنهنَّ أنهنَّ يمكثنَ بعد صلاة الفجر في مجالسهن يذكرن الله حتى يصبحن، وحتى يصلِّين الضحى في تلك المجالس، وكان النبي ﷺ يتعهد أزواجه بتعليمهن فنون الذكر وأحب صيغه إلى الله عز وجل، تعليماً للأمة، فقد روى مسلم عن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة - أي تذكر الله - فقال: مازلت على الحال التى فارقتك عليها؟ قالت: نعم، فقال ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع

كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، ورضي نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته». وفي رواية: «سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضي نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته».

(٧) سبحان الله عدد ما خلق:

كذلك كان النبي ﷺ يتعهد نساء المسلمين ويعلمهن من صيغ الذكر ما يزكي به أنفسهن، ويفتح به العقول على ما خلق الله في السموات والارض من أشياء، فقد روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امراة وبين يديها نوى - أو حصى - تسبِّح به، فقال أخبركِ بما هو أيسر عليكِ من هذا. أو أفضل؟ فقال: «سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد مابين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلّا بالله مثل ذلك»[١].

(٨) ظننتم بآل ابن أم عَبْد غَفْلة!!:

روى الشيخان عن أبي وائل قال: غدونا على عبد الله بن مسعود يوما بعد ما صلينا الغداة فسلَّمنا بالباب فأذن لنا، قال: فمكثنا بالباب هنيَّةً، قال: فخرجت الجارية فقالت: ألا تدخلون؟ فدخلنا، فإذا هو جالس يسبِّح، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أُذن لكم؟ فقلنا: لا، إلا أننا ظننا أن بعض أهل البيت نائم، قال: ظننتم بآل ابن أم عبد غفلة !! قال: ثم أقبل يسبِّح حتى ظن أن الشمس قد طلعت، فقال: ياجارية انظري هل طلعت؟ قال: فنظرت فإذا هي لم تطلع، فأقبل يسبح حتى إذا ظن أن

---

(١) قصد النبي ﷺ تنبيه المسلمين إلى كثرة مخلوقات الله في السماوات والأرض كثرة لا تقف عند حصر ولا عد، وأن ذلك مما تعجز العقول عن إدراكه أو عده، وإلى عظيم كرم الله وفضله بإعطاء من يقول هذه الصيغ من الذكر أجر من يكررها بعدد ما خلق الله وما يخلق والله أعلم.

الشمس قد طلعت، قال: يا جارية انظري هل طلعت؟ فنظرت فإذا هي قد طلعت، فقال: الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا، قال مهدي: وأحسبه قال: ولم يهلكنا بذنوبنا !!

فانظر إلى هذا الصحابي الجليل كيف كان يجلس بعد صلاة الفجر في بيته يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، وكيف كان أهله كذلك يذكرون الله في هذه الساعة المباركة، فإذا طلعت عليهم الشمس لم يكونوا غافلين!! ثم انظر إلى خشيته من الله تعالى وهو يحمد الله عز وجل أن لم يهلك الناس بذنوبهم رحمة منه وفضلا!!.

٩- قيام أبي هريرة وكثرة استغفاره:

كان أبو هريرة رضي الله عنه كثير العبادة كثير الذكر والاستغفار، فكان هو وامرأته وخادمه يتقاسمون الليل أثلاثاً، يصلي هذا ثم يوقظ هذا، وكان يقول: إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم اثني عشر ألف مرَّة وذلك على قدر ذنوبي!!.

١٠- فتشبَّهُوا:

بعض أحوال الصحابة في ذكر الله عز وجل، وهذا حال أبي هريرة رضي الله عنه في طول قيامه وقيام أهله وكثرة استغفاره.. وليس شيء من ذلك بمستغرب، فهم تلاميذ مدرسة النبوة، الذين كانت لهم بالنبي ﷺ أسوة حسنة، في ذكره واستغفاره، وطول قيامه، وكثرة خشيته لربه عز وجل.. فقد كان يقوم الليل حتى تتفطَّر قدماه، وقد وصف ابن عمر رضي الله عنهما كثرة استغفاره بقوله: «كنا نعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: «ربِّ اغفر لي وتب علي، إنك أنت التوَّاب الرحيم»[(١)].

والاستغفار عبادة جليلة، وذكر عظيم، لا يتوقف على ارتكاب ذنب، بل هو عمل مستحبٌّ من صفوة خلق الله من الأنبياء المعصومين، والرسل المطهرين، ومن خاصة المؤمنين وعامتهم، فمن كان عليه ذنب غفره الله، ومن لم يكن عليه شيء فهو ذكر يرفع به الله درجات المستغفرين، ويكتب لهم به الحسنات التي لا يعلم مقدار ثوابها إلا الله سبحانه وتعالى. وقد وصف الله عز وجل المحسنين من عباده وخاصة خلقه

---

(١) أبو داود والترمذي.

بقولـــــه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1] فما أروعها من صورة!!.

١١- ثمرات الاستغفار:

والاستغفار سبب في سعة الرزق ونزول الغيث، وفي حصول الخصب ونمو الزرع، وكثرة الثمرات، والإمداد بالأموال والذّرّية، وكثرة العيون والأنهار كما أخبر بذلك الله تعالى فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[2].

والاستغفار سبب في تفريج الهموم، واستجلاب الرزق ورغد العيش، قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل همٍّ فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[3] بل إن للاستغفار شأناً عظيماً، وسرّاً خطيراً قلّ أن يتنبه إليه إلا القليل من الناس، فهو بالإضافة لما ذكرناه، سبب في رفع العقوبة عن المذنبين، وإمساك العذاب عن الظالمين، كما أخبر بذلك العزيز الحكيم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[4]

وبذلك ندرك السر في كثرة استغفار أبي هريرة رضي الله عنه، وأنه دليل فقهه وعلمه أنه طاعة لله عز وجل، يتقرّب بها إليه، أما قوله: (وذلك على قدر ذنوبي) فهو من باب هضم النفس وتأديبها، ومن باب التواضع، وهو خُلُقُ النبيين والصدّيقين وعباد الله الصالحين.

هكذا كان حال الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه، وكذلك كانت أحوال الصحابة في ذكرهم لله، واستغفارهم إيّاه. ومن أجدر بهذه الأخلاق من أصحاب

---

(١) الذاريات ١٦-١٨

(٢) نوح ١٠-١٢

(٣) أبو داود.

(٤) الأنفال ٣٣

رسـول الله ﷺ، الموصـوفين في كتـاب الله بكثـرة ذكـرهم، وطـول قيـامهم وركـوعهم وسجودهم، وكثرة استغفارهم بالأسحار.

حقا إنهم كانوا على الهدي المستقيم، وخير خلق الله بعد النبيين، فرضي الله عنهم أجمعين، ورزقنا اتِّباعهم، وحشرنا معهم يوم الدين، فاللهم آمين.

* * * *

كراماتهم

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا..﴾

تعريف الكرامة:

الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة، يكرِّم الله به من شاء من أوليائه الصالحين، ولا يكون خرق العادة كرامةً إلا لعبدٍ صالحٍ قريبٍ من الله تعالى، متَّصفٍ بطهارة القلب في الظاهر والباطن، ملتزم بأحكام الشَّرع في أعماله وأقواله وأحواله، وقد أثبت القرآن الكريم اسم الولي في آيات كثيرة لكل مؤمنٍ تقيٍّ، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ...﴾ وقال عز وجل ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وليس للولي قدرة ذاتية على الكرامة، بل تحصل الكرامة من الله عز وجل، متى شاء، ولمن شاء، بما شاء، ليحصل للولي أنسٌ واطمئنانٌ، ويزداد بها طاعةً وإيماناً.

أهل الكرامات:

قد تحصل الكرامة برغبة من الولي، خروجاً من أزمة، أو نجاةً من ظلم، أو طلباً لحاجة، ولا تحصل الكرامة لمن يريدها للمفاخرة، ولا لمن يطلبها ليتحدَّى بها أحداً، لأن التحدّي لا يكون إلا للأنبياء بما آتاهم الله من المعجزات التي تثبت صحّة نبوّتهم أمام الناس، وأمام الجاحدين ليكون ذلك حجّةً عليهم، وسبيلا إلى إيمانهم، وحجة على الكافرين. أما الأولياء فإن الكرامة لا تزيدهم إلا تواضعا وتذللا لله وخشية منه، لأن الولي الحق يكون بعيداً عن تعظيم نفسه، ولا يقصد من الكرامة حظاً من حظوظ الدنيا، ويخشى أن تصبح كرامته استدراجاً، وأن تكون عاقبتها عليه وبالاً، ولأن

خرق العادة قد يحصل للكاهن والساحر والفاجر، ولا يكون ذلك كرامة، بل استدراجا، يزداد به صاحبه ضلالاً وغياً وبعداً عن الله عز وجل، وقد ثبتت الكرامة للأولياء في القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

ففي القرآن الكريم قصة مريم التي كانت: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وفيه قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾.

وفي السّنة الشريفة قصة الثلاثة الذين باتوا في غار فانحدرت صخرة فسدّت عليهم الغار، فتضرَّعوا إلى الله تعالى بالدُّعاء، فانزاحت الصخرة، وانطلقوا يمشون[1]. وخبر الذين تكلَّموا في المهد، ومنهم صاحب جريج، الذي سأله جريج من أبوك؟ فقال الغلام: فلان الراعي، فبرَّأ الله بذلك جريجاً من تهمة الزنى[2]، وقصة الرجل الذي سمع صوتا في السحابة يقول: اسق حديقة فلان، فجرى الماء إلى أرض صاحب الاسم فسقى أرضه، وجرى الرجل إلى الأرض التي سقاها السيل، فوجد رجلاً يسقي فسأله عن عمله الذي استحق به هذه الكرامة قال: إني أتصدَّق بثلث الثمر[3].

ولاشك أن الصحابة رضوان الله عليهم هم خير القرون على الإطلاق، وهم أولى بالكرامة ممن سبقهم أو جاء بعدهم، ولكنهم لم يطلبوا الكرامة ولم يدَّعوها ولم يشغلوا بالهم بها، بل أجرى الله تعالى الكرامة لمن شاء منهم بما شاء، وقد مرَّ بنا بعض تلك الكرامات في تراجم بعض الصحابة وها نحن نذكر على سبيل المثال بعض كراماتهم الأخرى.

كرامة لأبي بكر رضي الله عنه:

انطلق أبو بكر رضي الله عنه بثلاثة من أهل الصُّفة إلى بيته وأمر زوجته وابنه بعشائهم، وذهب فتعشى عند النبي ﷺ، فلما عاد وجد ضيوفه لم يتعشوا فغضب

---

(١) انظر الحديث في باب الإخلاص من كتاب رياض الصالحين، حديث رقم١١.

(٢) انظر الحديث في باب فضل ضعفة المسلمين من رياض الصالحين، حديث رقم ٢٥٩.

(٣) انظر الحديث في باب الكرم والجود من رياض الصالحين حديث رقم ٥٦٢.

غضباً شديداً على زوجته وولده عبد الرحمن، فأخبرته امرأته أنهم أبوا أن يتعشَّوا حتى يجيء، فدعاهم أبو بكر رضي الله عنه إلى العشاء، فأبوا إلا أن يأكل معهم، فأكل وأكلوا فكانوا كلما أخذوا لقمة ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا، وصار ما في القصعة أكثر مما كان فعجب أبو بكر من ذلك وجاء امرأته فأراها الطعام، فعجبت وقالت: لا وقرَّة عيني لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات!! فأكل منها أبو بكر ابتغاء البركة، ثم حملها إلى النبي ﷺ فأصبحت عنده، فأكل منها، ثم جاء رجال لموعد وكانوا اثني عشر رجلا فجاء مع كل واحد منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل فأكلوا منها أجمعون[1].

من كرامات عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

كان عمر رضي الله عنه رجلاً ملهماً، وظهر ذلك مرات كثيرة ولم يكن في الصحابة ملهم غيره، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر»[2].

ومن كرامات عمر رضي الله عنه قصة سارية بن زنيم يوم كان جيش المسلمين بقيادة سارية في بلاد الفرس، وكان عمر يخطب في المدينة، فقطع الخطبة وصاح: «يا سارية الجبلَ الجبلَ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم؟»، فأسمع الله تعالى سارية وجنوده صوت عمر، فجعلوا الجبل إلى ظهورهم، وكان قول عمر رضي الله عنه سبب نصرهم على عدوِّهم!!.

ومن كراماته ما أخرجه ابن عساكر عن خوات بن جبير قال: أصاب الناس قحط شديد على عهد عمر رضي الله عنه فخرج عمر بالناس فصلى بهم ركعتين، وخالف بين طرفي ردائه، فجعل اليمين على اليسار، واليسار على اليمين، ثم بسط يديه فقال:

---

(١) حكينا هذه القصة تلخيصا، وقد أخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما.. انظر الحديث ١٥٠٣ من رياض الصالحين، باب كرامات الأولياء وفضلهم.

(٢) رواه البخاري وانظر الحديث رقم ١٥٠٤ من رياض الصالحين.

«اللهم إنا نستغفرك ونستسقيك»، فما برح مكانه حتى مُطروا، ثم مضت أيام وإذا الأعراب قد قدموا، فأتوا عمر فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ بينما نحن بوادينا يوم كذا، في ساعة كذا، إذ ظلّنا غمام، فسمعنا فيها صوتا: أتاك الغوث أبا حفص، أتاك الغوث أبا حفص [(١)].

وفي رواية للبيهقي عن مالك الدارى قال: أصاب قحط في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق الله تعالى لأمّتك فإنّهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: «ائت عمر فأقرئه السلام، وأخبره أنهم يسقون، وقل له عليك الكَيْسَ الكَيْسَ» [(٢)] فأتاه الرجل فأخبره، فبكى عمر ثم قال: يا ربّ لا آلو إلا ما عجزت عنه، [(٣)] .وفي رواية عند ابن جرير: فاستأذن عليه فقال: أنا رسول رسول الله إليك، يقول لك ﷺ: لقد عهدتك كيسا، وما زلت على رجل، فما شأنك؟ فقال: متى رأيت هذا؟ قال: البارحة، فخرج فنادى في الناس: الصلاة جامعة، فصلى بهم ركعتين، ثم قام فقال: أيها الناس، أنشدكم الله هل تعلمون مني أمراً غيره خير منه؟ قالوا: اللهم لا، قال فإن بلال بن الحارث ذيته وذيته [(٤)]، فقالوا صدق بلال، فاستغث بالله وبالمسلمين، فبعث إليهم، وكان عمر عن ذلك محصورا، فقال عمر: الله أكبر؟، بلغ البلاء مدته فانكشف، ما أذن لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم البلاء، فكتب إلى أمراء الأمصار: أغيثوا أهل المدينة ومن حولها، فإنه قد بلغ جهدهم، وأخرج الناس إلى الاستسقاء، فخرج وخرج معه العباس ماشيا، فخطب فأوجز، ثم صلى، ثم جثا لركبتيه، وقال: اللهم إياك نعبد

---

(١) الكنز ٢٩٠/٤ وانظر حياة الصحابة ٦٢٤/٣.

(٢) الكيس: خلاف الحمق، والمراد: أمر عمر بالاجتهاد والتفكر للخروج من الأزمة.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن كثير في البداية ٩٢/٧، والمعنى: لا أقصر في شيء أستطيعه.

(٤) يقول كذا وكذا، وهى من ألفاظ الكنايات.

وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا، وارحمنا، وارض عنا، فلما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا الغدران[1].

ومن كرامات عمر رضي الله عنه قصة النيل، فقد كان أهل مصر يهدون النيل فتاة في موسم محدد من العام، وكانوا يعتقدون أن ماء النيل لا يجري إلا بها، فلما كانت ولاية عمرو بن العاص رضي الله عنه انحبس النيل، وقال أهل مصر لعمرو: إن النيل لا يجري حتى تلقى فيه جارية بكر، ويجعل عليها من الحلل والثياب أفضل ما يكون، فأبى عمرو ذلك، وقال: إن هذا لا يكون، ومضت ثلاثة أشهر والنيل لا يجري، فراجعوه في ذلك، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب في ذلك، وما رآه، فاستحسن عمر رأي عمرو وأثنى عليه، ثم كتب بطاقة إلى عمرو، وأمره أن يلقيها في النيل، فقرأ عمرو البطاقة فإذا فيها: «من عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك..» فلما ألقى عمرو البطاقة في النيل فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا[2].

كرامة لأبي عبيدة وأصحابه:

ومن كرامات الصحابة رضوان الله عليهم ما ذكر أن أبا عبيدة رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ في ثلاثمائة من الصحابة، حتى انتهوا إلى البحر وقد نفد ما معهم من طعام، فألقى البحر إليهم حوتا مثل الكثيب العظيم، فأكلوا منه ثماني عشرة ليلة فلم يفسد ولم يتغير له طعم ولا رائحة، ثم تزودوا منه لطريقهم من البحرين إلى المدينة، وهم ثلاثمائة، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ قال: إنما هو رزق رزقكموه الله، هل معكم منه شيء؟ قالوا نعم[3].

---

[1] رواه ابن جرير في التاريخ ١٩٢/٣.

[2] انظر أخبار عمر للشيخ علي الطنطاوي: ٣٥٦ وقد رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء، والمقريزي في خططه، وابن بردي في النجوم الزاهرة، قال الطنطاوي: رويناه لشهرته.

[3] رواه البخاري والإمام مالك.

كرامة لفاطمة بنت رسول الله ﷺ:

روى أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه، أنه مرت على النبي ﷺ أيام لم يطعم طعاما، فأتى فاطمة رضي الله عنها فقال: «هل عندك شيء آكله فإني جائع؟» قالت: لا، فلما خرج بعثت إليها جارة برغيفين وقطعة لحم، فأخذته فوضعته في جفنة لها، وبعثت حسناً وحسيناً رضي الله عنهما إلى النبي ﷺ فأتى، فقالت: قد أتى الله بشيء فخبّأته لك، فأتته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزا ولحما، فبهتت، وعرفت أنها بركة، فلما رآه النبي ﷺ قال: «من أين لك هذا يا بنية؟» قالت: يا أبت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: «الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل».. ثم أكل وأكل علي وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبي ﷺ حتى شبعوا، وبقيت الجفنة كما هي [١]، فأوسعت بقيتها على جميع الجيران.

كرامة لعائشة رضي الله عنها:

أخرج الشيخان والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي، فكِلْتُهُ، ففني) [٢] وهذا يعني أنها كانت تأكل منه فلا ينقص منه شيء ولو علمت انها بركة من الله وضعها فيه ولم تكله لظلت تأكل منه إلى ما شاء الله.

كرامة لأم أيمن:

أخرج ابن سعد عن عثمان بن القاسم قال: لما هاجرت أم أيمن رضي الله عنها ـ وهي حاضنة رسول الله ﷺ ومربيته ـ أمست بالمنصرف دون الرَّوحاء، فعطشت وليس معها ماء، وهي صائمة، فجهدها العطش، فدلِّي عليها من السماء دلو من ماء، بِرِشاء [٣] أبيض، فأخذته فشربت منه حتى رويت، فكانت تقول: ما أصابني بعد

---

(١) رواه ابن كثير في تفسيره ١ح/٣٦٠

(٢) متفق عليه.. وانظر الحديث في باب فضل الزهد من رياض الصالحين، حديث رقم ٤٧٤.

(٣) الحبل

ذلك عطش، ولقد تعرضت للعطش في الهواجر، فما عطشت بعد تلك الشربة، وإن كنت لأصوم في اليوم الحار فما أعطش[1].

كرامات لأم شريك:

أخرج البيهقي وابن سعد عن يحي بن سعيد وعن أبى هريرة ~ أن أم شريك الدوسية هاجرت وهي صائمة، فنفد منها الماء وكان في رفقتها يهودي معه امرأته، فقال اليهودي لامرأته: لا تسقيها.. فباتت عطشى، حتى إذا كان أخر الليل إذا على صدر أم شريك دلو موضوع، وصفن[2] فيه طعام، فشربت وأكلت، ثم أيقظتهم للدلجة[3]، فلما رأى اليهودي ذلك ظن أن زوجته قد سقتها، فقالت أم شريك: لا والله ما سقتني، فلما جاءت إلى رسول الله ﷺ قصت عليه القصة.. فزوجها زيدا، وأمر لهما بثلاثين صاعاً، وقال: كلوا ولا تكيلوا، وكان معها عُكَّة سمن هدية للنبي ﷺ فأرسلتها مع جاريتها، فأفرغت، وأمرها رسول الله ﷺ أن تعلِّقها ولا توكئها[4] فدخلت أم شريك فوجدتها ملأى، فقالت للجارية: ألم آمرك أن تذهبي بها إلى رسول الله ﷺ، قالت؛ قد فعلت، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يوكئوها، فلم تزل العكة ملأى بالسمن حتى أوكتها أم شريك، ثم كالوا الشعير فوجدوه ثلاثين صاعا لم ينقص منه شئ[5].

كرامة لزنيرة:

كانت امرأة رومية، وكانت أمة فأسلمت، فعدا عليها المشركون فعذبوها، فاشتراها أبو بكر رضي الله عنه وأعتقها، فذهب بصرها، فقال المشركون: ما أذهب بصرها إلا

---

(١) رواه ابن حجر في الإصابة ٤/٤٣٢، وأخرج ابن السكن نحوه.

(٢) وعاء يجعل الراعي فيه زاده.

(٣) سير المسافرين من اخر الليل.

(٤) أي لاتربطها.

(٥) رواه البيهقي، وابن سعد ٨/١٥٧ ورواه ابن كثير في البداية ٦/١٠٤

اللات والعزى، فقالت كذبوا والله، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فرد الله بصرها!![1].

كرامة لصحابيَّين:

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عنده في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما مصباح حتى أتى أهله، والصحابيان هما: أسيد بن حضير وعبَّاد بن بشر رضي الله عنهما[2] كما ورد في بعض روايات البخاري.

كرامتان لخبيب:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن خبيباً لما أُسِر في يوم الرجيع وأراد بنو الحارث بن عامر قتله بأبيهم الذي قتله يوم بدر، فاستعار خبيب من بعض بنات الحارث موسى، فدرج طفل لها إلى خبيب فأجلسه على فخذه، فلما رأته أمه خافت أن يذبحه، فقال لها: ما كنت لأفعل ذلك.. وقد روت بعد إسلامها قالت: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، فو الله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيبا[3]!!.

وعند الإمام أحمد والطبراني: أن رجلا من الصحابة ذهب على فرس ليأتي بجثته، فلما أنزله عن خشبته ابتعد عنه قليلا، ثم التفت فلم يجده، كأنما ابتلعته الأرض.

كرامة للطفيل بن عمرو الدوسي:

كان الطفيل بن عمرو سيداً شريفاً، وشاعراً لبيباً، جاء مكة فسمع النبي ﷺ يصلي في المسجد فأعجبه فأسلم ثم قال: يا نبيَّ الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا عليهم فيما

---

(١) الإصابة ٣١٢/٤، وسيرة بن هشام ح٣١٨/١ط مؤسسة علوم القرآن.

(٢) رواه البخاري، وانظر ١٥٠٨ من رياض الصالحين.

(٣) رواه البخاري وانظر في رقم ١٥٠٩ من رياض الصالحين.

أدعوهم، فقال: «اللهم اجعل له آية»، قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم، فتحول فوقع في رأس سوطي، قال: فجعل الحاضر يتراؤون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية، حتى جئتهم فأصبحت فيهم.. فلم أزل أدعو قومي إلى الإسلام فأبطؤوا عني فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا نبي الله، إنه غلبني دوس، فادع عليهم، فقال: «اللهم اهد دوساً».. فلم أزل أدعوهم حتى هاجر رسول الله ﷺ، وانقضت بدر وأحد والخندق.. ثم قدمت مع من أسلم من قومي بخيبر بسبعين أو بثمانين بيتا من دوس فدخلوا المدينة، وكان جندب بن عمرو يقدمهم رجلا، رجلا، وكان فيهم أبو هريرة رضي الله عنه [1].

كرامة لعامر في فهيرة:

عامر بن فهيرة هو مولى أبي بكر الذي كان له الشرف العظيم بالهجرة مع النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه فكان يخدمهما في الطريق.

وقد أخرج البخاري عن عروة أن عامر بن الطفيل حين غدر بأصحاب بئر معونة فقتلوا جميعا إلا ثلاثة، سأل عن قتيل منهم فقيل له: هذا عامر بن فهيرة، فقال: لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء، حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض.

وفي مغازي موسى بن عقبة عن عروة أنه قال: لم يوجد جسد عامر بن فهيرة، يرون أن الملائكة وارته.

كرامات لسعد بن معاذ:

هو سيد الأوس في المدينة، وصاحب المواقف الخالدة في الإسلام وحِبُّ النبي ﷺ، ونصرة الإسلام، توفي على إثر جرح أصابه في غزوة الأحزاب.

---

(١) سيرة ابن هشام ج١/٣٨٥، وأخرجه أبو نعيم في الدلائل، وابن كثير في البداية ٣/١٠٠.

١ - أخرج ابن سعد: أن النبي ﷺ حين دخل على سعد وهو مسجى في فراشه أوما لمن كان معه أن يتوقف عن الدخول، وكان يتخطى وما في الغرفة أحد، فسئل عن ذلك فقال: ما قدرت على مجلسي حتى قبض لي ملك أحد جناحيه فجلست، ورسول الله ﷺ يقول: «هنيئا لك أبا عمرو، هنيئا لك أبا عمرو، هنيئا لك أبا عمرو»[(١)].

٢ - وفي رواية عن عمر رضي الله عنهما قال: اهتز العرش لحب لقاء الله سعدا، وفي رواية عن جابر أن النبي ﷺ قال: لقد اهتز عرش الله لموت سعد بن معاذ.

٣ - وأخرج ابن سعد عن سعد بن إبراهيم قال: لما خرج سرير سعد قال ناس من المنافقين: ما أخف جنازة سعد، فقال رسول الله ﷺ: «لقد نزل سبعون ألف ملك شهدوا جنازة سعد - أو سرير سعد - ما وطئوا الأرض قبل اليوم»[(٢)].

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لقد كانت الملائكة تحمل سريره».

٤ - وأخرج بن سعد، وأبو نعيم أن رجلا أخذ قبضة من تراب قبر سعد بن معاذ فإذا هى مسك، وفي رواية عن أبي سعيد الخدري عن أبيه أنه قال: كنت ممن حفر لسعد ~ قبره بالبَقِيع فكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا.. حتى انتهينا إلى اللَّحْد[(٣)].

كرامتان عظيمتان:

كان العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه قد هاجر إلى النبي ﷺ وأسلم، وهو من سادات الصحابة العلماء العابدين، بعثه النبي ﷺ بكتابه إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين فأسلم المنذر بدعوته، ثم مات في أول خلافة أبي بكر فارتدَّ أهل البحرين

---

(١) الطبقات ٣/ ٤٢٨.

(٢) رواه ابن سعد ٣/٤٣٠، ٤٢٩.

(٣) الطبقات ٣/٤٣١، وانظر حياة الصحابة ٣/٦٠٢.

فيمن ارتد عن الإسلام، وقد بعثه الصدِّيق رضي الله عنه لقتال أهل هَجَر والقَطِيف والبحرين، وسار إلى البحرين فسلك بهم الدَّهناء، وقد روى الطبري خبر العلاء بطوله عن منجاب بن راشد، ونحن نأخذ من روايته ما قلّ ودلّ تجنبا للإطالة:

١- ظهور الماء في الدهناء:

بعث أبو بكر رضي الله عنه العلاء بن الحضرمي على قتال أهل الردة بالبحرين، فتلاحق به من لم يرتدّ من المسلمين، وسلك بنا الدهناء حتى إذا كنا في بحبوحتها[١] أراد الله عز وجل أن يرينا آية، فنزل العلاء، وأمر الناس بالنزول، فنفرت الإبل في جوف الليل، فما بقي بعير ولا زاد ولا مزاد ولا بناء (يعني الخيام)، فما علمت جمعا هجم عليهم من الغمّ ما هجم علينا، وأوصى بعضنا إلى بعض - أي وصية الموت - ونادى منادي العلاء فاجتمعنا إليه، فقال: ما هذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم؟ فقال الناس: وكيف نلام ونحن لن تطلع علينا شمس الغد حتى نصير حديثا؟ - أي نهلك - فقال: أيها الناس لا تَرَاعوا، ألستم مسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟ قالوا: بلى، قال: فابشروا، فوالله لا يخذل الله تبارك وتعالى من كان في مثل حالكم، ونادى المنادي بصلاة الصبح حين طلع الفجر، فصلّى بنا، ومنّا المتيمم ومنا من لم يزل على طهوره، فلما قضى صلاته جثا لركبتيه وجثا الناس معه، فنصب[٢] في الدعاء والناس يدعون معه، فلمع لهم سراب، فأقبل على الدعاء، ثم لمع لهم سراب آخر، فأقبل على الدعاء ثم لمع أخر فقال الرائد: ماء، فقام وقام الناس، فمشينا حتى نزلنا على الماء، فشربنا واغتسلنا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل وجه وأناخت، وتروّينا ثم تروَّحنا، وكان أبو هريرة رفيقي، فلما غبنا عن ذلك المكان قال لي: كيف علمك بموضع هذا الماء؟ فقلت: أنا أهدي الناس بهذه البلاد.. فقال: كُرَّ بي حتى تقيمني عليه، فكررت به فأنخنا على ذلك المكان

---

(١) وسطها.

(٢) اجتهد

بعينه، فإذا هو لا غدير به ولا أثر للماء، فقلت له: والله لولا أني لا أرى الغدير لأخبرتك أن هذا هو المكان، وما رأيت بهذا المكان ماء قبل ذلك، فنظر أبو هريرة رضي الله عنه فإذا إداوة مملوءة، فقال أبوهريرة: هذا والله المكان، ولهذا رجعت بك، وملأت إداوتي هذه ثم وضعتها على شفير الوادي، فقلت: إن كان إلا مَنّاً من المَنّ، وكانت آية عرفتها، وإن كان غياثا عرفته، فإذا هي من من المنّ، فحمدت الله.

٢- مشيهم على البحر:

ثم سار العلاء بالمسلمين إلى هَجَر فنزلها وتجمع المشركون، وكانوا يتراوحون القتال شهرا، ثم بات المشركون في ليلة سكارى فسمع المسلمون ضوضاء شديدة، فأرسل العلاء إليهم رجلا فأخبرهم أن القوم سكارى، فاقتحم المسلمون عسكرهم ووضعوا فيهم السيوف، واستولى المسلمون على ما في المعسكر.. وفرَّت فلول المرتدين إلى دَارِين، فركبوا إليها السفن، فجمع الله أهل الكفر والرِّدة بها.. وندب العلاء الناس إلى دارين وخطبهم فقال: إن الله جل وعز قد جمع أحزاب الشيطان وشُذَّاذ الحرب في هذا اليوم، وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوكم ثم استعرضوا البحر إليهم، فإن الله جل وعز قد جمعهم به، فقالوا: نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هؤلاء ما بقينا، فارتحل وارتحلوا، حتى أتى ساحل البحر، فاقتحموه على الخيل والحمولة والإبل والبغال، الراكب والراجل، ودعا ودعوا، وكان دعاؤهم - وهم يمشون على الماء - «يا أرحم الراحمين، يا كريم يا حليم، يا أحد يا صمد يا حي، يا محي الموتى، يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت يا ربنا». فاجتازوا ذلك الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة ميثاء[١] فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل، وبين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر، ووصل المسلمون إليها فما تركوا من المشركين بها مخبرا، وسبوا الذراري واستاقوا الأموال، فبلغ من ذلك نفل الفارس من المسلمين ستة آلاف، والراجل

---

(١) الأرض السهلة.

ألفين، فلما فرغوا رجعوا عودهم على بدئهم حتى عبروا، وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر:

أَلَمْ تَرَ أنّ الله ذَلَّـل بَحْـرَه   وأنزَل بالكُفّارِ إحْدَى الجلائـل

دعونا الذي شقّ البحار فجاءنا   بأعجب من شق البحار الأوائل

ورجع العلاء رضي الله عنه بالناس إلا من أحب المقام، وكان بهجر راهب فأسلم، فقيل له: ما دعاك إلى الإسلام؟ قال: ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخني الله بعدها إن أنا لم أسلم، فيض في الرمال، - يعني الماء الذي ظهر لهم في الدهناء - وتمهيد أثباج البحور، - يعني مشيهم على البحر إلى جزيرة دارين - ودعاء سمعته في عسكركم في الهواء من السَّحَر، قالوا: وما هو؟ قال: (اللهم أنت الرحمن الرحيم، لا إله غيرك، البديع ليس قبلك شيء، الدائم غير الغافل، الحي الذي لا يموت، خالق ما يرى وما لا يرى، وكل يوم أنت في شأن، وعلمت اللهم كل شيء بغير تعلم)، قال: فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله عز وجل.. ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمعون هذا من ذلك الهَجَرِي بعد.

وكتب العلاء إلى أبي بكر بما أجرى الله لهم من الآيات، وما أفاء عليهم من الغنائم، وما أنعم عليهم من نصره وتأييده، فحمد الله تعالى وأثنى عليه.

من كرامات سعد بن أبي وقاص أنه خاض بجيشه ماء دجلة في وقت طوفان النهر فعبروا إلى الفرس فلم يغرق منهم أحد، ولم يغرق لهم دابة، ولم يفقدوا شيئا من متاعهم، وأن الفرس قد ذهلوا من ذلك وقالوا عنهم: دِيوانا، دِيوَانا، أي مجانين، وهذه كرامة لسعد ولكل من كان في ذلك الجيش من الصحابة والتابعين!!.

ومن كرامات سعد رضي الله عنه أنه لما كان أميرا على الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، شكا بعض أهل الكوفة أنه لا يحسن الصلاة، فأرسل معهم رجالا يسأل عنه أهل الكوفة، فشهدوا به خيرا، إلا رجلا فإنه زعم أن سعداً لا يسير

بالسَّويَّة، ولا يعدل في القضية، فدعا سعد عليه بثلاث فقال: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا فأطِل عمره، وأطل فَقْره، وعَرِّضه للفتن. قال جابر بن سمرة: فأنا رأيته بعد، قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن[1]، وكان بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابته دعوة سعد..

كرامة لأنس بن مالك:

هو خادم النبي ﷺ، وأمه أم سليم بنت ملحان، وقد دعا له النبي ﷺ ولأمه بعد أن صلى فيهم حين زارهم بقُباء[2] أخرج ابن سعد عن ثمامة بن عبد الله قال: جاء أنسا ~ أكار[3] بستانه في الصيف فشكا العطش، فدعا بماء فتوضأ وصلى ثم قال: هل ترى شيئا؟ قال: ما أرى شيئا. قال: فدخل فصلى، ثم قال: هل ترى شيئا؟ فقال: ما أرى شيئا. قال فدخل فصلى ثم قال: انظر قال: أرى مثل جناح الطير من السحاب، قال: فجعل يصلي ويدعو حتى دخل عليه القيم فقال: قد استوت السماء ومطرت، قال: فاركب الفرس فانظر أين بلغ المطر؟ فركبه فنظر، قال: فإذا المطر لم يجاوز قصور المسيرين، ولا قصور الغصبان، وفي رواية: فإذا هي لم تعد أرضه[4] قال أنس: وإن ثمرتي لتحمل في السنة مرتين.. وكان النبي ﷺ قد دعا له فقال: «اللهم أكثر ماله وولده، وأطل عمره، واغفر ذنبه».

كرامة ليزيد بن الأسود الجرشي:

أخرج ابن سعد عن سليم بن عامر أن السماء قحطت، فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجرشي؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطى فأمره معاوية، فصعد المنبر فقعد عند رجليه،

---

(١) متفق عليه وانظر الحديث ١٥٠٥ من رياض الصالحين.

(٢) انظر الخبر مفصلا في ترجمة أم سليم بنت ملحان.

(٣) الذي يحرث الأرض ويزرعها.

(٤) الطبقات الكبرى ٧/٢١ وانظر حياة الصحابة ٣/٦٢٦

فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يزيد يديه، ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في المغرب، وهبت لها ريح، فسقينا حتى كاد الناس لايصلون إلى منازلهم!!.[1]

كرامة للعباس رضي الله عنه:

وروى البخاري عن أنس: أن عمر كانوا إذا قحطوا استسقى بالعباس، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون.

وروي أن عمر رضي الله عنه أخذ بيد العباس فقال: اللهم هذا عم نبيك، نتوجه إليك به فإنك قلت وقولك الحق: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا...﴾، فحفظتهما لصلاح أبيهما. فاحفظ اللهم نبيك في عمه، فقال العباس وعيناه تنضحان: اللهم لاينزل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة، وقد توجه بي القوم إليك، لمكاني من نبيك ﷺ، وهذه أيدينا مبسوطة إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، يا أرحم الراحمين، اللهم أنت الراعي، لا تهمل الضالة، ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير، وفرق[2] الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم أغثهم بغياثك.. فرأى الناس طرة في مغرب الشمس فقالوا: ما هذا؟ ثم سمعوا الرعد، ثم انتشر، ثم اضطرب، وأرخت السماء شآبيب[3] مثل الجبال، بديمة[4] مطبقة، حتى ساوت الحفر والآكام.

---

(١) الطبقات ٧/٤٤٤.

(٢) اظهروا التضرع والتذلل وشدة الحاجة.

(٣) المطر الشديد.

(٤) السحابة.

فطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه، ويقولون: هنيئا لك ساقي الحرمين.. قال: فكان المطر يعاودهم كل خمس عشرة ليلة.

فقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

سأل الإمامُ وقد تتابعَ جَدْبُنا ... فسقى الغمام بغُرّة العبّاس

أحيا الإلهُ به البلادَ فأصبحَتْ ... مُخْضَرَّةَ الأجنابِ بَعدِ الياسِ

ولما نزل المطر صار عمر يخرج الأعراب ويقول: اخرجوا، الحقوا ببلادكم.

وروى ابن سعد بسنده عن جابر قال: صرخ بنا إلى قتلانا يوم أحد حين أجرى معاوية العين، فأخرجناهم بعد أربعين سنة ليِّنَةً أجسادهم تنثني أطرافهم..

قال جابر: فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم، وما تغير من حاله قليل ولا كثير.. فوجدنا النمرة كما هي، والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك ست وأربعون سنة[(١)].

ثم جرى بعد ذلك السيل فحفروا عن قبره بعد ست وأربعين سنة، فوجدوا يده على جرح في وجهه، فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم، فردت يده إلى مكانها.

كرامة لحمزة بن عبد المطلب:

عن جابر: قال: لما أجرى معاوية رضي الله عنه العين عند قتلى أُحُد، بعد أربعين سنة.. فأتيناهم فأخرجناهم، فأصابت المسحاة قدم حمزة، فانبعث دما[(٢)].

وقد حقق الشيخ السمهودي في «وفاء الوفا» هذه الروايات فوجدها صحيحة، ورأى أن القصة وقعت ثلاث مرات، بعد ستة أشهر، وبعد أربعين سنة عند إجراء العين، وبعد ست وأربعين حين دخله السيل، وذلك لتعدد الروايات في كل من الثلاث وقال: وفي ذلك ظهور المعجزة (الكرامة) وهو السر في تكرر ذلك[(٣)]!!.

---

(١) أخرجه ابن سعد ٥٦٢/٣.

(٢) أخرجه البيهقي عن جابر، وانظر حياة الصحابة، باب التأييد بالتأييدات الغيبية، فصل (آثار الحياة في شهدائهم).

(٣) وفاء الوفا ١١٦/٢.

كرامة لسفينة:

أخرج الحاكم عن محمد بن المنكدر أن سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت البحر، فانكسرت سفينتي، فركبت لوحا من ألواحها، فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد، فأقبل إلي يريدني، فقلت: يا أبا الحارث، أنا مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه وأقبل إلي، ودفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة، ووضعني على الطريق، وهمهم، فظننت أنه يودعني، فكان ذلك آخر العهد به[1].

كرامة لتميم الداري:

أخرج البيهقي وأبو نعيم والذهبي عن معاوية بن حرمل قال: فبينا نحن ذات ليلة، إذ خرجت نار من الحرة، فجاء عمر رضي الله عنه إلى تميم الداري، فقال: قم إلى هذه النار، فقال: يا أمير المؤمنين، ومن أنا؟ وما أنا؟ فلم يزل به حتى قام معه وتبعتهما، فانطلقا إلى النار فجعل تميم يحوشها بيده حتى دخلت الشعب ودخل تميم خلفها.. فجعل عمر يقول: ليس من رأى كمن لم ير، قالها ثلاثا.

كرامة لحنظلة رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد: «إن حنظلة لتغسله الملائكة، فاسألوا أهله ما شأنه؟» فسئلت زوجته فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهائعة (الصريخ، داعي الجهاد).. فقال رسول الله ﷺ: «لذلك غسلته الملائكة».

هذا غيض من فيض مما روي في كرامات الصحابة، ومن أراد المزيد فليرجع إلى الجزء الثالث من كتاب (حياة الصحابة) باب: كيف كان النبي ﷺ وأصحابه مؤيدين بالتأييدات الغيبية.

* * * *

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير، وأبو نعيم في الحلية ح٣٦٩/١، وأخرجه ابن منده كما في البداية ٣١٦/٥، وأخرجه الطبراني ١٧٩/٢ في المجمع ٣٦٦/٩.

مزاح الصحابة

حكم المزاح:

كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، وكذلك فعل الصحابة في مزاحهم وملاطفتهم بعضهم لبعض، ولنبدأ بإلقاء الضوء على نماذج من مزاح النبي ﷺ.

من مزاح النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ مثلا أعلى، وقدوة حسنة في ضحكه ومزاحه، فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قطُّ ضاحكاً حتى تُرى منه لهواته، إنما كان يبتسم»[١]. وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، وكان يحث الصحابة على الترويح عن أنفسهم فيقول: «روِّحوا القلوب ساعة وساعة..»[٢] وقال لحنظلة: «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة..»[٣] وربما مزح مع أصحابه ليعلمهم جواز ذلك.

١. **حاملوك على ولد الناقة:**

فمن مزاحه مع أصحابه أن رجلا جاء يطلب أن يحمله، فقال إنا حاملوك على ولد الناقة، فقال يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال النبي ﷺ: وهل تلد الإبلَ إلا النوق.[٤]

٢. **من يشتري العبد؟**

ومن مزاحه أنه كان رجل من أهل البادية دميم اسمه زاهر، وكان حبيبا إلى النبي ﷺ، فأتاه يوماً من خلفه وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، فقال الرجل:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الديلمي عن أنس.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه ابو داود والترمذي.

أرسلني، من هذا؟ فالتفت فوجد النبي ﷺ.. وأراد النبي ﷺ أن يبعث في زاهر عزة الإيمان، ويستلَّ من نفسه الشعور بالدمامة فجعل النبي ﷺ يقول: «من يشتري العبد؟ فقال: يا رسول الله، إذن والله تجدني كاسداً!! فقال ﷺ: لكن عند الله لست بكاسد، أو قال: لكن عند الله أنت غالٍ[1] وذلك ليعلِّمه ويعلِّم الأمة أن الناس إنما يتفاضلون بالتقوى، وأن الله لا ينظر إلى أجسامهم وصورهم، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم».

٣. أنقذتك من الرجل:

ومن مزاحه: «أن أبا بكر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ، فسمع عائشة قد رفعت صوتها على رسول الله ﷺ، فهمَّ أبو بكر أن يلطمها، فجعل النبي ﷺ يحجزه، فخرج أبو بكر مغضباً، فقال النبي ﷺ لعائشة: كيف رأيتني، أنقذتك من الرجل؟!! ثم دخل أبو بكر عليهما بعد أيام فوجدهما قد اصطلحا، فقال: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما، فقال ﷺ: قد فعلنا، قد فعلنا»[2].

٤. هذه بتلك:

ومن دعابته وملاطفته لأهله أنه خرج في سفر ومعه أصحابه ومعه عائشة، وكانت شابة، فقال لأصحابه: تقدموا، وقال لعائشة: تعالي حتى أسبقك، فسابقته، فسبقته، فسكت، ثم خرج أخرى ومعه أصحابه في سفر، وكانت عائشة قد بدنت[3]، فقال للناس تقدموا، ثم قال لعائشة تعالي أسابقك، فسابقته، فسبقها، فجعل يضحك ويقول: هذه بتلك.

٥. لا يدخل الجنة عجوز:

ومن مزاحه أيضا أن عجوزاً أتته فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة،

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان.

(٢) رواه أبو داود، ومعنى قد فعلنا: أي تصالحنا وتراضينا وأنت معنا في صلحنا.

(٣) صارت بدينة أي زاد وزنها رضي الله عنها.

فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز»، فولّت تبكي، فقال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز»، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

هكذا كان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، ويمزح لمداواة النفوس وتطييبها، ولتعليم أصحابه وتربيتهم وترسيخ مبادىء الإسلام وسماحته في نفوسهم.

١. الصحابة يتضاربون بالبطيخ:

وقد تعلم الصحابة من النبي ﷺ حسن الدعابة وطيب المزاح، فكانوا يمزحون ويضحكون ويلعبون، فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن بكر بن عبد الله قال: كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون[1] بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق[2] كانوا هم الرجال.

٢. نعيمان يبيع صاحبه!!:

من الصحابة الذين كانت له شهرة في المزاح، رجل يدعى نعيمان، أخرج أحمد عن أم سلمة أن أبا بكر رضي الله عنه خرج ومعه نعيمان، وسويبط بن حرملة، رضي الله عنهما وهما بَدرِيّان، وكان سويبط أميراً على الزاد، فقال نعيمان: أطعمني، قال: حتى يجيء أبو بكر، فذهب نعيمان إلى قوم يبيعون إبلهم، فقال لهم: ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً؟ قالوا: نبتاع، فقال: إنه ذو لسان، ولعله يقول: أنا حرّ، فلا تصدّقوه، فابتاعوه بعشر قلائص[3]، فأقبل يسوقها، وهم معه، فقال: دونكم هذا فخذوه، فلما أرادوا أن يأخذوه قال سويبط: أنا رجل حرّ، قالوا: قد أخبرنا خبرك، فربطوه بحبل وذهبوا به، فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأخبر، فذهب هو وأصحابه إليهم فردوا القلائص، وأخذوه، ثم أخبروا النبي ﷺ فضحك هو وأصحابه منها حولا!!، أي ظل الرسول ﷺ لمدة عام كلما ذكر الحادثة يضحك هو والصحابة.

---

(١) يترامون.

(٢) الجد من الأمور.

(٣) جمع قلوص وهي الناقة.

٣. نعيمان ينحر ناقة أعرابي، والنبي يغرم الثمن:

وأخرج ابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة، عن ربيعة بن عثمان قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فدخل المسجد، وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض الصحابة لنعيمان بن عمرو الأنصاري: «لو نحرتها فأكلنا فإنا قد قرمنا[1] إلى اللحم، ويغرم رسول الله ﷺ ثمنها، فنحرها نعيمان، فلما خرج الأعرابي ورأى ناقته صاح: واعقراه يا محمد، فخرج النبي ﷺ فقال: من فعل هذا؟ قالوا: النعيمان، فأتبعه يسأل عنه فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، قد اختفى في خندق، وجعل عليه الجريد والسعف، فرآه رجل، فأشار إليه وصاح: ما رأيته يا رسول الله، فانتبه رسول الله ﷺ، فأخرجه وقد تغير وجهه بالسعف الذي سقط عليه فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: الذين دلوك علي يا رسول الله هم الذين أمروني، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عن وجهه ويضحك، ثم غرمها فدفع ثمنها رسول الله ﷺ!!. فانظر كيف تلطف النبي ﷺ مع نعيمان، وكيف قابل عمله على ما فيه من تجاوز بالعفو والرفق، وكيف مسح عن وجهه وهو يضحك دلالة العفو والرضا!!.

٤. هل لك في النعيمان؟

ومن مزحات نعيمان ما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة عن عبد الله بن مصعب قال: كان مخرمة بن نوفل بن وهيب الزهري شيخا كبيرا في المدينة أعمى، قد بلغ مائة وخمس عشرة سنة، فقام يوما في المسجد يريد أن يبول، فصاح به الناس، فأتاه النعيمان فنحى به ناحية من المسجد وقال له: اجلس هنا فأجلسه يبول وتركه، فبال، فلما رآه الناس صاحوا به، فلما فرغ قال: من جاء بي، ويحكم في هذا الموضع؟ قالوا له: النعيمان بن عمرو. قال: فعل الله به وفعل!! أما إن لله علي إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت، فمضى على

---

(١) اشتهينا.

ذلك حتى نسي ذلك، ثم أتاه النعيمان يوما، وعثمان رضي الله عنه قائم يصلي في المسجد، فقال له: هل لك في النعيمان؟ قال: نعم، أين هو، دلني عليه، فأتى به فأوقفه على عثمان وقال له: دونك هذا هو، فجمع مخرمة يديه بعصاه فضرب عثمان فشجه، فقيل له: إنما ضربت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فاجتمعت بنو زهرة في ذلك يريدون معاقبته، فقال عثمان رضي الله عنه: دعوا نعيمان، فقد شهد بدرا.

فانظر إلى هذا الصحابي الذي لم تمنعه بدريته من المزاح، وانظر كيف عفا عثمان عنه وقدر له رضي الله عنه شهوده لبدر، وراعى غلبة طبيعة المزاح عليه فلم يعاقبه على فعلته وأمر بالعفو عنه !!. وقد تحمله قبل عثمان سيدنا رسول الله ﷺ أعفا عنه وقبل مزاحه.

٥. من مزاح عبد الله بن حذافة:

وممن اشتهر بالمزاح من الصحابة، عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه، وهو من أصحاب بدر، وكانت فيه دعابة، فمن مزاحه أن رسول الله ﷺ جعله أميرا على سرية، فأمر أصحابه أن يجمعوا حطبا، ويوقدوا نارا، فلما أوقدوها أمرهم بالتقحُّم فيها، وقال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتي، وقال: من أطاع أميري فقد أطاعني؟ وإنما دعاهم إلى ذلك مزاحاً، ولكنهم لم ينتبهوا فقالوا: ما آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار!!.

فلما حكوا ذلك للنبي ﷺ صوَّب فعلهم وقال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، فانظر كيف جعل الله تعالى في مزاح عبد الله رضي الله عنه الخير والبركة، فجعل ذلك مناسبة بين يدي قول النبي ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

٦. حل حزام ناقة النبي:

ومن دعابات عبد الله بن حذافة رضي الله عنه ما أخرجه الزبير بن بكار عن الليث ابن سعد قال: بلغني أنه حلّ حزام راحلة رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى كاد

رسول الله ﷺ يقع !!.. قال ابن وهب فقلت لليث: ليضحكه؟ قال: نعم، كانت فيه دعابة!!.

فانظر كيف تجرأ عبد الله رضي عنه على المزاح مع النبي ﷺ في سبيل أن يضحكه، وانظر كيف لم ينهه رسول الله ﷺ عن هذا اللون من المزاح، لأنه علم نبل غايته وشرف مقصده!!.

هذه نماذج من مزاح صحابة رسول الله ﷺ، وكان الرسول ﷺ يمزح في أدب النبوة، ويضحك في ابتسامة، ولكنه لا يفعل ولا يقول إلا حقاً، وهذه النماذج من مزاح الصحابة توضح لنا كيف كانوا يعيشون حياة إنسانية عادية، يأكلون ويشربون، ويمزحون، ويضحكون، ولكنهم في الدفاع عن الإسلام مثل الأسود، تهون عليهم في المعالي نفوسهم، وهم قدوة لهذه الأمة.

* * * *

ملابس الصحابة

لباس النبي ﷺ:

لاشك أن رسول الله ﷺ كان هو الأسوة لصحابته رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فكانوا يتأسّون به في كل شيء ويسيرون على هداه، وخاصة في قضايا المأكل والمشرب واللباس. ولو أخذنا نستعرض ما كان يلبسه الصحابة رضوان الله عليهم لوجدت أنهم كانوا من البساطة إلى درجة كبيرة، ولكنهم كانوا يتمتعون بنظافة عالية وحرص على ما يستر عوراتهم ويتزينون بالعمائم ويستخدمون الدروع في حالات الحرب وغيرها، وكان رسول الله ﷺ يلبس كما يلبس الناس، وكان أعظم الناس وقارا في لباسه قبل البعثة وبعدها، وقد لبس الإزار والرداء والكساء والقميص والسراويل والحلة والقطيفة والجبة والثوب والمرط والعباءة والنمرة.

وكان يضع على رأسه العمامة ويرخي على كتفه طرفيها، ويلبس القلنسوة.. ويلبس النعل والخف والجورب.. ولم يكن يتميز على الناس بلباس خاص.

كان هديه في اللباس الاعتدال فيه والتوسط ولبس ما تيسر مما كان يلبسه الناس في الجزيرة عموما، وفي مكة خصوصا من غير إسراف ولا كبر. ويتمثل هديه في اللباس بقوله: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان؛ سرف أو مخيلة»، وكان ﷺ يربي أصحابه على الزهد في اللباس والزينة، وكان قدوتهم في ذلك، يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويركب الدابة، ويردف خلفه، وينام على الحصير.. ويحقر شأن الدنيا، ويدعو إلى ترك فاخر الثياب ورثاثة الهيئة، فقد ذكر الصحابة الدنيا عنده يوما فقال: ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان!!..

والبذاذة: بساطة الهيئة، والزهد في فاخر الثياب، من غير غلو ولا قذارة ولا تصنع.

وبين لأصحابه أن حق المسلم في هذه الدنيا قليل، فقال: ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال، بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز والماء، وبين أن

التفاخر والاختيال صفات منكرة يبغضها الله من عباده.. «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة».

وكان ينهى عن إطالة الثوب فيقول: «وارفع إزارك نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخْيَلَة، وإن الله لا يحب المخْيَلَة»، وقال ﷺ إن الله لا يقبل صلاة رجل مسبل.. وقال: فما كان أسفل من الكعبين فهو في النار، ومن جرَّ إزاراه بطراً لم ينظر الله إليه..، وقال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» فكررها ثلاث مرات، فقال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»، وكان يلبس خشن الثياب، قالت عائشة رضي الله عنها: «خرج علينا رسول الله ﷺ وعليه مرط مرحل من شعر أسود، ودخل يوم الفتح مكة متواضعاً لله وعليه عمامة سوداء، يكاد وجهه الشريف يمس رحل ناقته وقد روى ابن عمر أنه كان إذا اعتمَّ سدل عمامته بين كتفيه، وكان ابن عمر يفعل ذلك».

وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن فراش النبي ﷺ فقالت: كان من أدم حشوه ليْف.. ودخلت امرأة من الأنصار بفراش حشوه الصُّوف، فدخل رسول الله ﷺ فقالت: فلانة الأنصارية، دخلت علي فرأت فراشك، فذهبت فبعثت إلي بهذا، قال: «ردِّيه يا عائشة»، قالت: فلم أردّه وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ثلاث مرات: «ردِّيه يا عائشة فو الله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة!!».

هكذا ظل حياته كلها، زاهداً في الدنيا وزينتها حتى توفاه الله تعالى، فقد أخرجت السيدة عائشة رضي الله عنها كساءً وإزاراً غليظا وقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين.[1]

ملابس الصحابة:

كان السابقون الأولون من المهاجرين يلبسون من الثياب بحسب اختلاف

---

[1] متفق عليه عن أبي موسى.

أحوالهم بين غني وفقير، فلما كانت الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة تغيرت أحوالهم، فذاقوا الجوع، ولبسوا ثياب الفاقة بعد أن كان أكثرهم في رغد من العيش.

فتى قريش المدلل:

روى ابن سعد بسنده عن ابراهيم بن محمد العبدري عن أبيه قال: كان مصعب بن عمير فتى مكة شبابا وجمالا وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، فكان رسول الله ﷺ يذكره فيقول: ما رأيت بمكة أحدا أحسن لمة، ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير.!!.

ولكن مصعباً أسلم وهاجر إلى الحبشة، ثم رجع متغير الحال، قد غلظت ثيابه، فرقت أمه لحاله، وسكتت عنه فلما هاجر إلى المدينة ذاق أشد أنواع الفقر والفاقة، فكان يلبس أقل الثياب كلفة فلنسمع ما رواه الذهبي في الطبقات عن مصعب، قال:

أخرجه عن ذلك حب الله ورسوله:

أقبل ذات يوم والنبي ﷺ في أصحابه عليه قطعة نمرة قد وصلها بإهاب[1]، قد ردَّنه[2] ثم وصله إليها، فلما رآه أصحاب النبي ﷺ نكسوا رؤوسهم، رحمة له، ليس عندهم ما يغيرون عنه، فسلم فرد عليه النبي ﷺ وأحسن عليه الثناء، وقال: «الحمد لله، يقلب الدنيا بأهلها، لقد رأيت هذا وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير، حب الله ورسوله!!».

لم يجدوا مايكفنونه به:

فلما كانت أُحُد، وأكرم الله مصعبا بالشهادة، وقف رسول الله ﷺ عليه وهو في بردة مقتول فقال: «لقد رأيتك بمكة وما بها أرق حالة ولا أحسن لمة منك، ثم أنت شعث الرأس في بردة؟!!».

---

(١) جلد

(٢) صنع منه كماً.

فلما أرادوا دفنه لم يجدوا ما يكفنوه به إلا نمرة، قال خباب: فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا من الإذخر على رجليه».

ملابس أهل الصفة:

كذلك كان حال أهل الصفة، فقد روي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته!!، ترى هل رأت الدنيا على ظهرها من تجردوا لدينهم، وتحملوا العري والجوع والفاقة مثل ما تجرد هؤلاء الصحابة الكرام؟!!.

حكم الزينة:

ورغم ما كان عليه رسول ﷺ من التواضع في ثيابه وفي مأكله ومشربه ومركبه وسائر أحواله، إلا أن ذلك لم يمنعه أن يلبس جيد الثياب، وأن يبيح لأمته ما أحل الله من الزينة، إظهاراً للنعمة، في الجُمع والأعياد، وفي الأفراح وعند استقبال الوفود والضيوف، وقد تأسى به أصحابه من الخلفاء، والأمراء والأئمة والعلماء والأغنياء وجاء القرآن ببيان حل الزينة في قول الله عز وجل: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾(١).

فقد روى جندب بن مكيث قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه، وأمر علية أصحابه بذلك، فلقد رأيت رسول الله ﷺ قدوم وفد كهذه وعليه حلة يمانية، وعلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مثل ذلك، وقال عمر رضي الله عنه: رأيت أبا القاسم ﷺ وعليه جبة شامية ضيِّقة الكُم. وعن البراء رضي الله عنه كان

---

(١) الأعراف ٣١-٣٢.

رسول الله ﷺ مربوعاً، وقد رأيته في حلةٍ حمراء، ما رأيت شيئاً أحسن منه[1] وكان يحث الصحابة على الاستمتاع بالطيبات فيقول: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلةٍ ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»[2].

ولم يكن ﷺ يبالغ في إظهار الزينة، ولم يأذن لأصحابه أن يبالغوا فيها، فقد جاءت حلل حسان من حرير أو استبرق فأعطى عمر، فقال عمر يا رسول الله كسوتنيها وقد قلت في كسوة عطارد ما قلت، فقال رسول الله ﷺ لم أكسكها لتلبسها!! فكساها عمر أخاً له مشركاً بمكة، ورأى عمر حلة سيراء عند باب المسجد فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها للناس، يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك، فقال: إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة[3] ولم يلبسها لأنها من استبرق فهي لذلك حرام.

وقد حرم الله تعالى الحرير والذهب على الرجال، وأن تصنع سروج الدواب من القسي والإستبرق والديباج وجلود النمور، وعن ركوب الخز والنمار، وعن جلود السباع، عن حذيفة رضي الله عنه قال: نهانا رسول الله ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه.

وعن معاوية بن سويد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تركبوا الخز، ولا النمار، ونهى عن جلود السباع.

تحريم ثوب الشهرة، وثياب الكفار:

وقد حرَّم الإسلام على الرجل أن يلبس ثوب الشهرة، وثوب الشهرة هو الثوب الغريب الذي لم يأذن به الشرع، ولم يتعارف عليه الناس، يلبسه الرجل ليشتهر به، ويتحدث عنه به الناس، فقد روى أبو داود عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «من لبس

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الحاكم والترمذي.

(٣) رواه مسلم.

ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوباً مثله، ثم تلهب فيه النار»، وروى أبو داود عن ابن عمر أيضاً «ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وروى مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى عليه ثوبين معصفرين فقال: «أمك أمرتك بهذا؟» قال قلت: أغسلهما يا رسول الله؟ قال: «بل احرقهما»، وفي رواية أبي داود: فعرفت ما كرهه، فأتيت أهلي وهم يسجرون تنوراً لهم، فقذفتها فيه، فأتيته من الغد فقال: «يا عبد الله، ما فعلت الريطة»[1] فأخبرته فقال: أفلا كسوتها بعض أهلك؟ فإنه لا بأس بها للنساء.

هديهم في اللباس:

وقد سار الصحابة على هديه ﷺ حين أقبلت عليهم الدنيا، فقد خرج عمر رضي الله عنه ذات يوم وعليه حلة قطن، فنظر الناس إليه نظرا شديدا، كأنهم تعجبوا من حسنها فقال:

لاشيءَ فِيما يُرَى إِلّا بَشاشَته   يَبْقَى الإِلهُ ويُودِي المالُ والوَلَدُ

ثم قال: والله ما الدنيا في الآخرة إلا كنفخة أرنب (كناية عن قصر مدتها، لأن الأرنب يتنفس بسرعة) وقد اشتهر عن عمر رضي الله عنه أنه كان يلبس المرقّع وهو خليفة المسلمين، ويحاسب الأمراء والولاة حتى على اللباس!!.

من ذلك أنه لما جاء الأحنف بن قيس من العراق ومعه الهُرمُزان والغنائم والكنوز الكثيرة، وجد في رحله ثوباً آخر، وكان الأحنف قد اشترى ثوبا ليلبسه في المدينة، اشتراه باثني عشر درهما، فلما رأى عمر بن الخطاب الثوب في رحل الأحنف سأل لمن هذا الثوب؟ قال الأحنف هو لي يا أمير المؤمنين، فخاف الأحنف فأخبره أنه اشتراه بثمانية دراهم، فقال له عمر: هلّا بدون هذا، ووضعت فضلته موضعا تغني به مسلما؟!!

ثم قال عمر رضي الله عنه: ضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم،

---

(١) الريطة كل ثوب لين دقيق الصنع كثير الزينة، والملاءة إذا كانت نسجاً واحداً. والجمع ريطٌ، والرائطة المنديل يتمندل به بعد الطعام..

ولا تسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم!!.

قال الأحنف: ولم أكذب غير هذه في حياتي!!.

عثمان يلبس الفاخر عزاً للإسلام:

وكان عثمان رضي الله عنه من أغنياء الصحابة، وكان من أجمل الناس، يلبس من الثياب ما يظهر به نعمة الله عليه، فلما أصبح خليفة المسلمين أراد أن يظهر عز الإسلام، فلبس ثوبين أصفرين فاخرين، إزاراً ورداءً، فكان يخرج بهما إلى الجمعة، حتى يأتي المنبر فيجلس عليه، فيخطب وهو يتوكأ على عصا.

أما علي رضي الله عنه فإنه لم يكن يبالغ في اتخاذ الزينة، بل كثيرا ما كان يتقشف في لباسه، فقد ذهب إلى السوق، فأخرج له البائع قميصا فلبسه فإذا هو إلى نصف ساقيه، فقال: بكم هذا؟ قال: بأربعة دراهم يا أمير المؤمنين، فأخرجها من إزاره فدفعها إليه!!.

ورأى أحد الخوارج على علي ثوبا حسنا، فعاتبه فيه، فقال علي رضي الله عنه: مالك ولِلَبوسي؟ إن لَبوسي أبعد من الكبر، وأجدر أن يقتدي به المسلم!!.

وكان معاوية رضي الله عنه والياً على الشام في خلافة عمر وعثمان، فكان يلبس فاخر الثياب إعزازاً للإسلام، فقد خرج في موكب عظيم لاستقبال عمر حين جاء إلى الشام، فلما رأى عمر ذلك أنكر عليه، فاعتذر إليه معاوية وقال: يا أمير المؤمنين، إنا بأرض جواسيس، العدو فيها كثيرة، فيجب أن نظهر عز السلطان، ما يكون فيه عز الإسلام وأهله، ونرهبهم به.. فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر: ما أحسن ما صدر عما أوردته فيه يا أمير المؤمنين.. فقال عمر: من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه!! (أي وثقنا به ووليناه)!!.

ولكن معاوية عاد إلى التواضع بعد أن ظهر الإسلام وانتصر، واندحر الكفر وانقهر، فكان يلبس المرقع تواضعا وزهدا، وهو خليفة المسلمين، وصاحب السلطان العظيم!!.

لباس النساء:

كان نساء الصحابة قبل نزول آيات الحجاب على ما كانت عليه عادات نساء الجاهلية، يكشفن وجوههن، ويبدين زينتهن، ولم ينزل في ذلك شيء في مكة، وتأخر

نزول ما نزل فيه في المدينة، وكان عمر رضي الله عنه شديد الغيرة على النساء عامة، وعلى أمهات المؤمنين خاصة، وكان يقول للنبي ﷺ: يا رسول الله، يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجين؟! ولم يزل عمر كذلك حتى حقق الله أمنيته، فأنزل الله تعالى ما أنزل في سورة النور وسورة الأحزاب من الأمر، وعدم إبداء الزينة لغير المحارم، وستر مواضع الفتنة من النساء، وقد أخذ الله تعالى النساء بالرفق والتدرج في ذلك حتى أنزل آية الحجاب: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وقد بينت السيدة عائشة رضي الله عنها وظيفة الحجاب وأهميته فقالت:.. لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها، ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك، بل كانت المرأة منهن تمر بين يدي الرجال مسفحة بصدرها، لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها، وذوائب شعرها، وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن.

نزول الأمر بالحجاب:

ووصفت السيدة عائشة رضي الله عنها كمال إيمان نساء المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وسرعة استجابتهن لأمر الله حين أمرن بالحجاب فقالت: إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقا لكتاب الله، ولا إيمانا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ..﴾ فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته

وأخته، وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت[1] تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ - أي في صلاة الفجر - معتجرات، كأن على رؤوسهن الغربان[2].

وفي رواية البخاري أنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

وفي رواية: أخرى: أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها.

وذكرت عائشة رضي الله عنها نساء الأنصار فأثنت عليهن، وقالت لهن معروفا، وقالت: لما نزلت سورة النور عمدن إلى حجور أو حجوز فشققنهن، فاتخذنه خمرا.. والاختمار هو أن تضع المرأة الخمار على رأسها وعنقها وصدرها، لما في التكشف من الفتنة والفساد في الأرض.

وأرادت بسورة النور: آية الحجاب، وهي قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]

وقد فسر ابن كثير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ..﴾ فقال: أي لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه.. قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، وما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها، وما يبدو من

---

(١) المرط: كساء من صوف.. والمرحل: المزخرف أو المعلم، والاعتجار: لبس الخمار على الرأس.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن طريق عبد الله بن عثمان..

(٣) النور ٣١

أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكنها إخفاءه.

وقيل: إلا ما لا يمكن إخفاؤه عند مزاولة الأمور التي لا بد منها، كالخاتم والكحل والخضاب ونحوها، لأن في سترها حرجا بيِّنا.

وأما قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ففيه أمر النساء باتخاذ الخمار الذي يستر الرأس والأذنين وما فيهما من الزينة، وأن يكون الخمار سابغا يغطي الرقبة والنحر، والمراد بضرب الخمار إلقاؤه على العنق والنحر وما يبدو من الصدر، وكان من عادة النساء أن يلبسن الخلاخل، فأمرهن الله عز وجل بالكف عن ذلك فقال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد خصَّ النبي ﷺ النساء بعنايته الفائقة في تربيته وتزكيته ليكنَّ زوجات صالحات وأمهات تقيات، فكان يعلِّمهُنَّ أمور دينهنَّ، فمن ذلك أنهنَّ أرسلْن إليه فطلبن منه أن يجعل لهن مجلسا يعلمهن مما علمه الله، فاستجاب لهن فضرب لهن موعدا، فأتاهن وعلمهن..

أمهات المؤمنين يعلمن النساء:

وقد كانت أمهات المؤمنين معلمات للنساء أمور دينهن في حياته وبعد وفاته ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها، أن أختها أسماء دخلت على رسول الله ﷺ، وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها، وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لن يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه!! ومن أمثلة تعليم نسائه أمور دينهن للنساء ما وري عن السيدة عائشة رضي الله عنها حين أتت البصرة فنزلت على صفية أم الطلحات، فرأت بناتاً لأم طلحة - قد بلغن مبلغ النساء - فقالت: إن رسول الله ﷺ دخل وفي حجرتي جارية فألقى إلي حفوه -أي إزاره - وقال: شقيه شقين، فأعطى هذه نصفا، والفتاة التي عند أم سلمة نصفا، فإني لا أراهما إلا قد حاضتا.

النبي المعلم:

ومن عنايته بهن ما رواه دحية الكلبي قال: أتي رسول الله ﷺ بقباطي - ثياب قبطية من مصر بيضاء - فأعطاني منها قبطية، فقال: «اصدعها صدعين، فاقطع إحداهما قميصا، واعط الآخر امرأتك تختمر به»، فلما أدبر قال: ومُر امرأتك أن تجعل تحته ثوبا لا يصفها - أي سميكا لا تظهر من تحته تقاطيع الجسم - ومن ذلك أن حفصة بنت عبد الرحمن دخلت على عائشة وعليها خمار دقيق، فأنكرت عائشة عليها ذلك، فأخذت الخمار فشقته وكستها خمارا كثيفا.

ودخل رسول الله ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها وهي تختمر - تضع الخمار على رأسها - فقال: ليَّة، لا ليَّتين أي ضعي الخمار ولا تكرري ليَّه على رأسك مرة أخرى لئلا يصير خمار النساء كالعمامة للرجال، بعداً عن تشبه النساء بالرجال، وقد كانت أمهات المؤمنين أكثر النساء حرصاً على الحجاب وتشبُّثاً به، لأنهن القدوة للنساء، فكانت أم سلمة رضي الله عنها لا تضع جلبابها عنها وهي في البيت، طلبا للفضل - وزيادة في الاحتياط، وكذلك كان حال أكثر أمهات المؤمنين، وأكثر النساء في عصر الصحابة.

وقد أذن الشرع للمرأة أن ترخي ثوبها، وتزيد في طوله شبرا أو ذراعا، لئلا تبدو أقدامها، وأذن لها أن تجر ثوبها دون أن يلحقها إثم، بخلاف الرجال، فقد روى الترمذي والنسائي وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، فقالت أم سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن، قال: يرخين شبرا، فقالت: إذن تنكشف أقدامهن!!.. قال: فيرخين ذراعا لا يزدن عليه.

وشرع النبي ﷺ للمرأة عند تعاطيها الأشغال أن تشد في وسطها نطاقا ترفع به من ثوبها شبرا لئلا يمسَّ الأرض تخفيفا عنها، فقد روى الترمذي عن أم سلمة أن النبي شبر لفاطمة شبرا من نطاقها..

ما يباح للنساء من اللباس:

أحلَّ الله تعالى للنساء أصناف الثياب من الحرير والذهب والديباج، وحرم ذلك على الرجال، وأباح للنساء اتخاذ الزينة في الثوب من التطريز ورسم العروق والأشكال الهندسية والطبيعية ما لم يكن فيها صور الأحياء فإنها حرام، وأباح لهن الوشاح ولبس ما يصف الجسم من الثياب أمام الزوج، وكل ما تتخذه النساء للزينة حلال إذا كان للزوج، دون غيره من المحارم البالغين، أما غير المحارم فلا يبدو منها إلا الوجه والكفان، إذا أمنت الفتنة!!.

حرمة تشبه النساء بالرجال:

وقد حرم الإسلام على النساء لبس ما يلبسه الرجال من ثوب وجبة وحلة وعمامة كما حرم على الرجال أن يلبسوا شيئا مما هو من أزياء النساء خاصة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لعن الله الرجل الذي يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجال»..وسئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن المرأة هل تلبس النعل ـ وهو خاص بالرجال ـ فقالت: قد لعن رسول الله ﷺ الرَّجلة من النساء، وهي التي تتشبه بالرجال سواء كان ذلك في النعل أو غيره من ألبسة الرجال، أو الحركات أو الصوت.

استحباب السراويل للنساء:

وكان ﷺ يحب ان تلبس النساء السراويل، فقد أخرج البزار والعقيلي وابن عدي وغيرهم عن علي رضي الله عنه قال: كنت قاعدا عند رسول الله ﷺ عند البقيع في يوم مطير، فمرت امرأة على حمار ومعها مكار، فمرت في وهدة من الأرض فسقطت فأعرض عنها بوجهه، فقالوا يارسول الله إنها متسرولة، فقال: «اللهم اغفر للمتسرولات من أمتي، يا أيها الناس اتخذوا السراويلات فإنها من أستر ثيابكم، وخُصّوا بها نساءكم إذا خرجن». والحديث له عدة طرق كذا في الكنز (٨/ ٥٥).[1]

* * * *

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي، الجزء الثاني ص ٧٠٦

المؤاخاة

خلَّف المهاجرون وراءهم الأهل والديار والأموال، ولاذوا بإخوانهم في المدينة فوجدوا فيهم عوضا عن كل ما فقدوه، فقد استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين خير استقبال، وقاسموهم الديار والأموال فآووهم ونصروهم وآثروهم على أنفسهم، رغم ما كان بهم من خصاصة. وحبب الله تعالى إلى المهاجرين والأنصار الإيمان وزينه في قلوبهم، فإذا هم إخوة قد تحابوا في الله، واجتمعوا على غير أرحام بينهم، وعلت رابطة العقيدة فوق كل رابطة، فإذا هم كالجسد الواحد، إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى!!.

وقد اكتملت فرحة الأنصار بوصول النبي ﷺ إلى المدينة فازداد شعورهم بالمسؤولية نحو إخوانهم المهاجرين، إنها أخوَّة تنبثق من مشكاة قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ... ﴾[1] ومن شعب الإيمان: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2] فأصبحت الأخوَّة بين المهاجرين والأنصار روحاً تسري في أفراد المجتمع الجديد، ورأى النبي ﷺ أن هذه الأخوَّة القائمة قد أصبحت حقيقة معاشة في حياة المهاجرين والأنصار، وأن ما سهر على غرسه في القلوب قد أصبح شجرة طيبة عميقة الجذور في تربة الإسلام، يانعة الثمار في سمائه، وأن أُكُلها دائم، وظلها باسق، وأن الله تعالى يريد لهذا المجتمع أن يكون النموذج الأعلى والأسوة المثلى لكل مجتمع يريد أن يحيا بالإسلام إلى يوم القيامة، فآخى بينهم بإخاء تضاءلت أمامه أخوة الرحم. أخوة كان من آثارها أن الأخوين كانا يتوارثان فيما بينهما، يرث المهاجر الأنصاري، ويرث الأنصاري المهاجر، وظل الأمر كذلك حتى

---

(١) الحجرات ١٠

(٢) متفق عليه.

أدت تلك الأخوة دورها المطلوب، فزالت عن قلوب المهاجرين وحشة الغربة، ووجدوا في إخوانهم الأنصار ما هو خير من الأهل والعشيرة والأخ والصديق. فلما كانت بدر النصر والفرقان، ونزلت الأنفال بآياتها الكريمة ودروسها الخالدة نسخ الله عز وجل حكم التوارث، في الآية الكريمة ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ فأصبح التوارث قائماً على الأرحام والعلاقة الزوجية.

وبقيت أخوة الحب والتكافل والتناصر والتناصح حتى انتهت رحلة ذلك الجيل الكريم بلقاء وجه الله عز وجل راضياً مرضياً، فطوبى لهم وحسن مآب!! وهي أخوة لا منتهى لها ما دام في الأرض قرآن وسنة وإسلام، وما وجد في الأرض مسلمون!!.

أخوة تقول على لسان النبي ﷺ: «من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، ومن كان له فضل ثوب فليعد به على من لا ثوب له، ومن كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له».

قال راوي الحديث: (فعدد أصنافا من الفضل حتى ظننا أن لا حق لأحد منا على أحد[1] ويقول في حديث آخر: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»[2].

الذين آخى بينهم:

أما صورة هذه المؤاخاة فإن النبي ﷺ قد آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال فيما روى ابن إسحاق: «تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه فقال: هذا أخي»، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين

---

(١) رواه مسلم والإمام احمد وأبو داود.

(٢) رواه البزار والطبراني.

وإمام المتقين، ورسول رب العالمين وعلي بن أبي طالب أخوين، وكان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله وعم رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد إن حدث به حادث الموت، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وخارجة بن زهير رضي الله عنه أخوين، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعتبان بن مالك رضي الله عنه أخوين، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد ابن معاذ رضي الله عنهما أخوين، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع رضي الله عنهما أخوين، والزبير بن العوام، وسلامة بن سلامة رضي الله عنهما أخوين، وعثمان ابن عفان، وأوس بن ثابت رضي الله عنهما أخوين، وطلحة بن عبيد الله، وكعب بن مالك أخوين، وسعيد بن زيد، وأُبيّ بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير، وأبو أيوب الأنصاري أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة، وعباد بن بشر أخوين، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان أخوين، وأبو ذر الغفاري، والمنذر بن عمرو أخوين. وحاطب بن أبي بلتعة، وعويم بن ساعدة أخوين، وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء أخوين...

وآخى رسول الله ﷺ بين جعفر بن أبي طالب - وكان في الحبشة - ومعاذ بن جبل فكانا أخوين، وقد تأخرت هجرة جعفر من الحبشة إلى ما بعد فتح خيبر، فتلقاه النبي ﷺ وقال: ما أدري بأيهما أنا أشد فرحا، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر؟ وقد استشهد جعفر في غزوة مؤتة بعد أن قطعت ذراعاه، وكان ثاني القواد الثلاثة الذين قتلوا في مؤتة، فأبدله الله بذراعيه جناحين يطير بهما في الجنة!!.

وقد بلغ عدد الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ تسعين رجلا، خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار.

أما لماذا لم يؤاخِ النبي ﷺ بين من بقي من المهاجرين واكتفى بهذا العدد؟ فالله أعلم لماذا؟ وربما أراد أن يكون هؤلاء مثلاً وأسوةً لغيرهم من المهاجرين والأنصار، فلا

تنحصر الأخوة بين رجل ورجل، بل تكون بين كل مهاجر وسائر الأنصار، ويقوم التعاون بين الجميع على أحسن حال.

وأما لماذا آخى النبي ﷺ بينه وبين ابن عمه علي بن أبي طالب ولم يؤاخ بينه وبين أحد من الأنصار، فالذي يبدو - والله أعلم - أنه لو فعل لكان الذي يؤاخيه إما من الأوس، وإما من الخزرج، وقد كان بين الحيين قبل الإسلام ما كان من العداوات والحروب والدماء، فيثير ذلك في نفوس الآخرين ما أماته الإسلام، فلا ينبغي ان يقع شيء يعكر صفو هذا الإخاء، وقد أصبحوا بنعمة الله إخوانا!!.

ولاشك أن منزلة علي من رسول الله ﷺ منزلة عظيمة، تجمع إلى قرابة الدم، صلة الكفالة والتربية التي حظى بها سيدنا علي من رسول الله ﷺ، أضف إلى ذلك سبقه إلى الإسلام ودوره في الهجرة، ونومه في فراشه ليؤدي الأمانات التي عنده إلى أهلها، وانتظاره له في قباء حتى وصل فدخل المدينة معه فهو لذلك أحق بهذا الشرف العظيم! وهو حبيب إلى قلب رسول الله ﷺ منذ صغره ووالده وقف مواقف كثيرة وتحمل فى سبيل حماية رسول الله ﷺ.

وربما راعى رسول الله ﷺ أنه لو جعل نفسه أخا لأنصاري، كان ذلك شرفا لا يرقى إليه أحد من الأنصار، فآثر ﷺ أن يعدل بينهم.

* * * *

هم فقراء المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم ولم يحملوا معهم شيئا من أموالهم، إما لأنهم فقراء لا مال لهم، أو لأن قريشا منعتهم أن يخرجوا بأموالهم، وقد ظلت الهجرة فرضاً على المسلمين حتى فتح الله تعالى لنبيه مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وظلت قوافل المهاجرين تتوالى على المدينة من مكة وغيرها من البلاد التي أسلم منها من أسلم، ليكثر سواد المسلمين في مواجهة أعدائهم، وتقوم سوق الجهاد في سبيل الله بينهم، ويظهر الله دينه على الدين كله بهم، وكان أمر الله قَدَراً مقدورا.

أسباب نزول الصفة:

لم تستطع موارد المدينة ومساكن الأنصار استيعاب هذه الأعداد المتزايدة من المهاجرين لقلة مصادر الرزق، واستغناء أصحاب الزراعة والنخيل عن العمال إلا بقدر ما تدعو إليه الضرورة، أو تحمل عليه بعض المواسم، وكانت معظم التجارة بيد اليهود، والصنائع والحرف بأيديهم أو بأيدي العبيد، لأن العرب كانوا يترفعون عن الاحتراف، ووجد كثير من المهاجرين أنفسهم بلا عمل رغم بحثهم عنه، واستعدادهم له، فماذا يفعلون؟.

في ظل هذه الظروف الجديدة وجدت طائفة من فقراء المهاجرين أنفسهم بلا مأوى، فاتخذوا الصفة في مؤخرة المسجد مكانا ينامون فيه ويقرأون القرآن، ويطلبون العلم، ويملأون أوقاتهم بما ينفعهم، وقد عرف هؤلاء بأهل الصفة.

روى الإمام أحمد وابن حبان والحاكم من حديث طلحة بن عمرو ما يدل على أن الصفة لا ينزلها إلا من لا يجد لنفسه مأوى آخر: «كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، فكنت فيمن نزل الصفة»[1].

---

(١) فتح الباري (١/٢٨٦) والمسند ٣/٢٨٧

أكثرهم من العزاب:

كانت الصفة مقتصرة على من لا أهل له، وهم العزّاب، وقد آوى سعد بن خيثمة في بيته بعض العزاب تخفيفا عنهم ومواساة لهم، وكان سعد فيما يبدو عزبا فسمي بيته بيت العزاب، وهذا ما يدل على أنه لم يتخذ الصفة أحد من المهاجرين إلا إذا لم يستطع أن يجد لنفسه مأوى في مكان أخر. ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبادة ابن الصامت قال: «كان رسول الله ﷺ يُشْغَل[1]، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إلي رسول الله ﷺ رجلا، وكان معي في البيت، أعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن.[2]

ولم ينزل في الصفة أحد من الأنصار لأن هؤلاء كانت لهم بيوتهم وعشائرهم التي تؤويهم إذا لم يكن لهم مأوى.. قال أبو نعيم في الحلية في ترجمة حجاج بن عمرو: «إن ذكره في أهل الصفة وهم، لأنه من الأنصار، ولا يعرف لواحد منهم ذكر في أهل الصفة»[3].

الحثُّ على إطعامهم:

كان المهاجرون والأنصار يتعاونون فيما بينهم في كفالة أهل الصفة وتقديم ما يحتاجون إليه من ضرورات العيش، فقد بذل أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف كل ما استطاعوا في هذا السبيل، وكان هؤلاء أغنياء بما حملوه من أموالهم، أو بما كسبوه في تجارتهم وأعمالهم، ولم يقتصر البذل على الأغنياء، فقد سعى القادرون على العمل، الواجدون له من الفقراء على إخوانهم، وكانت نفقة أهل الصفة على كل قادر من الصحابة، أغنيائهم وفقرائهم ولو كان ما يقدمونه شيئاً يسيراً لشدة الحاجة إليه. وكان النبي ﷺ إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته

---

(١) ومعنى يشغل: لايجد فراغاً، فيدفع من جاء من المهاجرين لأحد الصحابة ليعلمه ويفقهه، ويقوم بشأنه..

(٢) طبقات بن سعد ١/ ٤٠٩

(٣) رواه البخاري ٢٢٧٣ ومسلم في كتاب الزكاة.

هدية أرسل إليهم وأصاب منها، وأشركهم فيها[1] وقد يوزعهم على أصحابه، ويحثهم على إطعامهم لئلا يبيت أحد منهم جائعا، فقد روى الشيخان أن النبي ﷺ قال مرة: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس» - أو كما قال - وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة..[2].

وروى الإمام أحمد عن يعيش بن طلحة الغفاري قال: كان أبي من أصحاب الصفة، فأمر رسول الله ﷺ، فجعل الرجل ينقلب بالرجل، والرجل بالرجلين حتى بقيت خامس خمسة، فقال رسول الله ﷺ: «انطلقوا»، فانطلقنا معه إلى بيت عائشة[3].

وكان ﷺ يقدم حاجتهم على حاجة أقرب الناس إليه، وقد مرت بنا قصة السيدة فاطمة عندما أتته رضي الله عنها حين أتي بسبي تسأله خادما فقال: «والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم من أثمانهم»[4].

وبلغ من اهتمام النبي ﷺ بأهل الصفة وحث القادرين على إطعامهم أن جماعة من الصحابة، غالبهم من الأنصار وكانوا يعرفون بالقراء. كانوا يحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء، يقول ابن مسعود: «ينطلق أحدنا إلى السوق فيحامل فيصيب المد، ثم يأتي ليتبرع به»[5] أي ليطعم أهل الصفة.

الصبر على الجوع وضيق الأحوال:

كانت الأحوال الاقتصادية في المدينة ضيقة على وجه العموم، فعاش المهاجرون والأنصار جميعا على الكفاف، وكان النبي ﷺ أقل الناس عيشا، وأصبرهم على

---

(١) البخاري رقم ٦٤٥٢

(٢) البخاري ٦٥٨١

(٣) المسند ٤٢٩/٣

(٤) فتح الباري ٢١٦/٦ وأصل الحديث في البخاري رقم ٣١١٣

(٥) البخاري ومسلم.

الجوع، فقد أخرج ابن سعد عن مخرمة بن سليمان، أخبرني الأعرج عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ كان يجوع، قلت لأبي هريرة: وكيف ذلك الجوع؟ قال لكثرة من يغشاه وأضيافه، وقوم يلزمونه لذلك، فلا يأكل طعاماً أبداً إلا ومعه أصحابه، وأهل الحاجة يتتبَّعون من المسجد، فلما فتح الله خيبر اتسع الناس بعض الاتساع، وفي الأمر بعد ضيق، والمعاش شديد، وهي بلاد ظلف[1]، لا زرع فيها، إنما طعام أهلها التمر، وعلى ذلك أقاموا».

قال مخرمة[2]: «وكانت جفنة سعد تدور على رسول الله ﷺ منذ نزل المدينة في الهجرة إلى يوم توفي، وغير سعد بن عبادة من الأنصار كانوا يفعلون ذلك، فكان أصحاب رسول الله ﷺ كثيرا ما يتواسون، لكن الحاجة تكثر، والقُدَّام يكثرون، والبلاد ضيقة ليس فيها معاش، إنما تخرج ثمرتهم من ماء ثمر[3]، يحمله الرجال على أكتافهم أو الإبل .. وربما أصاب نخلهم القشام[4]، فتذهب ثمرتهم تلك السنة»[5].

إقامتهم في الصفة مؤقتة:

ولم تكن إقامة أهل الصفة دائمة، بل إقامة مؤقتة ريثما يجد أحدهم عملا أو يجد مأوى أو يتزوج، لذلك قال أبو هريرة في وصفهم: «وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا أحد»[6].

فأهل الصفة إذن ضيوف مهما طالت إقامتهم فإنها تنتهي عند وجود المسكن أو عند القدرة على الزواج لما يقتضيه من بيت مستقل، وهذا وذاك متوقف على إيجاد العمل

---

(١) الشدة.

(٢) من هو مخرمة: هو مخرمة بن سليمان الوالبي المدني أحد رواة الحديث، روى عن السائب بن يزيد، وعبد الله بن جعفر وأسماء بنت أبي بكر. وعن كريب مولى ابن عباس وعن مالك بن أنس وغيرهم، وهو ثقة، مات سنة ١٣٠

(٣) ماء يستخرج باليد.

(٤) آفه تصيب التمر مثل الجدري.

(٥) طبقات بن سعد ١/٤٠٩

(٦) رواه البخاري ٦٤٥٢

وسعة الرزق، قال ابن تيمية: (لم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل، أو ينتقل إلى مكان أخر يتيسر له، فهي مأوى فقراء المهاجرين، فمن تأهل منهم أو سافر، أو خرج غازيا خرج منها فكانوا تارةً يقلّون، وتارةً يكثرون، فتارة يكونون عشرة أو أقل، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارة يكونون ستين وسبعين.[1]

عددهم:

أما عدد من نزل الصفة منذ نزول أهلها بها حتى انفضاضهم عنها وانتهاء دورها بمقتضيات الجهاد، وتوفر الأرزاق وكثرة الغنائم فإن عددهم لا يتجاوز أربعمائة من الصحابة. وقد ذهب السهروردي والزمخشري إلى أنهم أربعمائة، وكذلك ذهب ابن تيمية، قال رحمه الله: جملة من أوى إلى الصفة مع تفرقهم، قيل أربعمائة، وقيل أكثر، وقد اعتنى بذكر أسمائهم وأحوالهم ابن الأعرابي، وأبو عبد الرحمن السلمي في كتاب: (تاريخ أهل الصفة) فإذا علمنا أن بعضهم لم تتجاوز إقامته في الصفة يوماً أو أياماً معدودةً، أو أشهراً قليلة، وأنهم كانوا يخرجون إلى الجهاد ويشاركون في السرايا، فيقلون ويكثرون باختلاف الظروف، تبين أنهم جماعة قليلة على كل حال إذا ذكر الصحابة أجمعون، وقد بلغ الصحابة في غزوة تبوك ثلاثين ألفا، وفي حجة الوداع أكثر من مائة ألف، وكان أكثر ما بلغ عدد أهل الصفة بعد صلح الحديبية حين كثر الداخلون في الإسلام وكثر المهاجرون إلى المدينة.، وليس لدينا إحصاء دقيق لهم في هذه الفترة، ونرجح أنهم لا يكادون يصلون إلى مائة وإن تجاوزوا هذا العدد فلا يتجاوزونه إلا قليلا.

فضائلهم:

كان فضل أهل الصفة كسائر الصحابة ومنهم من هو أفضل من الآخر وفي الصحابة من هو أفضل منهم كالعشرة المبشرين بالجنة، وأهل بدر، وأهل بيعة

---

(١) الفتاوى ١١/٤١/٨١

الرضوان.. ولكن فضيلتهم أنهم صبروا على الجوع وقلة ذات اليد، وضآلة الكسوة حتى إن بعضهم كان إذا صلّى مع الجماعة (يخِرُّ رجال منهم من قامتهم في الصلاة من الخصاصة، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين)[1].

وكان بعضهم يلبس الإزار وليس له رداء، فقد روي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته.

حبسوا أنفسهم على الجهاد:

ومن فضائلهم أنهم كانوا محصرين في سبيل الله، حصرهم الجهاد عن الضرب في الأرض، وكانوا أهل عفةً وتصبُّرٍ على الفاقة لا يمدُّون أيديهم لأحد، وقد أنزل الله تبارك وتعالى فيهم قرآنا يتلى إلى يوم القيامة، فكانوا في ذلك مثلا وأسوة للفقراء أبد الدهر، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ...﴾[2]. المراد بهؤلاء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقراء غابر الدهر، وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم، وهم أهل الصفة.

وكانوا يخرجون في الغزوات والسرايا ويشارك القادرون منهم في الجهاد، قال الإمام الرازي في تفسير الآية: للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله.. (نزلت في فقراء المهاجرين وهم أصحاب الصفة وكانوا ملازمين المسجد، ويتعلمون القرآن، ويخرجون في كل غزوة.) وقد أخطأ من ظن أنهم فئة قاعدة عن الجهاد منصرفة إلى

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) البقرة ٢٧٣

العبادة، قال ابن تيمية رحمه الله: كانوا أعظم الناس قتالاً وجهاداً، كما وصفهم القرآن في قوله: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (١) وقال في صفتهم ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴾ الآية.

وتشمل الآية الكريمة البكّائين وهم بعض أهل الصفة، الذين أنزل الله تعالى فيهم في غزوة تبوك قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (٢) وقد كان العرباض بن سارية من هؤلاء البكائين، وهذا واثلة بن الأسقع -وهو من أهل الصفة يقول: نادى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ... فطفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلا له سهمه، فإذا شيخ من الأنصار فقال: لنا سهمه على أن نحمله عقبة -أي بالتناوب- وطعامه معنا، فقلت: نعم، قال: فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا (٣).

إخوةٌ في السرّاء والضرّاء:

ومن خصائصهم أنهم كانوا لا يمتلكون من الدنيا شيئا، ولا يدّخرون مالاً، فإذا جاء أحدَهم شيء أشرك فيه إخوانه لأن أكثر ما كان يأتيهم من الأموال كان صدقة، تصرف لكفايتهم جميعا، فإذا كسب أحد منهم شيئا يغنيه عن المكث في الصفة وأراد أن يخص به نفسه خرج من الصفة، فاستأجر بيتا، وقد يتزوج، وكذلك الحال إذا وجد عملا يغنيه، واستطاع أن يخرج من الصفة خرج منها إن أراد، وإن شاء أشرك فيه إخوانه.

---

(١) الحشر ٨

(٢) التوبة ٩٢

(٣) يعني ما غنمه خالد بن الوليد في دومة الجندل التي كانت بعد تبوك، وكان واثلة في السرية التي قادها خالد إلى دومة الجندل.

ومن خصائصهم أنهم يصرفون كل أوقاتهم في طلب العلم، وتدارس القرآن وقد كان النبي ﷺ يجلس معهم ويحبهم ويعلمهم ويصبرهم ويذكرهم ويعدهم بما أعده الله لهم من الثواب العظيم، فعن عقبة بن عامر الجهني قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن في الصفة فقال: «أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان، أو إلى العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين، في غير إثم ولا قطع رحم؟» فقلنا يا رسول الله، نحب ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[١] .. وعن عبادة بن الصامت قال: علمت ناسا من أهل الصفة الكتابة والقرآن.[٢]

هؤلاء هم أهل الصفة.. فقراء إلى الله.. مجاهدون في سبيله، مقبلون على الطاعات، قانعون بما آتاهم الله شاكرون ذاكرون.. يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ولم يكونوا أهل لهو ولا عبث ولم يختاروا حياة الكفاف.. وإنما فرضت عليهم لضيق ذات اليد.. فكانوا يشاركون الصحابة في كل عمل طيب أو تحرك في سبيل الله.. ثم يعودون إلى الصفة قانعين بما أفاء الله عليهم من نعم، وما يبعثه لهم رسول الله ﷺ .. كانوا رجالا جادين.. غير كسالى ولا عابثين.. صبروا على حياة الكفاف.. وعندما أظهر الله الإسلام.. وأعز المسلمين سكن بعض أهل الصفة الأمصار، واتخذوا الدور، ولبسوا ثياب الزينة، وتولى بعضهم الإمارة.. وأصدق مثل على ذلك أبو هريرة عريف أهل الصفة فقد تولى الأمارة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكم بشرهم رسول الله ﷺ عندما قال: «فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم ولكن لعلكم تدركون زمانا تلبسون فيه مثل أستار الكعبة وتداح عليكم بالجنان» وقد كان وعاش من بقي منهم في رغد وجمع الله لهم بين خير الدنيا ونعيم الآخرة.. رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) رواه الإمام أحمد ٦٧

أشهر من نزل الصفة من الصحابة:

أشهر من نزل الصفة، مصعب بن عمير، والمقداد بن الأسود، وواثلة بن الأسقع وبلال بن رباح المؤذن، وأبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي، وأبو ذر الغفاري، وحذيفة بن اليمان، وصهيب بن سنان، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وعقبة ابن عامر، وعكاشة بن محصن، والعرباض بن سارية، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن أم مكتوم، وشداد بن أوس، وخنيس بن حذافة السهمي، والبراء بن مالك، وزيد بن الخطاب، وسفينة أبو عبد الرحمن مولى رسول الله ﷺ، وأبو مويهبة مولى رسول الله ﷺ، وجرهد بن خويلد وطخفة بن قيس الغفاري، وعتبة بن غزوان، وعثمان بن مظعون، وأبو كبشة مولى رسول الله ﷺ، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية، وأبو برزة الأسلمي، ونضلة بن عبيد، وخباب بن الأرت، وسلمان الفارسي، وصهيب بن سنان الرومي وغير هؤلاء كثيرون، رضي الله عنهم جميعا.

* * * *

أهل بدر [1]

كانت بدر أول معركة في الإسلام بين الإيمان والكفر، أعز الله بها جنده، وهزم بها عدوه، وقد أرى الله تعالى بها نبيه وأصحابه من آياته وتأييداته وعنايته ما جعلها أشهر معركة في تاريخ الإسلام، وسمى الله يومها يوم الفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل، وأظهرت لقريش أنهم مهزومون لا محالة، وأن كثرة عددهم وعددهم لن تغني عنهم من الله شيئا، وأن الله مع المؤمنين ولو كانوا قلة.

أسباب بدر:

خرج الصحابة مع النبي ﷺ في رمضان من السنة الثانية للهجرة حين ندبهم لاعتراض قافلة قريش العائدة من الشام بقيادة أبي سفيان، وذلك لأنه أراد أن يقتصَّ لما أصاب أموال المهاجرين في مكة من نهب وسلب، ولم يخرج لقتال، ولكن التجارة قد افلتت، وجاءت قريش بألف من أشد فرسانها وزعمائها، وأكابر مجرميها، بكل صلفها وغرورها.

خروج المسلمين إلى بدر:

وخرج النبي ﷺ بثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من الصحابة، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين، والباقون من الأوس والخزرج من الأنصار، جاؤوا بسلاح قليل، وظهر قليل، فكان الثلاثة أو الأربعة منهم يتعاقبون على بعير واحد، فلما كانت المعركة أبدوا من الضراعة والتذلل وصدق التوكل والصبر، ومن ضروب البطولة، وألوان التضحية ما أدهش العقول وحير الألباب، فاستحقوا بذلك نصر الله تعالى وتأييده ورضوانه، وعرفوا بالبدريين نسبة إلى اشتراكهم وقتالهم في بدر!!.

---

[1] الحديث عن بدر طويل جدا أفرد له كثير من الكتاب كتبا مستقلة، وقد اختصرنا الحديث عن بيان مقام أهل بدر وفضلهم، وما أكرمهم الله تعالى به من النصر والتأييد والمغفرة والرحمة، واكتفينا بذكر بعض المواقف الدالة على كمال إيمانهم وعظمة تضحياتهم، وكتب السيرة حافلة بالحديث عن بدر جملة وتفصيلا، ولنا عن بدر كتاب مستقل حافل كما تحدثنا عن بدر في كتابنا هكذا صام رسول الله ﷺ.

تأييدهم بالإمدادات الغيبية:

١- أيد الله تعالى أهل بدر بكثير من آياته فمن آيات الله وتأييداته أنهم رأوا قريشا قليلة بعددها وهم في الحقيقة كثيرون، وأرى الكفار المؤمنين قلة ليغريهم بالنصر فتقع الحرب لا محالة: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا... ﴾[1].

٢- ومن آياته وتأييداته أن المشركين رأوا المؤمنين ضعف ما كانوا عليه حين التقى الجمعان للحرب فألقى الله الرعب في قلوبهم، والوهن في عزائمهم: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2].

٣- ومن آياته وتأييداته أن المسلمين قد أصابهم التعب والنَّصَب والقلق على نتيجة المعركة وعلى مصير الدعوة فألقى الله تعالى عليهم لحظات من نعاس، فأذهب عنهم ما بهم من تعب وقلق فاستيقظوا وكأنهم ناموا ليلا طويلا.

٤- وكانت أرض المعركة ترابية لا تثبت تحت الأقدام، وأصابت بعضهم جنابة وليس لديهم ماء يتطهرون به، فخافوا أن يقاتلوا وهم على تلك الحال، فأنزل الله عليهم من السماء ماءً ثبَّت به الأرض تحت أقدامهم، وسال الوادي فتطهروا وارتاحت أنفسهم وقاتلوا وهم نشطون: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[3].

---

(١) الانفال ٤٤

(٢) آل عمران ١٣

(٣) الأنفال ١١

روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء، وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبَّد لهم الأرض.. وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه، أي إن الأرض كانت تنزلق تحت أقدام قريش وخيولهم وإبلهم لأنها أرض رخوة.

٥- وتضرَّع النبي ﷺ إلى ربه يسأله النصر والتأييد لأهل بدر على ما كانوا عليه من قلة العَدَد والعُدَد، وكان من تضرعه ودعائه قوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». وتضرع الصحابة يسألون الله العون والنصر والثبات، ويظهرون التذلل والتواضع فاستجاب لهم وأمدهم بأفضل ملائكته فنزلوا بلباس الحرب وآلته، وبشر النبي ﷺ أبا بكر بذلك فقال: أبشر أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه، يقوده على ثنايا النقع!!. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب!!. فارتفعت معنويات الصحابة، وقد ذكر الله ذلك بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (١).

وأوحى الله تعالى إلى الملائكة أن يثبِّتوا الذين آمنوا في المعركة فقاتل الصحابة قتالاً لا نظير له، وهبت عليهم روائح الجنة، فاستأسدوا في القتال، فلم يشعروا بخوف وذلك من تثبيت الملائكة، وإنزال السكينة!!.

٦- أخذ رسول الله ﷺ حفنة من تراب فرمى بها المشركين، وقال: «شاهت الوجوه»، فلم يبق أحد من المشركين إلا أصاب عينيه من ذلك التراب، فتألموا وتثبَّطوا عن القتال، وقد ذكر الله تعالى هذا بقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

---

(١) الأنفال ٩

(٢) الأنفال ١٧

٧- ظهر الشيطان للمشركين بصورة رجل فزيّن لهم القتال، ووعدهم بالنصر، فلما رأى نزول الملائكة ولّى هاربا: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

٨- وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين فأصبحوا يقاتلون خائرين مذعورين: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2].

هم أفضل المؤمنين:

أهل بدر عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ وعند أهل السنة والجماعة أفضل المؤمنين إلى يوم القيامة بعد الأنبياء والمرسلين، وظلت كلمة (بدري) تاجاً على رؤوسهم دون غيرهم، فعن معاذ بن رفاعة عن أبيه رفاعة ـ وكان رفاعة رضي الله عنه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المؤمنين» ـ أو كلمة نحوها ـ قال: (أي جبريل): وكذلك من شهد بدرا من الملائكة[3].

وقد شارك في هذه الغزوة العشرة المبشرون بالجنة إلا عثمان وطلحة وسعيد بن زيد رضي الله عنهم، فأما عثمان فإن زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، كانت مريضة، فقال له النبي ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه، وأما طلحة وسعيد فقد أرسلهما النبي ﷺ في مهمة لتحسس أخبار قافلة أبي سفيان، فلما مرت أسرعا عائدين إلى المدينة ليخبرا النبي ﷺ بالخبر، فلما علما بخروجه لحقا به فلقياه بتربان عائدا من بدر، فضرب لهما بسهمهما وأجرهما في بدر!!.

---

(١) الانفال ٤٨

(٢) الأنفال ١٢

(٣) رواه البخاري

شهداؤهم في أعلى الجنات:

ومما أكرم الله به أهل بدر أن شهداءهم أفضل الشهداء، فقد روى البخاري عن حميد أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع، فقال: «ويحكِ أَوَ هبلتِ، أَوَ جنة واحدة هي؟ إنما هي جنات كثيرة، وإنه في جنة الفردوس».. وفي رواية: «إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى!!».. قال ابن كثير: وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر، فإن هذا لم يكن في حومة الوغى، بل كان من النظارة (المراقبين من بعيد)، وإنما أصابه سهم غرب، وهو يشرب من الحوض، ومع هذا أصاب الفردوس الذي هو أعلى الجنات.. فما ظنك بمن كان واقفاً في نحر العدو، وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عَدَدا وعُدَدا؟!!.

ذنوبهم مغفورة:

أكرم الله تعالى أهل بدر بكرامة عظيمة، فجعل ذنوبهم مغفورة، ما تقدم منها وما تأخر، فقد روى البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ في قصة حاطب بن أبي بلتعة ـ وكان حاطب قد أرسل مع امرأة كتابا إلى قريش يعلمها بعزم النبي ﷺ على فتح مكة، فأوحى الله تعالى إلى نبيه بذلك، وأحضر الكتاب وأقرَّ حاطب بما فعل ـ فاستأذن عمر رضي الله عنه في قتل حاطب ورأى أنه نافق، ولكن رسول الله ﷺ قال لعمر: «وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1].. وفي رواية للبخاري: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة ـ أو: فقد غفرت لكم»[2]، فدمعت عينا عمر.. وفي رواية البخاري: فقد أوجبت لكم الجنة.. وروى مسلم عن جابر

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

رضي الله عنه أن عبدا لحاطب جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ليَدْخُلَنّ حاطب النار، فقال: «كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدرا والحديبية!!» .. وقد ذكر الحديبية لبيان زيادة الفضل، مع أن بدرا وحدها كافية لدخول الجنة، كما هو واضح من جملة الروايات!!. وفي هذا دليل واضح على أن ذنوبهم مغفورة من قبل أن تقع، ولو لم تكن كذلك لم يقل النبي ﷺ ما قال في أهل بدر، فانظر وتأمل !! وقصة حاطب معروفة.

ومن يدري، فلعل الله تعالى قد قضى بعلمه وحكمته على حاطب أن يفعل ما فعل ليكون ذلك درساً عظيماً يقول فيه رسول الله ﷺ ما قال إثباتاً لفضلهم، ودلالةً على مغفرة ذنوبهم، ورضوان الله تعالى عنهم، وأنه سبحانه لو علم أن في أهل بدر من لا يستحق رضوانه الأبدي ما رضي عنهم، ورفع أقدارهم إلى أعلى درجات المؤمنين، فسبحان من يعلم السر وأخفى، ويعلم المفسد من المصلح .

وإن من يقرأ أخبار هذه الغزوة في مقدماتها وأحداثها ونتائجها، وفيما أبداه الصحابة فيها من ضروب الشجاعة والاستبسال والتسابق إلى الموت، ومن يقرأ سورة الأنفال التي نزلت في أعقابها، ويستنطق دروسها وعبرها[١] فسيرى أن أهل بدر كانوا بحق خير أهل الأرض بعد النبيين، ولن يعجب بعد ذلك أن يكون الله تعالى قد اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم..».

تفضيلهم في العطاء:

جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عطاء البدريين من بيت المال في المقام الأول، ففرض لكل بدري خمسة آلاف درهم في السنة وفرض لنساء أهل بدر خمسمائة درهم، ولم يقدم على أهل بدر إلا العباس، لمقامه من رسول الله ﷺ، ففرض له خمسة وعشرين ألفا، وفرض لكل واحدة من أمهات المؤمنين عشرة آلاف درهم، وفرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف درهم، ولزوجاتهم أربعمائة، ولمن بعد الحديبية

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن الدروس المستفادة في بدر في كتاب (بدر الكبرى).

إلى ما بعد حروب الردة ثلاثة آلاف ولزوجاتهم ثلاثمائة.. وظل هذا العطاء دائما لكل هؤلاء في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي حتى توفي آخر واحد من هؤلاء الصحابة فرضي الله عنهم وأرضاهم.

صورتان متضادتان:

١- خطباء بدر

كان من عجائب أهل بدر ما يدهش الألباب، ويحير العقول، فقد خرجوا لاعتراض قافلة قريش بقيادة أبي سفيان، ولكن التجارة قد أفلتت، وجاءت قريش بصلفها وغرورها وعدوانها ووجد الصحابة أنفسهم أمام معركة لم يحسبوا حسابها، فلننظر كيف واجه النبي ﷺ وأصحابه هذا الموقف العصيب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي اختار أن يتحول الأمر من اعتراض للقافلة إلى قتال للمشركين، وحدد سبحانه وتعالى المكان والزمان والنتائج بسابق علمه وحكمته.

خطباء المهاجرين:

استشار النبي ﷺ أصحابه ليرى رأيهم، فأجمعوا على قبول التحدي وخوض الحرب، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، وتكلم عمر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلم المقداد فأحسن وكان مما قاله المقداد: «يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه»!!.

خطيا الأنصار:

ولكن النبي ﷺ كان يريد أن يسمع رأي الأنصار فهم أكثرية أهل بدر، وقد أعطوه عهودهم ومواثيقهم في العقبة أن يدافعوا عنه في ديارهم، فقال: أشيروا علي أيها الناس؟. فقال سعد بن معاذ وهو سيد الأنصار: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا

على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد.. وفي رواية عند مسلم عن أنس أن سعد بن عبادة وهو من سادة الأنصار أيضا ـ قال: والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها[1] البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها[2] إلى برك الغماد لفعلنا!!.

إن ما قاله هؤلاء السادة العظماء يفرض علينا التأمل والنظر العميق إلى ما وراء الكلمات، فإن كل واحد منهم لم يتكلم باسمه وحده، بل تكلم المقداد باسم المهاجرين فلم يستثن منهم أحداً، وتكلم السعدان باسم الأنصار، فلم يستثنيا منهم أحدا، بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل واحد من هؤلاء الخطباء كان يتكلم باسم المهاجرين والأنصار، وهذا يعني أنهم كانوا على قلب رجل واحد، وأنهم عازمون على خوض الحرب بلا تردد من أحد على الإطلاق، وأنهم واثقون بوعد الله ونصره!!.

إنه موقف عظيم، وتاريخ مشرق، ذهب مثلا عبر التاريخ، وصورة مشرفة لهذه الصفوة من الرجال المؤمنين بالله، والواثقين في نصره والمجاهدين في سبيله، وسوف يظل التاريخ يذكر كلمات سعد بن معاذ، وكلمات إخوانه المهاجرين والأنصار بمداد من نور، ولسوف تبعث هذه الكلمات بإذن الله في قلوب الأجيال أنوار الإيمان وقوة اليقين، بأن النصر آت لا ريب فيه، وما على المسلمين إلا أن يعودوا عودة صادقة إلى الله حتى يأتي نصر الله وأن الله سيجعل بعد عسر يسراً.

الثناء عليهم:

لهذا حفلت سورة الأنفال ـ التي هي سورة بدر ـ بالثناء الكبير على أهل بدر، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ

---

(١) أي نركب خيولنا وننزل بها إلى البحر.

(٢) أي أكباد الإبل، كناية عن السير البعيد، وبرك الغماد موضوع باليمن.

مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

وفي هذا من الثناء الجميل على أهل بدر خاصة، وعلى الصحابة عامة، ما لم يُثْنِ بمثله على أحد من العالمين، فقد شهد الله تعالى لهم بالإيمان، ﴿وأيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ وجعلهم سبحانه ستار قدرته، فأنزل على أيديهم بأسه، وجعلهم قوة عظيمة، وقلباً واحداً يبعثون الرعب في القلوب، وجعل بينهم من التآلف والتَّوادّ والتراحم والتناصر على الحق ما لا سبيل إلى مثله عند غيرهم، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد إلا الله، ولن تستطيع أموال الأرض كلها أن تفعل مثله. قال صاحب الكشاف رحمه الله: (التأليف بين قلوب من بُعِثَ إليهم رسولُ الله ﷺ من الآيات الباهرة، لأن العرب بما فيهم من الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة لا يأتلف منهم قلبان، ثم ائتلفت قلوبهم واتحدوا، وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم الله من ألفتهم، وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحاب والتواد، وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب).

فسبحان من كتب الإيمان في قلوبهم، وأظهر نصره وفضله على أيديهم، وأيد رسوله بهم، والشاهد على ذلك هو الله، وكفى بالله شهيدا!!.

وسبحان من وصفهم بهذه الصفات في التوارة والإنجيل وجعلها أبرز صفاتهم فقال: (أشداء على الكفار رحماء بينهم..)

مواقف أقرب إلى الخيال:

١ ـ عُمير بن الحُمام يلقي تمراته:

حرض النبي ﷺ المسلمين على القتال فقال: «والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فلما دنا المشركون قال: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فاستأسدوا في القتال، واستعجلوا

(١) الأنفال ٦٢-٦٣

الموت»، فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله!! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخٍ. بخٍ[1]، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول: بخ. بخ»، قال: يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[2]!!.

٢ ـ ما يُضحِكُ الرَّبَّ من عبده؟

وأراد عوف بن الحارث أن يعلم ما يرضي الله من عبده غاية الرضى فقال: يا رسول الله، ما يضحكُ الرَّبَّ من عبده؟ فقال: غمسه يده في العدو حاسراً، فنزع درعه وقاتل حتى قتل!!.

وهكذا ضرب عوف مثلا أعلى للفدائي الذي يخلع درعه طمعا في الشهادة، وفي ذلك مافيه من إثارة الحماسة، والحرص على الشهادة ورفع الروح المعنوية في نفوس المجاهدين، وقد أكرمه الله بالشهادة في أروع صورة من صور التضحية والفداء!! فلا نامت أعين الجبناء!!

٣ ـ أبو بكر يودُّ لو قتل ابنه:

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر يوم بدر يقاتل في صفوف المشركين، فكان يتفادى أباه، فلما أسلم حدث أباه بذلك، فقال أبو بكر رضي الله عنه لابنه: أما إنني لو برزت لي لقتلتك!! أو قال: أما والله لو لقيتك لقتلتك. فهل سمعت الدنيا بأعجب من هذا.

٤ ـ عمر يقتل خاله العاص بن هشام:

وقاتل سعيد بن العاص رضي الله عنه في سبيل الله بينما كان أبوه العاص بن سعيد ابن العاص يقاتل في سبيل الطاغوت ويصرع فيمن صرع، فلم يأسف إلا لأن أباه مات كافراً!!.

---

(١) لفظ يدل على الاستحسان والرضا والإعجاب بالشيء، ويسميه النحاة: اسم فعل مضارع بمعنى: استحسن.

(٢) رواه مسلم.

ومر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسعيد بن العاص فقال له: أراك تظن أني قتلت أباك، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكن قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور، وقصد له ابن عمه علي فقتله!!.

٥ . أبو عبيدة يقتل أباه:

ولقي أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أباه في بدر يقاتل مع المشركين فحاد عنه فلما رآه يتصدى له قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله عز وجل فيه وفي أمثاله:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ....﴾(١).

٦. أبو حذيفة يحزن أن أباه مات كافراً:

ورأى أبو حذيفة بن عتبة رضي الله عنه أباه عتبة صريعا يجر إلى القليب فيطرح فيه، وسمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا؟» فلما رأى رسول الله الكراهية في وجه أبي حذيفة قال: يا أبا حذيفة، كأنك كاره لما رأيت؟ فقال أبو حذيفة: يا رسول الله إن أبي كان رجلا سيدا، فرجوت أن يهديه ربه إلى الإسلام، فلما وقع الموقع الذي وقع أحزنني ذلك، فدعا رسول الله ﷺ لأبي حذيفة بخير!!.(٢)

إن من يقرأ مثل هذه المواقف ويتأمل هذه القصص يرى أنها أقرب إلى الخيال وأعجب من كل عجيب، فهل رأى التاريخ في عصوره كلها مثل صحابة رسول الله ﷺ في البذل والتضحية والفداء، وفي التجرد عن روابط الدم والعشيرة والأرض ابتغاء رضوان الله؟!!.إنه الإيمان الراسخ، والعزائم الصادقة والنفوس العالية، فقد كانوا رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

---

(١) المجادله ٢٢.

(٢) الصحابة ٢/٢٩٢.

أهل أُحد:

لقد كانت معركة أحد درسا مهمّاً للمسلمين ولم تكن هزيمة، تعلّمَ المسلمون فيها عاقبة مخالفة أمر النبي ﷺ حين أمر الرماة بلزوم أماكنهم، وأن لا ينزلوا عن الجبل حتى يأمرهم، فظنوا أن المعركة قد انتهت بنصر المؤمنين فنزلت منهم طائفة طمعاً بالغنائم.. فكان ذلك سبباً في تغيير سير المعركة لصالح قريش، وأصيب المسلمون فقتل منهم سبعون وفيهم سيد الشهداء حمزة.. وضعف بعضهم ففر من المعركة، وأصابت الجراح كثيراً منهم.. وكاد المشركون أن يصلوا إلى رسول الله ﷺ. وقد بدأت إرهاصات معركة أحد عندما عادت قريش من بدر تجر ذيول العار، وتتجرع مرارة الهزيمة، ويحرق أكبادها الحزن والأسى على سادتها وكبرائها ورجالها الذين فقدتهم بين قتيل وأسير، فلم يهدأ لها بال، ولم يرقأ لها دمع، واستقر رأي زعمائها على الانتقام، فرصدت أموال القافلة التي نجت بقيادة أبي سفيان لإعداد القوة التي تكفل لها النصر، ولم يمض على معركة بدر إلا سنة وقريب من شهر حتى كانت قد أعدت جيشا بلغ ثلاثة آلاف من خيرة رجالاتها وشبابها، ومن أحباشها وأحلافها.

الأخذ بالشّورى:

وجاءت الأخبار إلى النبي ﷺ بخروجهم، فلما علم بوصولهم، (وكان ذلك في شوال من السنة الثالثة للهجرة)، خطب الجمعة، ثم شاور أصحابه؟ فأشار أهل الرأي والعلم بالحرب بالتحصن في المدينة، واستدراجهم إليها، وكان رأي النبي ﷺ مع هؤلاء، ولكن الشباب والمتحمسين للقتال ممن لم يشهدوا بدرا أشاروا بالخروج إليهم، وكانت الأكثرية في جانب هؤلاء، فعزم ﷺ على الخروج، ودخل بيته فلبس سلاحه ثم خرج، وخشي الشباب أن يكونوا قد استكرهوه فقالوا: لعلّنا قد استكرهناك على الخروج، فإن شئت فاقعد، فقال: ماينبغي لنبي إذا لبس لأمته[1] أن يضعها حتى يقاتل، وأمر الصحابة بالاستعداد للخروج.

(١) درعه.

الخروج إلى أحد:

خرج رسول الله ﷺ يوم السبت بألف رجل، فلما كانوا في الطريق رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث مائة من المنافقين، وزعم أنه لن يقع قتال، وقال ساخطاً: أطاعهم وعصاني؟! فأنزل الله فيه وفي إخوانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾(١).

ولما وصل المسلمون إلى أحد عبأ النبي ﷺ الصحابة للقتال، وأخرج الغلمان من الصفوف لأنهم لا يستطيعون القتال، إلا سمرة بن جندب ورافع بن خديج فإنهما تظاهرا بالرجولة وأظهرا الحرص على القتال، والقدرة على الحرب، وشفع لهما بعض من كان حاضرا، فأذن لهما في قصة مشهورة تدعو إلى الدهشة والعجب!!.

التعبئة العسكرية:

بدأ النبي ﷺ يعبئ أصحابه للقتال، ويحدد لهم أماكنهم ومهماتهم، وجعل جبل أحد عن يمينه ومن خلفه، وجعل الجبيل الذي في سفح أحد عن يساره، وجعل عليه خمسين من الرماة، وجعل الأمير عليهم عبد الله بن جبير وقال للرماة: «الزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم..!!» وأوكل إلى الرماة مراقبة العدو، ورشقه بالنبل، ومنع خيَّالته أن تأتي من خلفهم أو عن شمائلهم، وكان لهذا الجبل موقع عسكري مهم في مجرى المعركة، وهو المعروف بجبل الرماة، ويقع عن الشمال من أرض المعركة، وأحد عن اليمين ومن خلف، ويشكل أحد حاجزاً طبيعياً لحماية ظهورهم وعن أيمانهم.

من يأخذ هذا السيف بحقه؟!!:

أراد النبي ﷺ أن يستثير في الصحابة حماسة الإيمان وحب الشهادة فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه أناس فلم يعطهم إياه، فقال أبو دجانة رضي الله عنه: وما

(١) آل عمران ١٦٧.

حقه يا رسول الله؟! قال: «أن تضرب به العدو حتى ينحني!!» فقال: أنا أخذه بحقه فأعطاه إياه.. وربط أبو دجانة عصابة حمراء على رأسه، كان يعرف بها كلما أراد القتال، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، ثم أخذ يتبختر بين الصفوف، فقال رسول الله ﷺ: إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن، وإنما تبختر إظهاراً لعزة الإسلام، وافتخاراً بالسيف الذي أخذه من النبي ﷺ، وعلى شرطه وإظهارا للقوة التي سيقاتل بها أعداء الله !!.

من يبارز ؟:

وعبأت قريش جيشها، وصاح حامل لواء المشركين طلحة العبدري: من يبارز؟ فبرز له الزبير بن العوَّام فوثب على جمله، ثم ألقاه على الأرض فذبحه، فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حواريا، وحواريي الزبير»، وخرج سباع بن عبد العزَّى يقول: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة، فشد عليه فقتله!! وقال علي رضي الله عنه: أنا أبو القصم.. فناداه سعد بن أبي طلحة - وكان أحد حملة لواء المشركين - فقال: هل لك يا أبا القصم في البراز من حاجة؟ قال نعم، وخرج إليه فتبارزا، فضربه علي فصرعه، ولم يجهز عليه، فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه اسستقبلني بعورته، فعطَّفتني عليه الرحم، وعرفت أن الله قد قتله !!.

بداية القتال:

وبدأت الحرب والتحم الجيشان، وأبلى المسلمون بلاءً عظيماً، واندفع أبو دجانة بسيف رسول الله ﷺ وهو يقول:

أنا الَّذي بايَعَني خَلِيــلِي ... وَنحْنُ عِنْدَ أَسْفَلِ النَّخِيلِ

أَنْ لا أقومَ الدَّهْرَ في الكَيول[1] ... أَضْرِب بسَيفِ الله والرَّسُولِ

---

(١) آخر الصفوف في الحرب

فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله، ثـم رأى إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا، فقصد إليه فولول فإذا هند بنت عتبة، فرجع عنها، فقال أكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة !!

قتال حمزة:

وقاتل حمزة قتالا لا نظير له، فكان كلما تقدم إليه مشرك أطاح برأسه، ورآه وحشي غلام جبير بن مطعم ـ وكان يقذف بالحربة على طريقة الحبشة ـ فاستتر عنه، فلما دنا منه أطلق فيه حربته، فوقعت تحت سرته وخرجت من بين رجليه، فأثبتته الجراحة حتى مات، وتضاعف القتال ساعة حتى قتل من حملة لواء المشركين سبعة، فلم يتقدم لحمله أحد، فحملته عمرة بنت علقمة الحارثية فاجتمعوا عليها، وصدق الله المسلمين وعده فأنزل عليهم نصره، وانطلق المسلمون يحسُّونهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر، وولت نساء المشركين يولولن، قال الزبير: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير، وولى المشركون هاربين.. ولكن.. !

نزول الرماة عن الجبل:

جاءت الفتنة التي انكشف بسببها المسلمون عندما أراد بعض الرماة النزول عن الجبل، خشية أن يفوتهم نصيبهم من الغنائم، وقد حذرهم أميرهم عبد الله بن جبير، وذكرهم أوامر الرسول ﷺ الصريحة، وقوله: لا تبرحوا أماكنكم.. فلم يسمعوا لقوله، وظنوا أن المعركة قد انتهت، والنصر قد تحقق، فنزلوا ليجمعوا الغنائم، إلا أمير الرماة، فقد أبى أن ينزل ولم يثبت معه إلا عشرة من الرماة وقد جرَّت هذه المخالفة على المسلمين بلايا عظيمة.

خالد يجمع فلول المشركين:

رأى خالد بن الوليد وكان في جيش المشركين نزول الرماة، ورأى بعبقريته الحربية أن المعركة لم تحسم بعد، فجمع فلول الخيالة المنهزمة، واستدار مبتعدا عن ميدان

المعركة، فصعد جبل الرماة، ببعض فرسانه، فقتل العشرة الذين ثبتوا، ثم اندفع بفرسانه ورجاله فأتى المسلمين من ظهورهم، وعادت فلول المشركين إلى أرض المعركة، فأصبح المسلمون بين نارين: من أمامهم ومن خلفهم، وهم سبعمائة، والمشركون ثلاثة آلاف، فتزلزلت الأقدام، واضطربت الصفوف من هول المفاجأة، وعاد الذين انصرفوا للغنائم إلى القتال، فلم تغن عنهم سيوفهم شيئًا، وتركهم الله تعالى لأنفسهم، وطاشت الأحلام، فلم يعودوا يميزون بين المسلم والكافر، فقُتل اليمان والد حذيفة خطأ وهم لا يعرفونه، بينما كان حذيفة يصيح: أبي، أبي، فاعتذروا إليه، فقال: يغفر الله لكم، وأبى حذيفة أن يأخذ دية أبيه، فتصدق بها على المسلمين !! وقَتَل ابن قمأة مصعبَ بن عمير، فظن أنه قتَل النبي ﷺ، فصاح: إن محمداً قد قتل!! فلما سمع بعض المسلمين ذلك ألقوا ما بأيديهم وقعدوا عن القتال من هول الصدمة، وأصاب الفزع بعض الصحابة فولّوا هاربين، وعظمت البليَّة على المسلمين.

أنس بن النضر يشم رائحة الجنة:

وكان أنس بن النضر قد غاب عن قتال بدر فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلتَ فيه المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين لَيَرينَّ الله ما أصنع، وصدق أنس، فقد قاتل في أحد قتال الأبطال، فلما وقع الابتلاء ورأى القاعدين عن القتال صاح بهم: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، فقال: وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله؟ قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه!! فقاموا.. ولقي أَنَس بن النَّضْر سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى نفسه في القتال فقاتل حتى استشهد، فوجدوا به بضعا وثمانين بين ضربة وطعنة ورمية، فلم يتعرف عليه إلا أخته عرفته ببنانه، قالوا: فأنزل الله فيه وفي أمثاله: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾.

الاستماتة في الدفاع عن النبي ﷺ:

وثبت النبي ﷺ، وثبت معه ثلاثون من كبار الصحابة الذين ثبتهم الله تعالى بإيمانهم، وفرَّ من فرَّ منهم بضعفهم، وبدأ المشركون يبحثون عن النبي ﷺ ليجهزوا

عليه، ورآه بعضهم مصعدا في الجبل، فاندفعوا نحوه، وأحاط به بضعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار يفدونه بأنفسهم، ويترسون عنه بظهورهم، وأخذ النبي ﷺ ينادي: إليّ عباد الله.. إليّ عباد الله !! وصار كل من يسمع نداء النبي ﷺ يسارع إليه، فاجتمع إليه فئة من الصحابة، ورأى كعب بن مالك رسول الله ﷺ فصاح: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله، فأشار إليه النبي ﷺ أن يصمت، لكي لا يعلم المشركون بسلامته.

أوجب طلحة:

صعد النبي ﷺ حتى صار إلى الصخرة فلم يستطع أن يعلوها من كثرة ما نزف من دمه الزكي، فجلس تحته طلحة فنهض به حتى استوى عليها، فقال النبي ﷺ: «أوجب طلحة»، وصعد خالد الجبل في جماعة، فلما رآهم النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لهم أن يعلونا»، فأرسل إليهم البطل عمر بن الخطاب في رهط من المهاجرين فقاتلوهم حتى أنزلوهم عن الجبل، وقُتِل من المسلمين سبعون شهيداً.

ثبات الصحابة يغير نتائج المعركة:

واستطاع الصحابة بتضحياتهم الجسيمة ان يصدوا جيش قريش، وقد كانوا أمامه كنقطة في بحر، ورغم ذلك فقد استطاعوا أن يحموا رسول الله ﷺ، ويُفشِلوا الهجوم المباغت الذي شنه المشركون عليهم حتى أوشكوا أن يحققوا ما أرادوا، وكان ذلك موقفا خالدا، ومثلا أعلى في التضحية والصبر والمصابرة لانظير له، وأسوة حسنة لكل من أراد أن يجاهد في سبيل الله حق الجهاد، ولقد حفَّهم الله تعالى بعنايته فأنزل عليهم السكينة، وغشاهم بالنعاس كما فعل في بدر، وكانوا في غاية التعب، فاستيقظوا نشيطين أقوياء، فقاتلوا قتالا مريراً حتى قذف الله الرعب في جيش قريش مرة أخرى فانسحبوا خائفين وقد خاطب الله تعالى الصحابة بقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾، وأمد الله تعالى رسوله ﷺ بملكين يقاتلان دونه، فقد روى الشيخان عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت

رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد.. وزاد مسلم: يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام.

ما أصاب النبي ﷺ من الأذى:

رمى عتبة بن أبي وقاص - أخو سعد - رسول الله فكسرت رباعيته السفلى وجرحت شفته الشريفة، وتمنى سعد أن يقتل أخاه عتبة فقال: ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة!! ووقع النبي ﷺ في حفرة حفرها أبو عامر الفاسق وغطاها، فأخذ علي بيده ورفعه طلحة حتى استوى قائما، وجاء أبي بن خلف يصيح: أين محمد لا نجوت إن نجا.. فقال النبي ﷺ: «دعوه»، فأخذ حربة، ثم استقبله بها فطعنه في عنقه فمات بسَرِف وهو عائد إلى مكة، وقال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله في سبيل الله!!» وهو المشرك الوحيد الذي قتله النبي ﷺ!!.

تضميد جراحه:

واستخرج أبو عبيدة حلقتي المغفر من وجه النبي ﷺ بفمه، فسقطت ثَنِيَّتُه، ثم سقطت ثنيته الأخرى في نزع الثانية، ومص مالك بن سنان الدم عن وجه رسول الله ثم ابتلعه تبركاً به، وضمدت فاطمَه بنت النبي ﷺ وزوجها علي جراحه، فلما رأت الدم لا ينقطع بالماء أحرقت قطعة من حصير، وألصقتها بالجرح فاستمسك الدم، وقال النبي ﷺ أثناء ذلك: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟!!».

دور مشرف لطلحة:

وكان من خبر طلحة رضي الله عنه أن النبي ﷺ حين رأى النفر الذين يقصدونه قال: « ألا رجل لهؤلاء؟» فسمع طلحة ذلك فقال: أنا.. ولكن النبي ﷺ كان يريد أن يدخره لنفسه فقال: «كما أنت يا طلحة»، فأسرع إليهم زياد بن السكن في نفر من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ، حتى قتلوا جميعا، ثم قاتلهم طلحة مثل قتال الذين قتلوا جميعا، وأصيب طلحة بيده فأصبحت شَلاَّء، وبقيت كذلك حتى

استشهد رضي الله عنه يوم الجمل!! وقد كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد يقول: ذاك يوم كله لطلحة!!

أبو طلحة وأبو دجانة:

وكان أبو طلحة الأنصاري رجلا رامياً، فكسر قوسين أو ثلاثة من شدة الرمي، وكان رسول الله ﷺ يقول لمن معه جعبة سهام: «انثرها لأبي طلحة».. وكان أبو طلحة يقول وهو يرى السهام توجه إلى النبي ﷺ: بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك...!!.

وكان أبو دجانة يقاتل بسيف رسول الله ﷺ، ويترس بنفسه فيحني ظهره عليه، والنبل يقع على ظهره حتى كثرت جراحه!!.

قتال نسيبة بنت كعب الأنصارية:

كانت السيدة نسيبة بنت كعب الأنصارية قد خرجت مع من خرج من النساء، يعددن الطعام، ويسقين المقاتلين، فلما رأت ما أصاب النبي ﷺ، قاتلت دونه بالسيف، ورمت عنه بالرمح، حتى أصابتها جراح كثيرة، ولما سمعت ابن قمأة يقول: دلوني على محمد، لانجوت إن نجا، اعترضت له مع مصعب بن عمير وأناسٍ ممن ثبتوا مع النبي ﷺ، فقتل ابن قمأة مصعبا، وأصابت نسيبةَ ضربة شديدة فأغمي عليها، فلما أفاقت قالت: أين رسول الله وما صنع المشركون معه؟ فقالوا: هو بخير، فكان النبي ﷺ كلما تذكر أحداً قال: ما التفت يوم أحد يمينا وشمالا إلا وأراها تقاتل دوني!!.

وللنساء دور في الحرب:

وكانت عائشة وأم أنس تحملان القرب (تفرغانها في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم)[1].

---

(١) رواه البخاري.

وكانت أم سليط تحمل الماء تسقي المسلمين يوم أحد، فلما كانت خلافة عمر، وجاءت الغنائم، قسم عمر مروطا، وبقي منها مرط[1] جيد فقال له بعض من عنده: أعط هذا أم كلثوم بنت علي التي عندك ـ وكانت زوجته ـ فقال: أم سليط أحق بهذا منها، إنها كانت تزفر[2] لنا القرب يوم أحد!!.

سيد الشهداء:

مثَّلت المشركات بالشهداء تمثيلا قبيحا، وكان من أشدهن هند بنت عتبة، فجدعن الأنوف والآذان، وبقرن البطون، وصنعت هند لنفسها من الآذان والأنوف خلاخل وأقراطا وقلائد، وهي التي مثلت بحمزة رضي الله عنه وبقرت بطنه ولاكت كبده!!.

واشتد حزن النبي ﷺ على الشهداء، ولما رأى ما بحمزة من التمثيل والتشويه قال: «لن أصاب بمثلك أبدا، وما وقفت قط موقفا أغيظ علي من هذا!!».

نساء صابرات:

١ ـ وأرادت صفية بنت عبد المطلب ـ رضي الله عنها ـ أن ترى أخاها حمزة حين بلغها أنه مُثِّل به، فقال النبي ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها»، فقال لها الزبير: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي.. فقالت: ولم؟ وقد بلغني أنه مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا ما كان من ذلك!! لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله، فقال النبي ﷺ حين بلغه قولها: «خلِّ سبيلها»، فلما رأت ما بأخيها استرجعت واستغفرت ودعت له!!.

٢ ـ ونعي إلى حَمْنَة بنت جَحْش أخوها عبد الله، وخالها حمزة، فاسترجعت واستغفرت، فلما نعي إليها زوجها مصعب بن عمير لم تملك نفسها فصاحت وولولت، فقال ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان!!».

٣ ـ وفقدت امرأة من بني دينار أخاها وأباها وزوجها، فلما نعوا إليها تصبرت على ما أصابها وقالت: ما فعل رسول الله؟ قالوا: هو بخير، هو بحمد الله كما تحبين، فلما

---

(١) كساء من صوف.

(٢) تحمل.

رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل!! (أي كل مصيبة تهون بعدك يارسول الله).

والد جابر!!:

وكان أمير الرماة على الجبل عبد الله بن جبير قد خلَّف ابنه جابرا على أخواته السبع، وقال له: ما كنت لأوثرك على نفسي في الخروج مع رسول الله ﷺ!! وإنما فعل ذلك رغبة في الشهادة فحقق الله رغبته!!.

كان من خبر جابر أنه وقف أمام جثة أبيه عبد الله - وهو أمير الرماة - فأخذ يكشف عن وجهه ويبكي، وصارت عمته تبكي، فقال رسول الله ﷺ: «تبكيه أو لا تبكيه، لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه» [(١)].

الأرض لا تأكل أجساد الشهداء:

وروى جابر قال: نظر إلي رسول الله ﷺ فقال: «ما لي أراك مهتما؟» فقلت: قتل أبي وترك دينا وعيالا، فقال: «ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً - يعني مواجهة - وقال له: يا عبدي سلني أعطك.. قال: أسألك أن تردني إلى الدنيا، فأقتل فيك ثانية، فقال الحق تبارك وتعالى: إنه سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: ربِّ فأبلغ من ورائي، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [(٢)].

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما حضَرت أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليَّ دَينا فاقْضِ، واستَوْصِ بأخواتك خيرا، فأصبحنا، فكان أول قتيل، ودفنت معه آخر في قبره، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع أخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته، غير أذنه، فجعلته في قبر على حدة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البيهقي

وأخرجه ابن سعد وفي روايته:... فاستخرجته من القبر فإذا الأرض لم تأكل منه شيئا، إلا قليلا من شحمة أذنه[1].

قال جابر: فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم، وما تغير من حاله قليل ولا كثير.. فوجدنا النمرة كما هي، والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك ست وأربعون سنة[2].

سعد بن الربيع !!:

وافتقد النبي ﷺ سعدَ بن الربيع فقال: مَن رجلٌ ينظر لي سعد بن الربيع، في الأحياء هو أم في الأموات؟ فذهب إليه رجل فوجده جريحا وبه رمق، فأخبره بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم إن خُلِص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، ثم مات، فأخبر الرجل - قيل هو زيد بن ثابت - النبي ﷺ بخبره.. فدعا النبي لسعد !!.

عمرو بن الجموح !!:

وكان عمرو بن الجموح رجلا أعرج، وكان شديد العرج، وكان له أربعة بنون قد تهيأوا للخروج إلى أحد، فأبى عمرو إلا أن يخرج، فقال أبناؤه له: قد عذرك الله، وسوف نكفيك القتال، فخاصمهم إلى النبي ﷺ فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك، فو الله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة.. فقال رسول الله ﷺ: أما أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك، وقال لأبنائه: ما عليكم أن لا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة، فخرج، فحقق الله رغبته، فرزقه الشهادة !!.

---

(١) اخرجه الحاكم ٢٠٣/٣، واخرجه ابن سعد ٥٦٣/٣، وابن كثير في البداية ٤٣/٤.

(٢) اخرجه ابن سعد ٥٦٢/٣.

غسيل الملائكة:

واستشهد حنظلة بن أبي عامر - وكان أبوه من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، وهو الفاسق الذي حفر الحفر قبل المعركة وغطاها، فوقع النبي ﷺ في إحداها - ورأى النبي ﷺ حنظلة تغسله الملائكة فقال: إن صاحبكم تغسله الملائكة، فاسألوا أهله، ما شأنه؟ فسألوا زوجته جميلة بنت عبد الله بن أبي سلول زعيم المنافقين، وكانت عروسا عليه تلك الليلة، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة، فقال النبي ﷺ: لذلك غسلته الملائكة!!.

فأكرم بهما من زوجين مسلمين، لأبوين كانا من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وللإسلام، فسبحان من يهدي لنوره من يشاء.

معجزتان عظيمتان:

كان عبد الله بن جحش قد انكسر سيفه فأعطاه النبي ﷺ عرجونا، فصار في يده سيفا فقاتل به في ذلك اليوم، ثم قاتل به في المشاهد كلها، فلما كانت خلافة أبي بكر قاتل به في حروب الردة حتى استشهد، ثم كان في تركته فبيع بمائتي دينار!!..

وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى سقطت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه!!.

دفن الشهداء:

دفن رسول الله ﷺ شهداء أحد - وكانوا سبعين في مقبرة الشهداء في أحد، وأمر من حملوا شهداءهم إلى المدينة أن يردوهم ليدفنوا حيث قتلوا، فكان يجعل الاثنين أو الثلاثة في قبر واحد لئلا يشق على أصحابه في حفر القبور لما كانوا عليه من التعب الشديد، وكان يسأل: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن» فيقدمه في اللَّحْد، أما عمه حمزة فدفن في المكان الذي قتل فيه مع ابن أخته عبد الله بن جحش، ولم يصلِّ على الشهداء ولم يغسلهم، بل دفنهم بثيابهم ودمائهم ليلقوا الله تعالى يوم القيامة بجراحهم ودمائهم ليجيئوا يوم القيامة كما أخبر ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده، لا يُكْلَم أحد في سبيل الله

إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم، اللون لون دم، والريح ريح مسك»[١].

وقال ﷺ وهو يدفنهم: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة!!.

وكان ﷺ كثيرا ما يخرج إلى أحد فيزور الشهداء ويقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ثم زارهم قبل أن يشتد به المرض الذي توفي به فاستغفر لهم، ودعا لهم، رضي الله عنهم أجمعين!!.

من دروس أحد:

١ - النصر والابتلاء:

بدأت أحد بإنجاز الله تعالى وعده للمسلمين، فقد انتصروا على قريش، ولم يزل المسلمون يقتلون المشركين حتى ألقى الله الرعب في قلوبهم فولوا هاربين، وشمرت نساؤهم هوارب، ولم يكن هذا النصر بكثرة عدد، فقد كان الواحد من المسلمين يقاتل أكثر من أربعة من قريش، فلما وقع الخطأ ونزل الرماة عن الجبل نزل بالمسلمين البلاء والتمحيص، وأصابهم القتل والجراح، وتعرض النبي ﷺ لما أصابه من الأخطار والجراح، ولولا استبسال الصحابة في الدفاع عنه، واستشهاد الذين ثبتوا منهم دونه، لخلص المشركون إليه، ولكن الله عز وجل قد ربط على قلوبهم فثبتهم، ولم تحقق قريش ما أرادت من قتله وقتل أصحابه، وفي بيان هذا النصر أنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢ - أسباب الابتلاء:

وقعت من بعض الصحابة أخطاء قلبت ميزان المعركة لصالح المشركين، وذلك بنزول بعض الرماة عن مواقعهم، وقد جر ذلك على المسلمين الاضطراب والخوف،

---

(١) متفق عليه.

فهرب بعضهم، وألقى بعضهم ما بأيديهم وقعدوا عن القتال حين سمعوا أن النبي قد قتل.. وكانت تلك المعاصي والمخالفات أمورا منهيا عنها بنصوص قرآنية صريحة في سورة الأنفال وفي غيرها مما نزل من القرآن، ولكن الصحابة كانوا بشراً غير معصومين عن المعصية والنسيان والخطأ، وكان في بعضهم ضعف فوقع منهم ما وقع، وأصاب الصحابةَ من الأذى ما أصاب، وقد كان ذلك تذكيرا بدرس قد وعوه في بدر، ونسوه في أحد، وهو قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1]، وقد عمت الفتنة والبلاء أهل أحد جميعا، حتى وصل إلى رسول الله ﷺ ما وصل من الأذى والجراح، واختار الله تعالى الشهداء إلى جواره وجناته وزُلزِل المسلمون زلزالا عظيما، وأصبحت أحد درسا ولم تكن هزيمة.

٣- الدرس العظيم:

أراد الله تعالى ببالغ حكمته أن يكون أهل أحد مثلا أعلى للمسلمين في معارك الجهاد، فضربوا أروع الأمثلة ثم ظهر في بعضهم الضعف والاختلاف والطمع بالدنيا، فأصابهم ابتلاء عظيم، ليتعلم المسلمون الصبر على الشدائد، وعدم الوقوع في اليأس، وأن نصر الله لا يكون إلا للمتقين الذين يمتثلون أمر الله وطاعة رسوله، وأن معصية الله ورسوله تجر عليهم الابتلاء والمصيبة والهزيمة، فما أعظمه من درس!!.

٤- حفظ الله لهم وعفوه عنهم:

كان أهل بدر حاضرين في أحد، وقد خرج الذين لم يشهدوا بدرا إلى أحد متحمسين للقتال، وأكثر ما ظهر الاختلاف والتنازع والخوف والفرار والمعصية في هؤلاء، فقد أوشك بعضهم أن يستجيب لدعوة عبد الله بن أبي ابن سلول بالرجوع معه، ولكن الله حفظهم وثبتهم، وقد أنزل الله عز وجل آيات كثيرة تبين الأخطاء، وتحذر من التنازع والاختلاف والفشل. ففي الذين هموا بالرجوع مع ابن سلول أنزل قوله

---

(١) الأنفال ٢٥

تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فلما نزلت الآية قالوا: ما يسرنا أننا لم نهم بالذي هممنا به وقد أخبرنا الله أنه ولينا!!.

وفي الذين خافوا شدة القتل، والذين خالفوا أمر الرسول بالنزول عن أماكنهم أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.. وقد بينت الآية في التعقيب الأخير أن الله عز وجل عفا عن أهل أحد، وشهد لهم بالإيمان الذي استحقوا به هذا الفضل العظيم والعفو الواسع، كما بينت الآية الكريمة أن الله تعالى قد صرف من انصرف عن القتال ليقع في المسلمين ما وقع من المحنة، وليبرز أولئك الرجال الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ليضربوا المثل الأعلى في التضحية والفداء والثبات والصدق في حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وليظهر ضعف أولئك الذين قعدوا والذين فروا، وقد كان ذلك درسا عظيما لهم، ودرسا خالدا لكل من مالت به نفسه إلى الدنيا، أو استزله الشيطان ببعض الذنوب، لئلا يقنط من رحمة الله، وليكون الضعف طريقا إلى القوة، والسقوط سبيلا إلى الارتفاع، وليكون للضعفاء الأسوة بالأقوياء، ليلحقوا بهم، ويصلوا إلى مستواهم، فما أعظمه من درس.

وهكذا كانت ميادين الجهاد ساحات تدريب على مجاهدة النفس، والكشف عن معادن الرجال، ومجالدة العدو، للارتفاع بهؤلاء الصحابة إلى أعلى درجات الإيمان لتكون فيهم الأسوة الحسنة لكل من جاء بعدهم من المؤمنين بالله واليوم الآخر!!.

٥- رحمته بهم:

اتبع الصحابة في أحد رضوان الله، فخرجوا للجهاد صادقين، فلما أصابهم من البلاء ما أصابهم ثبتوا على الحق فلم يرتد منهم أحد عن دينه، ولئن اعترى بعضهم ضعف فقد عفا الله عنهم، ورحم ضعفهم، ودعا رسوله ﷺ للعفو عنهم،

والاستغفار لهم والاستئناس بآرائهم ومشاورتهم في المهمات، وفي هذا غاية الرحمة بهم، والتنويه بفضلهم، وقد خاطبه بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

ثم تحنن الحق عليهم، وتلطف بهم، فذكرهم بفضله عليهم ببعث النبي ﷺ فيهم، وقيامه بتعليمهم وتربيتهم، وتزكيتهم فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. فأعظم بها من رحمة، وأعظم بها من منة.

٦- مؤاخذته لهم:

ثم واساهم في مصابهم، وبين لهم أن ذلك إنما وقع بسبب مخالفاتهم وأخطائهم، وذكرهم بنصره العظيم يوم بدر، حيث قتلوا من المشركين سبعين، وأسروا سبعين فقال في خطابهم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وفي هذا بيان على أن الله تعالى كان يعجل لهم العقوبة تربية لهم، ورفعة لدرجاتهم، وتعليما لمن يأتي بعدهم!!. وفي هذا غاية الوضوح بأن أكثر ما يصاب به المؤمنون من البلاء يكون عقوبة لهم، وبما عملته أيديهم!!.

٧- ابتلاء وتمحيص:

ثم بين لهم الحق سبحانه أن ما وقع كان بتقدير من الله وحكمة للابتلاء والتمحيص وليظهر علمه وحكمته في اختيارهم وأنهم خير القرون، وخير من يقوم بحمل الأمانة، وليكشف حقيقة المنافقين وما تكنُّه صدورهم، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

لقد كان من نتائج أحد العظيمة أن الله تعالى كشف القناع عن المنافقين، فأصبحوا

معروفين بأشخاصهم، وبما في صدورهم من العداوة والمكر بالمسلمين، وبتآمرهم مع اليهود الذين كانوا يحرضونهم على الإسلام ونبيه وأهله، والذين كانوا أصل كل فتنة وبلاء!!.

٨- ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا:

ومن جميل لطف الله بأهل أحد، ومواساته لهم أنه دعاهم إلى الصبر على ما أصابهم، وبين لهم أن انتصار الحق على الباطل سنة جارية وهي هلاك الأمم المكذبة بسبب كفرها وفسادها وظلمها، وأن حكمة الله تعالى تقتضي ابتلاء عباده بالسراء والضراء، وبالنصر والهزيمة، ليكرم من شاء بالشهادة، ويبتلي من شاء بالجراح والأذى، ليجزي هؤلاء وهؤلاء بالدرجات العلى من الجنة، وأن الأيام دول، ينتصر الباطل تارة، والحق تارة، ولكن الجولة النهائية دائما للحق وأهله، ولولا ذلك لتظاهر كل الناس بالإسلام، ولكثر النفاق كثرة تهدد المسلمين بأفدح الأخطار وأكبر الهزائم، ولولا ذلك لتهاون المسلمون في كثير من الواجبات، وتراخوا عند الشدائد اعتمادا على نصر الله، وهذا ما يتنافى مع السنن الكونية التي يخضع لها الناس جميعا سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فلنصغ إلى هذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن ذلك: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ...﴾ دليل على أن شهداء أحد من أفضل الشهداء، وأن الله تعالى قد اختار للشهادة في ذلك اليوم

الذين علم أنهم الأكثر صدقا وصبرا وإيمانا، فكانوا مثلا وأسوة لإخوانهم ولكل من يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة.

ومن الظن الجاهلي أن يظن من الآية الكريمة وما شابهها من الآيات أن الله تعالى لا يعلم ما يفعله العبد إلّا بعد وقوع الفعل، فهذا مناف لأصل التوحيد القائم على الاعتقاد بأن الله على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، فمن اعتقد أن الله لا يعلم ما يفعله العبد حتى يفعل فقد كفر.

٩- منازل الشهداء:

ثم بين سبحانه مصير أولئك الشهداء الذين أكرمهم الله بالشهادة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وأنه: جعل أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق.. فقال الله: أنا أبلغهم فأنزل الله هؤلاء الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة، وما تحدثه في النفس المؤمنة من الترغيب في الموت، والتهييج على القتال والصبر عند اللقاء، للفوز بالحياة الأبدية، والنعيم المقيم العاجل غير الآجل، يرى أن ما تفعله هذه الآيات في القلوب من التسابق إلى طلب الشهادة لا يستطيع أن يفعل معشار معشاره كل ما قيل من قصائد الشعر في باب الحماسة في كل اللغات، وعند كل الشعراء، ولا آلاف الخطب لأفذاذ الخطباء، ولا آلاف المقالات لكبار الأدباء والكتاب.. ولا كل ما سوف يقال في هذه الأبواب

---

(١) رواه أبو داود عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير لهذه الآية.

حتى يقوم الناس لرب العالمين!!. فتبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا!!.

١٠ - سيرهم إلى حَمْراء الأَسَد:

ثم بين الحق عز وجل فضل أهل أحد وصبرهم على ما أصابهم من الجراح والآلام، وأثنى عليهم في استجابتهم لدعوة النبي ﷺ حين دعاهم من الغد للسير إلى حمراء الأسد[1]، ومجالدة قريش التي همَّت بالرجوع إلى المدينة لتستأصل المسلمين، فقد خرجوا معه جميعا لم يتخلف منهم رجل. (ولم يأذن النبي ﷺ لأحد لم يكن في المعركة أن يسير معهم) حتى إن الذين أقعدتهم الجراح عن السير حملهم إخوانهم، وقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يرهب المشركين ليظنوا به قوة، فلما سمع أبو سفيان بخروجهم، وقيل له: إن محمداً خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم يُرَ مثله قط.. قذف الله في قلبه وقلوب المشركين الرعب فولّوا هاربين.. وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾.

وبهذا نرى أن غزوة أحد قد انتهت بهذه النتائج الباهرة والنصر المبين وفرار المشركين، وأن أهل أحد قد خرجوا من المعركة، بدروس عظيمة، فصحَّحوا نياتهم، وندموا على ما وقعوا فيه من أخطاء وذنوب، وما همّوا به من مخالفات، وقد علم الله تعالى ما في قلوبهم من صدق الإيمان والتوبة.. فقبل توبتهم، وعفا عنهم، وغفر لهم، ورضي عنهم، وزادهم إيمانا واستقامة وتوكلا عليه وثقة بنصره، وحباً لله ورسوله وللشهادة في سبيله، حتى أصبحوا في المنزلة الثانية بعد أهل بدر. ولسنا نقول هذا من عند أنفسنا، بل نقول ما قال الله تعالى في الذين فروا من المعركة فلم يعاقبهم الله، لما

(١) مكان على ثمانية أميال جنوب المدينة.

يعلمه من ضعفهم وصدق إيمانهم، بل عاملهم بعفوه ورحمته فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(1) وأودع في قلب نبيه الرحمة بهم وأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم في المهمات فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ..﴾(2) ولسنا نحن الذين نزكيهم على الله، بل الله سبحانه هو الذي أثنى عليهم وزكاهم، حين استجابوا لأمر النبي ﷺ بالسير إلى حمراء الأسد، فلم يتخلف منهم أحد، حتى حمل بعضهم بعضا من شدة الجراح والعجز، فزادهم ذلك إيمانا وتوكلا على الله، وفعلوا ما استحقوا به رضوان الله، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(3).

وبعد فإن هذا قليل من كثير يمكن أن يقال في غزوة أحد، وفي أهل أحد الذين أنزل الله تعالى فيهم بضعاً وخمسين آية تتلى إلى يوم القيامة وكفى بالله شهيدا.

* * * *

(1) آل عمران ١٥٥

(2) آل عمران ١٥٩

(3) آل عمران ١٧٢ - ١٧٤.

جهدهم في غزوة الأحزاب

بين أحد والأحزاب:

رجعت قريش من أحد خائبة فلم تحقق ماكانت تؤمله وترمي إليه، فأخذت تنتظر الفرصة، لتستأصل الإسلام والمسلمين، وتجرأت الأعراب بعد أحد على المسلمين، وقد رأينا كيف غدرت عضل والقارة يوم الرَّجِيع بستة من الصحابة الذين جاؤوهم ليعلموهم القرآن، وغدر عامر بن الطفيل يوم بئر مَعُونة بالقرّاء السبعين، ونقض يهود بني النَّضير عهدهم مع النبي ﷺ وهمّوا بقتله فقاتلهم وأجلاهم إلى خيبر، وأحجم أبو سفيان عن المجيء إلى بدر بعد أن جعلها ميعادا بينه وبين المسلمين يوم أحد، وذهب النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه إلى بدر وهم يقولون «حسبنا الله ونعم الوكيل». فانقلبوا بنعمة من الله وفضل.. وغزا النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه دَومة الجَندل في ربيع الأول سنة خمس.

اليهود يحزبون الأحزاب:

اشتدّ حقد يهود بني النضير على المسلمين بعد أن أجلاهم النبي ﷺ عن ديارهم إلى خيبر، فأرسلوا وفدا إلى قريش برئاسة حيي بن أخطب فيه سلام بن أبي الحقيق النضري، وأخوه كنانة بن أبي الحقيق، يدعوهم للقضاء على المسلمين، ووعدوهم بأنهم سيكونون معهم حتى يستأصلوهم، فأجابتهم قريش إلى ذلك، ثم طاف وفد يهود على غطفان وبني فزارة وبني أشجع وبني سليم وبني أسد فحزبوا الأحزاب ضد المسلمين، ثم مشى حيي بن أخطب سيد يهود بني النضير إلى كعب بن أسد سيد يهود بني قريظة، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فقال كعب: ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشؤوم، وإني عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً، قال: ويحك افتح لي أكلمك.. جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش على

قادتها وسادتها.. وغطفان على قادتها وسادتها، قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه، قال كعب: جئتني والله بذل الدهر، ويحك يا حيي، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل كعب بحيي حتى نقض عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، ومزقوا الصحيفة، إلا بني سعنة فإنهم خرجوا إلى رسول الله ﷺ!!. ووفوا بالعهد، وسارت قريش وأحلافها من الأحزاب بعشرة آلاف مقاتل تحت الرايات يريدون المدينة.

وتسربت في المدينة أنباء خيانة بني النضير وبني قريظة، فأرسل النبي ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وخوات بن جبير لمعرفة الحقيقة، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عَقْد، فلما علم رسول الله ﷺ بخيانتهم قال: «أبشروا بفتح الله ونصره».

الصحابة يحفرون الخندق:

علم النبي ﷺ بمسير الأحزاب إلى المدينة، فاستشار الصحابة كيف يواجهون هذه الزحوف الكثيرة، فأشاروا بالبقاء في المدينة والتحصن بها، وأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق على عادة الفرس في مثل هذه المواقف الحرجة، فأقر النبي ﷺ رأيه وأمر بحفر الخندق في شمال المدينة ليتحصن المسلمون خلفه، وترك سائر الجهات محصنة بالبيوت والنخيل وأسطح المنازل، وعمل النبي ﷺ وأصحابه بحفر الخندق وأوكل إلى كل عشرة أربعين ذراعا فنشطوا في العمل، وأنجزوه خلال ستة أيام، وهي مدة قياسية، وكان الصحابة ينشدون وهم يعملون:

نَحْنُ الَّذِينَ بايَعُوا مُحَمَّداً عَلَى الجِهادِ ما بَقِينَا أَبَداً

وعمل النبي ﷺ في حفر الخندق، وكان يحمل التراب حتى وارى جلدة بطنه، وكان ينشد أبيات عبد الله بن رواحة تشجيعا للصحابة وتذكيرا بما فيها من جميل الدعاء:

اللَّهمَّ لَوْلا أَنتَ مَا اهْتَدَينَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّينَا
فأَنزِلَنْ سَكِينةً عَلَينَا وثبِّتِ الأَقدامَ إنْ لَاقينَا
إنَّ الأُلَى قَدْ بَغُوا عَلَينَا وإنْ أرادُوا فِتنةً أَبيْنَا

وكان يمد في صوته بكلمة: أبينا.

خبر الصخرة والنور:

وعرضت للصحابة صخرة صلدة لم يقدروا على كسرها فأخبره بها سلمان، فجاء فأخذ المعول فضربها ضربة فصدعها، وخرج منها نور أضاء المدينة فكبر رسول الله وكبر المسلمون، وضربها الثانية فأضاءت، ثم الثالثة فأضاءت، وتفتت الصخرة فقال ﷺ: «لقد أضاء لي في الأولى قصور الحِيْرَة، ومدائن كِسْرَى، فأخبرني جبريلُ أن أمّتي ظاهرة عليها، ومن الثانية القصور الحُمر من أرض الرُّوم، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ومن الثالثة قصور صَنْعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا». فلما فتح المسلمون تلك البلاد قال أبو هريرة: افتتحوا ما بدا لكم، فو الذي نفس أبي هريرة بيده ما اقتحمتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله محمدا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك!!.

الصحابة يرابطون خلف الخندق:

لم ينتظر النبي ﷺ وصول الأحزاب، بل خرج في أصحابه من المدينة بثلاثة آلاف، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة، ولواء الأنصار سعد بن عبادة، وأمر الذَّراري والنساء أن يتحصنوا بالحصون، وجعل الخندق بينه وبين المشركين، وجعل ظهر الجيش إلى جبل سَلْع، ثم أرسل مَسْلَمة بن أسلم في مائتين، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة النساء والذراري من غدر اليهود المتوقع!!.

وجاءت قريش ومن معها من الأحزاب فوجدوا المسلمين قد تحصنوا وراء

الخندق فأذهلتهم المفاجأة، فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى بدأوا يرمون المسلمين بالنبل، وركب الغرور رؤوس بعض فرسانهم، فاقتحم فارس العرب عمرو بن ود الخندق بفرسه ومعه فرسان من قريش على خيولهم، فخرج إليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فدعا عمروا إلى المبارزة فقال عمرو هازئا: لم يا ابن أخي؟ فو الله ما أحب أن أقتلك! فقال علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فنزل عمرو عن فرسه فعقره.. ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا، فقتل علي عمروا، فولت خيول الباقين منهزمة، واقتحمت الخندق هاربة!!.

وأرسل أبو سفيان يعرض على المسلمين في استرداد جثة عمرو مائة من الإبل، فرفض النبي ﷺ ذلك وقال: «خذوه فإنه خبيث، خبيث الدية، ونحن لا نأكل ثمن الموتى!!»

وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرسه يريد أن يجتاز الخندق فهوى هو والفرس فصرعا.. ورمي سعد بن معاذ بسهم أصاب أكحله فقطعه، فتوفي فيما بعد على أثره، واستمرت المناوشة يوما كاملا، وجعل النبي ﷺ على الخندق حراسا يحرسونه بالليل، وقام هو حارساً في برد شديد وقد دام حصار الأحزاب للمدينة بضعة عشر يوما، وفي بعض الروايات أكثر من خمسة وعشرين.

والله لا نعطيهم إلا السيف:

أراد النبي ﷺ أن يفرق بين الأحزاب، فأرسل إلى عُيينة بن حِصْن، والحارث بن عوف - وهما زعيما غطفان - فعرض عليهما أن يرجعا بمن معهما على أن يأخذا ثلث ثمار المدينة، فقبلا، فلما استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة - وهما سيدا الأنصار - قالا: يا رسول الله؛ أمرا نحبه فنصنعه؟ أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئا تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكَالَبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمد ما.. فقال سعد بن معاذ: يارسول الله، قد كنا وهؤلاء القوم على

الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟!! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.. فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك!!».

خَذِّل فإن الحرب خُدعة:

جاء نعيم بن مسعود الأشْجَعِيّ مع غَطَفَان في جيوش الأحزاب، ولكن الله أراد له الخير فهداه إلى الإسلام فأتى رسول الله ﷺ فأسلم، ثم قال: يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي فمُرْني بأمرك؟ فقال له النبي ﷺ: «أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خُدعة!!».

نعيم بن مسعود يؤلّب بين الأحزاب:

وأدرك نعيم أهمية المهمة ففكر مليّاً، ثم لاحت له خطة ذكية فعزم على إنفاذها، فذهب إلى يهود بني قُريظة فقال: إنكم تعرفون ودّي لكم، وخوفي عليكم، وإني محدثكم حديثا فاكتموه عني قالوا: لست عندنا بمتّهم!! فقال: لقد رأيتم ما وقع ببني قينقاع وبني النضير، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم - يريد النبي ﷺ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهنا من أشرافهم، يكونون بأيديكم، ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم.. فصدَّقوه فقالوا: أشرت بالرأي!!.

ثم ذهب إلى قريش فقال لأبي سفيان ومن معه: لقد عرفتم ودّي لكم، وفراقي محمداً، وإني قد رأيت أمراً، قد رأيت علي حقّاً أن أبلغكموه نُصحاً لكم، فاكتموا عني.. قالوا: نفعل.. قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا، وقد أرسلوا إلى محمد: أنّا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون

معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعَثَتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا!!، فصدقوه وأصبحوا حذرين من يهود !!.

ثم خرج إلى قومه غطفان فقال لهم: أنتم أهلي وعشيرتي ولا أراكم تتهموني؟ قالوا: صدقت.. قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فقال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم من تسليم رهائن من رجالهم إلى يهود!!.

نجاح الخطة وانهيار التحالف:

وأرادت قريش وغطفان أن تعرف حقيقة ما بلغها عن يهود فأرسلت إليهم نفرا من رجالهم فقالوا: يا معشر يهود إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا، فأجابوهم: إن اليوم يوم سبت وإنا لا نعمل فيه شيئا، ولسنا بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا به،!! فلما رجعوا إلى قومهم بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق !!.

وأرسلت قريش وغطفان إلى بني قريظة: إنا والله لاندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقال بنو قريظة عند ذلك: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، وأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا، فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم، وانهار بذلك تحالف الأحزاب، وأصبح كل فريق خائفا يطلب السلامة لنفسه والنجاة لقبيلته!!.

أيام عصيبة ولكن....:

كان الحصار شديدا على الأحزاب، فقد اشتدت وطأة البرد جدا، وكان المطر ينزل متقطعا غزيرا مصحوبا بالريح فيزيد الطين بلة، والحياة صعوبة، وأصابهم خوف شديد، وأظهر المنافقون نفاقهم، وسلقوا المسلمين بألسنة حداد، وقال بعضهم

لبعض: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب لقضاء حاجته!!.

وكانت أيام الحصار شديدة على الصحابة، وأصابهم خوف شديد، فالمدينة مهددة بعشرة آلاف من الأحزاب، وبنو قريظة قد نقضوا عهودهم، وأظهروا عداوتهم، ورغم ذلك فإن الصحابة ثبتوا على الحق، ولم يزدهم الابتلاء والشدة إلا إيمانا وثقة بوعد الله ونصره، وكان رسول الله ﷺ يطمئنهم ويلتجئ إلى الله تعالى بالدعاء، وكان من دعائه: «اللهم مُنْزِل الكتابِ، سريعَ الحسابِ، اهْزِمِ الأحزابَ، اللَّهم اهْزِمْهُم وزَلْزِلْهم، اللَّهم اهْزِمْهم وانْصُرنا عليهم»[1].

وقد أثنى الله عليهم بكمال إيمانهم، وصدق توكلهم، وطمأنينة قلوبهم بوعده ونصره فقال عز وجل: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[2]، كان شعار الصحابة: ﴿حم.. لا ينصرون﴾ وكانوا يحرسون الخندق، ويرمون الأحزاب، ويراقبون تحركاتهم، ويتناوبون الحراسة في الليالي الباردة، يكثرون من الدعاء وطلب النصر من الله، فقد سأل أبو سعيد الخدري: يا رسول الله هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم: «اللَّهم اسْتُرْ عَورَاتِنا وآمِنْ رَوْعَاتِنا.

الصحابة يزلزلون زلزالا شديدا:

كان الصحابة رضي الله عنهم بشرا ينتابهم كل ما ينتاب البشر من مشاعر الحب والبغض والحزن والفرح، والهم والغم والخوف والأمن، وكان فيهم الأقوياء في إيمانهم الذين لم يزدهم الابتلاء إلا إيمانا وتسليما، وفيهم من هم دون ذلك، فأصابهم الخوف والفزع، وانتابتهم الظنون الكثيرة، وزلزلوا زلزالا شديدا، ولكنهم رغم ذلك ثبتوا على الحق، وعزموا على الدفاع عن مدينتهم مهما بلغت التضحيات، وقد حسن

---

(١) متفق عليه.

(٢) الأحزاب /٢٢

ظنهم بالله، وأنه سينصرهم ويدافع عنهم، ويهزم أعداءهم، وظل الحال على ذلك ليالي وأياما حتى أتاهم نصر الله بالريح بعد طول صبر، وطول جهاد، وكان اليوم الأخير من أيام الحصار أشد هذه الأيام حتى إنهم لم يستطيعوا أداء الصلاة فيه حتى غربت الشمس، فقد روى جابر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، وجعل يسب كفار قريش فقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبي ﷺ: «والله ما صلّيتها»، فنزلنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.. [1] ثم قال: شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى، (صلاة العصر)، ملأ الله أجوافهم نارا.. وفي رواية للبزار أنه قال: ما على وجه الأرض قوم يذكرون الله في هذه الساعة غيركم.

وهزم الأحزاب وحده:

أتم الله تعالى نعمته على النبي ﷺ وعلى أصحابه جزاء إيمانهم وصبرهم واعتصامهم به، واستجاب دعاءهم وضراعتهم، ورضي عنهم، فأرسل على الأحزاب ريحا شديدة عاصفة وليلة باردة، وجنوداً لم يروها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ.. ﴾

وروى مسلم عن حذيفة قال: لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر [2]، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟!» فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، -ثم قالها ثالثة فلم يجبه أحد- (وذلك من شدة الخوف والبرد) فقال: «قم يا حذيفة فاتنا بخبر القوم»، قال حذيفة: فلم أجد بُدّاً، إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: اذهب فأتني بخبر القوم -ولا تذعرهم

---

(١) رواه البخاري.

(٢) برد شديد.

علي[1]. وعند ابن إسحاق: فقال: ولا تحدثنَّ شيئا حتى تأتينا. قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قِدْرا، و لا نارا، ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان. وأسقط في يد قريش وغطفان والأحزاب، وبلغت القلوب منهم الحناجر، ونادى أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جَمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، قال حذيفة: فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ أن لا تحدثن شيئا حتى تأتيني ثم شئت لقتلته بسهم!!.

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، وهو قائم يصلي في مرط[2] لبعض نسائه.. فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخلني إلى رجليه، وطرح علي طرف المرط ـ من شدة البرد ـ ثم ركع وسجد، وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر.

قال معاذ: وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.. وقال كل سيد قوم لقومه: يا بني فلان النجاء النجاء.. ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح، وكفى الله المؤمنين القتال!!.

السَّير إلى بني قريظة:

فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها سرج عليه قطيفة من ديباج فقال: أَوَقَدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم.

---

(١) لا تتحرش بهم لئلا يثوروا علينا.

(٢) كساء من صوف.

قال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم!!.

فأمر الرسول ﷺ منادياً أن ينادي في الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلّينّ العصر إلا في بني قريظة!!.

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعا في زقاق بني غَنْمْ، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة..

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك تتابع الصحابة سراعاً إلى بني قريظة، وحاصرهم النبي ﷺ خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار، فلما طال ذلك على المسلمين صاح علي: يا كتيبة الإيمان، ثم تقدم هو والزبير بن العوام، وقال: والله لأذوقنَّ ما ذاق حمزة، أو لأفتحنَّ حصنهم، فألقى الله الرعب في قلوب بني قريظة، فاستسلموا ونزلوا على حكم النبي ﷺ.

حكم سعد في بني قريظة!!

طمعت بنو قريظة بشفاعة الأوس لها عند النبي ﷺ، وأراد الأوس أن يتخذوا لهم عند بني قريظة معروفا فينقذوهم من القتل، كما أنقذ عبد الله بن أُبي ابن سلول - وهو من الخزرج - بني قينقاع حين حاصرهم النبي ﷺ ونزلوا على حكمه، فجاء الأوس فكلموا النبي ﷺ في بني قريظة، فقال لهم النبي ﷺ: «ألا ترون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟» ففرحوا وقالوا: بلى.. قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ!!».

سعد يحكم بقتلهم:

وكان سعد مريضاً من جرحه الذي أصيب به يوم الأحزاب، وقد جعله النبي ﷺ يُمرَّض في خيمة أمّ رُفَيدة في مسجده - وكانت امرأة قد وهبت نفسها لمداواة الجرحى، وخدمة من لا أهل له من المسلمين - فلما حكّمه النبي ﷺ في بني قريظة، جاءه قومه فحملوه على حمار قد جعلوا عليه وسادة من أدم، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون له: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ

إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم!! فعلمت الأوس أن سعدا سيحكم بقتلهم، فلما وصل قال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم!!» فقاموا إليه فقالوا: يا أباعمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لَما حكمتُ؟ قالوا: نعم، ثم أشار إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، ولم ينظر إليه حياء، فقال: وعلى من ههنا؟ فقال النبي ﷺ : نعم. فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال، وتُقسّم الأموال، وتُسْبى الذّراري والنّساء. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة!!».

سعد يسأل الله الشهادة:

وكان سعد قد أصيب في غزوة الأحزاب في أكحله، فدعا الله فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسول الله ﷺ وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له، حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها ـ يعني جرحه ـ واجعل موتي فيها، فلما عاد إلى الخيمة التي كان يُمَرَّض فيها في المسجد انفجرت من لبته، فلم يَرُعْهم إلا الدّم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم، فإذا سعد يغدو جرحه دما، فمات منها رضي الله عنه.(١)

حديث القرآن عن غزوة الأحزاب وبني قريظة!!:

١ - أحوال المؤمنين:

أنزل الله تعالى في شأن هذه الغزوة تسع عشرة آية في سورة الأحزاب، تحدثت عشر منها عن أحوال المؤمنين ونصر الله تعالى لهم بالريح والملائكة، وعن صبرهم وتصديقهم بوعد الله ورسوله، وعن زيادة إيمانهم، وصدق وعدهم، ورد كيد

---

(١) متفق عليه.

عـدوهم قـال الله تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾.

فقد أخبرت الآية الأولى بمقدار النعمة العظيمة في هزيمة الأحزاب بما أرسله الله تعالى عليهم من الريح والملائكة، وأنه تعالى كان مطّلعا على ما في قلوب الصحابة، وما أصابهم من الفزع والخوف، وقد وصفت أم سلمة رضي الله عنها شدة ما أصاب المسلمين يوم الأحزاب فقالت: شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف، المريسيع وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح وحنين، لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة[(١)]، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري، فالمدينة تحرس حتى الصباح، نسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفا، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا.

ثم أخبر تعالى في الآية الثانية عن كثرة الأحزاب، وإحاطتهم بالمدينة من جهة المشرق وهم غطفان وهوازن وبنو قريظة.. ومن جهة المغرب وهم قريش ومن معهم من الحلفاء والأحابيش، حتى زاغت أبصار كثير من الصحابة من شدة الخوف.

وأخبر في الآية الثالثة أن الله تعالى قد أراد أن يختبر الصحابة بهذا الابتلاء الشديد، ليظهر أقوياء الإيمان من الضعفاء، ولتكون المحنة اختبارا لهم، وتدريبا على مواجهة الأزمات الصعبة. وليعلم المؤمنون أن الله تعالى يختبرهم بالبأساء والضراء، ليزدادوا قوة في إيمانهم، وصلابة في دينهم، تصديقا لقوله: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾[(٢)].

---

(١) المكان الضيق الكثير الشجر.

(٢) البقرة /٢١٤

٢- أحوال المنافقين:

ثم وصفت الآيات أحوال المنافقين[(١)] الذين تظاهروا أنهم مع المؤمنين، فلما رأوا جيوش الأحزاب امتلأت قلوبهم رعبا وكشفوا خبايا نفوسهم، وأطلقوا ألسنتهم بالسوء، وأظهروا السخرية بالمؤمنين، والتشكك في وعد الله بنصره.

٣- الصحابة يزدادون إيمانا وتسليما:

ثم عادت الآيات الكريمة لبيان حال النبي ﷺ، وأحوال الصحابة في ثقتهم بالله وصدق وعده وقرب نصره، قال تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ فهم لم يضعفوا ولم يحزنوا رغم ما كانوا عليه من الخطر الشديد بل ازداد إيمانهم ويقينهم بنصر الله. ثم شهد سبحانه بشجاعة الصحابة وصدقهم فيما عاهدوا عليه الله من بيع النفس في سبيله، سواء منهم من مات ومن استشهد، كما شهد لسائر الصحابة أنهم صادقون في جهادهم، فقال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[(٢)].

٤- وكفى الله المؤمنين القتال:

ثم بينت الآيات الثلاث الأخيرة ما انتهت إليه غزوة الأحزاب من خذلان المشركين ويأسهم من تحقيق ما أرادوه بالمسلمين، ورجوعهم عن المدينة خائبين مغتاظين، بينما فرج الله تعالى عن المؤمنين، ودفع عنهم كيد عدوهم بالريح الشديدة، فلم يحوجهم إلى قتال كما وقع في بدر وأحد، ثم بين الله تعالى ما صنعه سبحانه ببني قريظة من قذف الرعب في قلوبهم، ومحاصرة المسلمين لديارهم حتى نزلوا على حكم الله، وفي ذلك أنزل الله قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ

---

(١) انظر الآيات ١٢-٢٠ من سورة الأحزاب.

(٢) الأحزاب ٢٣.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ[1] وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[2]

المعجزات التي حدثت:

أكرم الله تعالى الصحابة في هذه الغزوة بكثير من المعجزات، التي أجراها على يد النبي ﷺ، ليزدادوا إيمانا وأمنا وثقة بنصر الله تعالى وتأييده.. نذكر منها ما يلي:-

١- الصخرة التي عجزت عنها معاول الصحابة فلم تتكسر، فلما ضربها رسول الله ﷺ تصدعت وأصبحت جُذاذاً في ثلاث ضربات.

٢- النور الذي سطع عند كل ضربة من هذه الضربات حتى ملأ أركان المدينة، وإخبار النبي ﷺ بأن جبريل أخبره بعد الضربة الأولى أن أمته ستفتح بلاد الفرس، وبعد الثانية الروم، وبعد الثالثة اليمن، وإخبار النبي ﷺ الصحابة وهم في أشد الخوف والجوع بأن الله سيهلك كسرى وقيصر، وان أموالهما وكنوزهما ستنفق في سبيل الله، وقد حقق الله ذلك كله في عصر الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

٣- تكثير طعام جابر بن عبد الله رضي الله عنه الذي صنعه للنبي صلى الله عليه وسلم حين رأى بطنه الشريف معصوبا بحجر، فذهب إلى زوجته وسألها ما عندها، فقالت: عندي صاع شعير وعناق[3]، فذبح جابر العناق، وطحن الشعير، وجعل ذلك في القدر، ثم جاء فقال: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكر له، فقال صلى الله عليه وسلم: كثير طيب،.. ثم قال للصحابة: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار ومن معهم، وقال

---

(١) وهم بنو قريظة

(٢) الأحزاب ٢٥ - ٢٧.

(٣) الأنثى الصغيرة من المعز.

لجابر: لا تنزع البرمة - القدر - ولا الخبز من التنور حتى آتي».. فلما وصل جعل النبي ﷺ يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر القدر والتنور - يغطيها - إذا أخذ منهما، ويقرب إلى أصحابه، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف من القدر حتى شبعوا، وبقي بقية، ثم قال لزوجة جابر: كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة!!.

٤- أخبر النبي ﷺ الصحابة بأن قريشاً لن تعود إلى حرب المسلمين بعد هزيمة الأحزاب، وقال: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»، وقد حقق الله ذلك، فخرج النبي ﷺ مع ألف وخمسمائة من الصحابة لأداء العمرة سنة ست فكانت بيعة الرضوان وصلح الحديبية، ثم ساروا إلى مكة سنة سبع لأداء عمرة القضاء التي منعوا من أدائها، ثم جاء النبي ﷺ بعشرة آلاف من الصحابة فكان فتح مكة في رمضان سنة ثمان، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

٥- الريح الباردة الشديدة التي أرسلها الله تعالى على الأحزاب، فاقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وأجفلت دوابهم، وقذفت الرعب في قلوبهم، والتراب في عيونهم، حتى نادى أبو سفيان بالرحيل، وقد أرسل الله ذلك استجابة لدعاء النبي ﷺ وقوله: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب...، اللهم اهزمهم وزلزلهم..» كما سلط الله تعالى الملائكة الذين كانوا يقذفون الرعب في قلوب الكافرين، ويزلزلون أقدامهم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ... ﴾.. وأخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها، قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل فقال: يا محمد، قد وضعت السلاح، والله ماوضعناه فاخرج إليهم، فقال النبي: فالى أين؟ قال: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم.. وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال:

كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غَنْم، موكبَ جبريلَ حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة.

هكذا انتهت غزوة الأحزاب بخذلان قريش ومن جاء معها من القبائل، فلم تغن عنهم كثرتهم شيئا، ورجعوا يائسين صاغرين خائفين، ورد الله كيد بني النضير الذين حزّبوا الأحزاب، وبني قريظة الذين خانوا العهود، وقذف في قلوبهم الرعب، ونزلوا على حكم سعد بن معاذ الذى حكم فيهم بحكم الله، وأنزل الله تعالى فيهم قرآنا يتلى إلى يوم القيامة فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وصدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده.

* * * *

أهل بيعة الرضوان

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ .. ﴾

قريش تمنع المسلمين من العمرة:

رأى رسول الله ﷺ في المنام أنه قد دخل المسجد الحرام مع أصحابه معتمرين، فدعا الناس إلى العمرة، وأرسل إلى الأعراب أن يسيروا معه، فأسرع الصحابة إلى ذلك وتثاقل الأعراب، وخرج في رمضان سنة ست في قريب من ألف وخمس مائة لا يريدون إلا العمرة وزيارة البيت والطواف به، وأحرم الجميع بالعمرة من ذي الحليفة، وأهدى رسول الله ﷺ سبعين بدنة ساقها أمامه وقلَّدها وأشعرها[1] فلما علمت قريش بذلك عاهدت الله لا يدخلون عليها أبدا، وتجهز خالد بن الوليد في رجال من قريش وخرج ليصدَّ المسلمين عن المسجد الحرام، فلما وصل المسلمون إلى عُسفان وعلموا بخروج خالد، أراد النبي ﷺ أن يتفادى القتال تعظيماً للحرم مااستطاع إلى ذلك سبيلا. وغير الطريق، فسلك بهم الدليل طريقاً وعرةً شاقة، فلما اجتازوها وأجهدهم الطريق قال: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوها، فقال: والله إنها للحِطَّةُ، التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وقال البخاري: «فبدلوا فدخلوا يزحفون على أسقامهم - في سخرية - وقالوا: حبّة في شعرة»[2].

---

(١) أحدث في أسنمتها جروحا يسيرة لتعرف أنها ستنحر في الحرم تعظيما للبيت، وقلدها: وضع في رقابها قلائد علامة على ذلك (على عادة العرب).

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ .. ﴾ ومعنى (حِطَّةٌ): قولوا يا رب حط عنا ذنوبنا وأغفر لنا، ولكن بني إسرائيل أبوا ذلك وسخروا منه.

حابس الفيل:

خرج المسلمون بعد ذلك إلى ثنية المرار قرب الحديبية، فبركت ناقة النبي ﷺ، فقال الناس: خَلَأَت - حرنت - القصواء!! فقال: «ما خلأت القصواء، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها».

ونزل المسلمون على بئر فيه ماء قليل فنزفوه، فأخبروا النبي ﷺ بذلك فأعطاهم سهما فغرسوه في البئر فجاش الماء فشربوا وسقوا.. حتى صار ملتقى الواردين، وضرب الناس حوله بعطن [١] حتى فارقوه.

المفاوضات:

أحست قريش بالخطر فأرسلت رسلها واحدا بعد آخر كل يقول: لن تدخلوها وإنا مقاتلوكم وصادوكم عن البيت، فلما بعثت الحليس بن علقمة، ورأى المسلمين لا يريدون إلا العمرة غضب وقال: أيُصدُّ عن بيت الله من جاء معظما له!! ثم أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي فأظهر الصحابة أمام عروة بن مسعود من الحب لرسول الله ﷺ ما أدهشه حتى رجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش؛ إني جئت كسرى وقيصر والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في أصحابه، فوالله ما تنخم نخامه إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له!!.. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.. فأبوا.. فأرسل رسول الله ﷺ إليهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ليقنع قريشا بأنهم لا يريدون إلا العمرة، والطواف وتعظيم البيت الحرام، فأبت قريش أن تأذن بدخولهم وعرضت على عثمان أن يطوف بالبيت، فقال: ما كنت لأطوف حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

---

(١) صار مكاناً يستقى منه، وتبرك الإبل حوله.

بيعة الرضوان:

ثم بلغ المسلمين أن عثمان قد قتل، فدعا رسول الله ﷺ الصحابة إلى البيعة على أن لا يبرحوا حتى يناجزوا القوم، واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم لطلب النبي ﷺ فبايعوه تحت شجرة هناك، فلم يتخلف منهم رجل واحد، إلا الجد بن قيس فإنه كان منافقا، قال جابر: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، يستتر بها من الناس!! وكان أبو سنان بن محصن الأسدي - أخو عكاشة - أول من بايع، فلما بايع الصحابة واحدا بعد الآخر ضرب رسول الله ﷺ إحدى يديه على الأخرى فقال.. هذه عن عثمان، فكانت يد رسول الله ﷺ خيرا لعثمان من يده !! ثم عاد عثمان رضي الله عنه سالماً، وتبين أن ما أشيع عن قتله غير صحيح.

إبرام الصلح:

لم تصح قريش من سكرتها، وأبت حمية الجاهلية عليها أن تأذن للمسلمين بدخول المسجد الحرام، فأرسلت سهيل بن عمرو على أن يصالح محمدا ﷺ، ولايكون في صلحه إلا أن يرجع عن مكة عامه ذاك، لئلا تتحدث العرب أن محمدا قد دخل عليهم مكة عنوة!!.

وافق النبي ﷺ على أن يرجع بأصحابه من غير عمرة، حقناً للدماء على أن يعتمروا في العام القادم، وعلى أن تضع الحرب أوزارها عشر سنين، ومن أتى محمدا بغير إذن وليه رده إليهم، ومن جاء قريشا من المسلمين فلا يردوه، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه.. وبينما هم كذلك: إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال أبوه سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي!!، وصاح أبو جندل بأعلى صوته فقال: يا معشر المسلمين، أأُرد إلى المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان بادياً عليه أنه قد عذب عذاباً شديداً في الله[1].

---

(١) رواه البخاري.

لقد تركت كلمات أبي جندل، وما كان باديا عليه من مظاهر التعذيب في نفوس الصحابة آثاراً عميقة من الحزن والكآبة وقال بعضهم: سبحان الله، كيف نردُّ إليهم من جاء مسلماً، ولا يردُّون إلينا من جاء مرتدّاً؟!!

لكن النبي المسَّدد المؤيد بوحي الله لم ير في محنة أبي جندل ما رآه الصحابة، بل كان منشرح الصدر إلى نتائج هذا الصلح، فقال: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا أعطينا القوم عهودا، وإنا لا نغدر بهم!!».

ثم كشف للصحابة ما كان خافياً عنهم فقال: «إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجا ومخرجا!!».

ولكن أبصار الصحابة كانت مشدودة إلى بنود الصلح وسوء حال أبي جندل، فلم يفارقهم الشعور بالظلم والإجحاف، وودوا لو أن النبي ﷺ لم يرض بهذه الشروط!!

وكان عمر بن الخطاب أشد المعارضين لما كان عليه من صلابة في الدين، وشدة في الحق، فأتى النبي ﷺ فقال: ألست نبي الله حقا؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى قال: فلم نعطى الدنية في ديننا إذاً؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري.. قال عمر: أوليس كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟» قال: لا.. قال: «فإنك آتيه ومَطُوفٌ به!!».

وظل عمر ببشريته وطبيعته غير راضٍ بهذا الصُلح، فذهب إلى أبي بكر الصديق، وسأله الأسئلة التي سألها من قبلُ رسول الله ﷺ، لم يغير منها حرفاً، فأجابه أبو بكر بأجوبة النبي ﷺ وكأنه كان حاضراً، فلم يغير منها حرفاً، إلا ما يقتضيه أسلوب الخطاب واختلاف الشخصية، ثم قال لعمر: أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربّه، وهو ناصره، فاستمسكْ بغَرْزه، فوالله إنه على الحق!! ورغم هذا وذاك فقد ظل عمر رضي الله عنه غير مقتنع بهذا الصُّلح. فلما رجع المسلمون من الحديبية

ونزلت سورة الفتح في الطريق، ندم عمر رضي الله عنه وأحسَّ أنه وقع في خطأ كبير، وخشي على نفسه عاقبة ذلك، فلم يدع عملاً من أعمال الخير إلا فعله، حتى ظنَّ أن الله قد غفر له!!، قال رضي الله عنه: فعملت لذلك أعمالاً[1] وفي رواية أنه قال: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأُعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً[2]!!.

التحلُّل من العمرة:

تم التوقيع على الصُّلح، وعزم النبي ﷺ على التحلُّل من العمرة، والرجوع إلى المدينة، فقال لأهل بيعة الرضوان: «قوموا انحروا، ثم احلقوا»، وكرّر الأمر ثلاثاً، فلم ينحرْ منهم أحد!!، فدخل النبي ﷺ على زوجه أم سلمة رضي الله عنها، وأخبرها بما وجد من الناس، وكانت عاقلة حازمة، فقالت: يا نبيّ الله، اخرج، ثم لا تُكلِّم منهم أحداً كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك!! ففعل، فلما رأى الصحابة ذلك، تواثبوا ينحرون ويحلق بعضهم بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً!!.

كانت نتائج صُلح الحديبية عظيمة البركة والخير على المسلمين، ولكنهم لم يعرفوها إلا بعد حين، فلننظر أهم هذه النتائج:

١ - الفتح المبين:

عاد أهل بيعة الرضوان من الحديبية يخالطهم الحزن والكآبة، وعاد النبي ﷺ مطمئناً راضياً بما أمره الله به من الصُّلح... وبينما هم راجعون يسيرون ليلاً، سأل عمر النبي ﷺ عن شيءٍ فلم يُجِبْهُ ثلاثاً، فخشي عمر أن ينزل فيه قرآن، فحرَّكَ بَعيره حتى تقدم المسلمين، فلم يمضِ إلا يسيراً حتى سمع صارخاً يصرخ به، قال: فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل فيَّ قرآن، وجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا

---

(١) رواه البخاري عن معمر عن الزهري.

(٢) رواه ابن إسحاق عن الزهري.

لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال عمر: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم. وفي رواية عن أنس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ..﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فقال: «لقد أنزلت علي آية هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً»[1].

٢- أبو بَصِير وأبو جَنْدل:

رجع رسول الله ﷺ ومعه أهل بيعة الرضوان إلى المدينة راجين بشارة الفتح التى نزلت، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاء أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلت قريش في طلبه رجلين، فدفعه النبي ﷺ إليهما، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: إني أرى سيفك هذا جيداً.. فقال: أجل.. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأعطاه إياه، فضربه أبو بصير حتى قتله، وفرَّ الآخر راجعاً إلى المدنية، فدخل المسجد مذعوراً وقال للنبي ﷺ: قتل صاحبك صاحبي، وإني لمقتول!! ولم يلبث أن جاء أبو بصير فقال: قد أنجاني الله منهما، فقال النبي ﷺ: «ويلَ أُمِّه مُسْعِرُ حرب لو كان له أحد» - كأنه يغريه بالهرب - فعرف أبو بصير أنه سيردُّه إليهم، فخرج هارباً حتى أتى سيف البحر، فلما علم أبو جندل بمكان أبي بصير لحق به، ثم لم يبقَ في قريش أحد مسلم إلا لحق بأبي بصير وأبي جندل، حتى اجتمعت منهم عصابة، فما خرجت لقريش عِيرٌ إلى الشام أو عادت إلا اعترضوها، فقتلوا الرجال وأخذوا الأموال، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تُناشده بالله وبالرَّحِم أن يقبلهم ولا يردَّهم!! وتنازلت عن شرطها في هذا الأمر، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم، فجاؤوا إلى المدينة وعاشوا بين إخوانهم آمنين!!. وجعل الله لأبي جندل ولإخوانه المستضعفين فرجاً ومخرجاً، كما أخبر رسول الله ﷺ أبا جندل، وصدق الله فيما أنزل فكان الصُّلح فتحاً مبيناً ونصراً عزيزاً، لم تُرَقْ فيه قطرة من دم!!.

٣- البشارة بالجنَّة:

نزلت سورة الفتح والمسلمون عائدون من الحديبية إلى المدينة، وفي هذه السورة

---

(١) رواه البخاري.

الكريمة من الثناء على أهل بيعة الرضوان خصوصاً، وعلى الصحابة عموماً ما لا يخفى على أحد، فقد روى الطبراني عن أنس بن مالك أنه عندما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، قد بيّن الله لنا ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل هذه الآية بعدها: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. كان ذلك مكافأةً كافأهم الله بها على ذلك فأنزل في قلوبهم السكينة والوقار، وزادهم إيماناً، وبشّرهم بدخول جنّاته خالدين فيها، وبمغفرة سيئاتهم، وبأنهم قد فازوا بهذه البيعة فوزاً عظيماً!!. فيالها من بُشرى، وهنيئاً لكم يا أهل بيعة الرضوان رضوان الله!!.

٤ - يد الله فوق أيديهم:

ومن آيات سورة الفتح التي تحدثت عن بيعة الرضوان قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيّه ﷺ .. وقيل في تفسيرها ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حاضرٌ معهم، يسمع أقوالهم، ويرى أماكنهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فالله هو المبايع في الحقيقة بواسطة رسوله ﷺ.

٥ - هم خير أهل الأرض:

لقد صاروا بفضل الله وتوفيقه خير أهل الأرض، وحرّمهم على النار، فقد أخرج الشيخان عن جابر أن النبي ﷺ قال لأهل بيعة الرضوان: «أنتم خير أهل الأرض» قال جابر: كنا ألفاً وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة. وأخرج

---

(١) الفتح: ١٠

الإمام مسلم عن أم بشْر أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».. وروى مسلم أيضا عن جابر قال: إن عبداً لحاطب بن أبي بَلْتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلنَّ حاطبٌ النار، فقال رسول الله ﷺ: «لا يدخلها، فإنه شهد بدراً والحديبية».

أما قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ..﴾ فإنه لا يعني أن في أهل بيعة الرضوان من ينكث ببيعته، بل المقصود ـ والله أعلم ـ تعليم الصحابة والمسلمين ـ إلى يوم القيامة ـ أن كل من بايع النبي ﷺ، وكل من بايع إماماً مسلماً فإن الله تعالى سائله عمّا بايع عليه.

٦- رضوانه عنهم:

ومما بشّر الله تعالى به أهل الحديبية قوله: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

فانظر كيف أخبر الله تعالى أهل بيعة الشجرة برضوانه عنهم، ووعده إياهم بالجزاء العظيم في الآخرة، والفتح القريب العاجل، والغنائم الكثيرة في الدنيا، وقد جاء هذا الإخبار مسبوقاً باللّام الموطّئة للقسم، وهذا يعني أن الله تعالى أقسم لأهل بيعة الرضوان أنه قد رضي عنهم بما بايعوا عليه رسوله ﷺ، ولعلمه ـ سبحانه ـ أنهم صادقون عازمون على الوفاء بعهدهم على الجهاد والاستشهاد، وإيثار الآخرة على الأولى، وأنهم ثابتون على ذلك، لا يُغيّرون ولا يبدلون، ثم وعدهم الله تعالى بفتح جديد، فكان فتح خيبر بعد أقل من شهرين!!.

٧- وُعودٌ أخرى:

ثم بيّن الله تعالى لهم أنه لو وقع بينهم وبين قريش قتال لهزم الله قريشاً، لأن ذلك حُكْم جار، وسنّة أكيدة لا تتبدّل، فقال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا

---

(١) الفتح: ١٨ -١٩

فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1].

ثم بيّن الحقُّ ـ سبحانه ـ أن ماجرى في صُلح الحديبية كان لمصلحة كل من الجانبين وحقناً لدمائهم، وأن الصحابة لو حاربوا أهل مكة لانتصروا عليهم.. ولكنه أجرى الصُّلح ليفتح أمام أهل مكة أبواب الإسلام، التي سيدخلونها أفواجا، ليقاتلوا في سبيل الله، بعد أن قاتلوا في سبيل الطاغوت، وقد أنجز الله لهم ذلك بعد عامين، حين فتح النبي ﷺ مكة بجيشٍ قَوامُه عشرة آلاف صحابي، فدخل أهل مكة ومن حولها في دين الله أفواجاً!!.

ثم أخبر الحقُّ ـ سبحانه ـ أنه اختار لنبيّه الصُّلح لئلاّ يدخل الصحابة مكة حرباً فتسفك فيها الدماء، وخشية على المسلمين المستضعفين من الرجال والنساء، الذين يُخشى عليهم أن يصيبهم المسلمون بقتلٍ وهم لا يشعرون فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

٨- وألزمهم كلمة التقوى:

ثم ذكّر الله تعالى الصحابة بما فعله سهيل بن عمرو من حَميَّة الجاهلية حين أبى أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، وأن محمداً رسول الله، وحين أبت قريش على المسلمين أن يدخلوا مكة معتمرين، لئلاّ يقال إنهم دخلوها عُنوة، وأنه ـ سبحانه ـ أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، وألزمهم كلمة التقوى، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ

---

(١) الفتح /٢٠-٢٣

(٢) الفتح /٢٥

ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [1].

٩- تصديق الرؤيا:

ثم بيّن الله تعالى للصحابة أن ما رآه النبي في المنام حق، وأنهم سوف يدخلون مكة معتمرين آمنين، وأن صُلح الحديبية كان فتحاً مبيناً، وسوف يتبعه فتح قريب، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [2] يقول الزُّهْريّ: فما فتح في الإسلام قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهُدْنة، ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

١٠- ليُظهره على الدين كله:

ثم بشّر الله الصحابة بالانتصارات الباهرة على الكافرين في الجزيرة العربية وفي بلاد فارس والروم، وأن هذا الدين مُنتصرٌ على كل الأديان السابقة كلها دون استثناء، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [3].

١١- والذين معه:

ثم أثنى الله تعالى على الصحابة بأخصّ خصائصهم، وهو ما سبق أن ذكرناه [4] في الحديث عن قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ

---

(١) الفتح /٢٦

(٢) الفتح /٢٧

(٣) الفتح /٢٨

(٤) أنظر ماكتبناه في فصل «الصحابة كما تحدث عنهم القرآن، تحت عنوان مثلهم في التوراة والإنجيل».

تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ [١]

وصدق الله، وصدق رسوله، وكذب المفترون على الصحابة، مهما زعموا من أباطيل، وزوّروه من أقاويل، والله يشهد إنهم لكاذبون!!. وأن قرن الصحابة خير القرون، وأنهم خير خلق الله أجمعين، فيا سعادة من أَحبَّهم، ويا شقاوة من أبغضهم أو سبَّهم أو ظنَّ بهم سُوءاً، فإن هؤلاء يُكذِّبون الله تعالى فيما أنزل من تعديلهم والشهادة لهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس، ويتّهمون الله تعالى بأنه لا يعلم ما يقع بينهم، وما أدّت بهم اجتهاداتهم من اختلاف!!

* * * *

---

(١) الفتح /٢٩

فقد جاء الفتح

لم يمضِ على صُلح الحديبية سنتان حتى نقضت قريش عهدها، وأعانت بني بكر على بني خُزاعة، فقتلوا منهم عشرين في ليل وهم لا يشعرون!.. فلما أخبر عمرو بن سالم الخُزاعي النبي ﷺ بما صنعت قريش وبكر قال: «نُصرتَ يا عمرو بن سالم».. ثم تجهَّز النبي ﷺ للخروج، وخرج من المدينة في رمضان في المهاجرين والأنصار فكانوا كلما مرُّوا بقبيلة انضمّ إليهم المسلمون، فلما وصل المسلمون مرَّ الظَّهران وكان عدد جيش الفتح قد بلغ عشرة آلاف من الصحابة، يريدون فتح مكة وهم على أحسن مايكون من الإعداد والاستعداد لفتح مكة.

إسلام أبي سفيان وإكرامه:

ذُعرت قريش حين علمت بسير النبي ﷺ، وأيقنت أنها هي المقصودة من ذلك المسير، وأدركت خطأها في نقض عهد الحديبية، فخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من مكة يستطلعون الأخبار فرأوا جيوش المسلمين تملأ الأرض، قال أبو سفيان لبديل بن ورقاء: ما رأيت كالليلة نيرانا قطّ ولا عسكراً!!.

وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج إلى المدينة مهاجراً بعياله، فلقي النبي ﷺ في بعض الطريق قريباً من مكة، فرجع مع جيش الفتح، وخشي أن يدخل النبي ﷺ مكة حرباً، وأن يقع قتال، فركب بغلة النبي ﷺ، وذهب يستطلع، لعله يرى أحداً من قريش فيرسله إليها، لعلها تفتح مكة سلماً، فلما سمع قول أبي سفيان لبديل بن ورقاء ناداه فقال: يا أبا حنظلة.. قال أبو سفيان: مالك فداك أبي وأمي؟ قال: ويحك هذا رسول الله في الناس.. قال أبو سفيان: وما الحيلة؟. قال: والله لئن ظفر بك رسول الله ﷺ ليضربنَّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله

ﷺ فأستأمنه لك، فركب أبو سفيان خلفه، فكان المسلمون إذا رأوا العباس راكباً بغلة رسول الله ﷺ قالوا: عمّ النبي ﷺ على بغلته وكان أكثرهم لا يعرف أبا سفيان.

فلما رأى عمر أبا سفيان أسرع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني فلأضرب عنقه!! ولكن نبيّ الرحمة كان يرى غير هذا فلم يُجبه، فلما وصل العباس بأبي سفيان وخشي عليه بأس عمر قال: يا رسول الله قد أجرته، وقال لعمر مغاضباً: مهلاً يا عمر، فو الله لو كان من رجال عدي بن كعب - عشيرة عمر - ما قلت هذا!! ولكنك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف!!.

فقال عمر: مهلاً يا عباس، فو الله لإسلامُك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطّاب لو أسلم!! وإنما قال عمر ذلك لقرابة العباس من رسول الله ﷺ، وحبّه لآل بيته!!.

وهدأت ثورة الرجلين، وزال الخصام، وحلّ التفاهم والوئام بقول عمر، وسُرَّ رسول الله ﷺ بما رأى وسمع، فلم يُعقّب عليه بشيء، بل التفت لما هو أهم فقد أينعت الثمرة، فها هوذا زعيم مكة بين يديه خائفاً مستسلماً فقال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟. قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد!!.

قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟.

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فوالله فإن في النفس منها حتى الآن شيء!! فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك !!.

ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يُمْهل أبا سفيان، ويُتيح له فرصة للتفكير والتقدير، لأنه لا إكراه في الدين، فأمر عمه العباس أن يذهب بأبي سفيان إلى رَحْلِه، وأن يأتيه به من الصباح، فلما أصبح غدا به العباس إلى النبي ﷺ فأسلم وشهد شهادة الحق!!.

استعراض القوة أمام أبي سفيان:

ثم أمر النبي ﷺ عمّه العباس أن يقف بأبي سفيان حتى تمرَّ به كتائب الصحابة فيراها، فمرَّت كتائب غِفار وجُهينة ومُزينة وسُليم وأسلم... حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، ومعه المهاجرون والأنصار، وهم يلبسون الدروع، فلا يرى منهم إلا عيونهم تبرق، فقال أبو سفيان: سبحان الله يا عباس؛ من هؤلاء؟!

قال: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار!!

قال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة!! والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً!! فصحّح العباس ظنّ أبي سفيان فقال: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: نعم!!.

كل ذلك ورسول الله ﷺ حريص على أن يدخل مكة سلماً دون قتال، ولقد أعجبه إسلام زعيم قريش، وصاحب الكلمة فيها، فأراد أن يجعل له شيئاً من الفخر، فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، فطار أبو سفيان فرحاً، وأسرع إلى مكة فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا: وما تُغني دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن!! فتفرق الناس إلى دورهم والى المسجد!!».

الفتح النبوي والصفح الجميل:

دخلت جيوش الفتح مكة من أقطارها، وأمر النبي ﷺ قواد الألوية أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، فلم يقع إلا قتال يسير، ودخل النبي ﷺ على راحلته، وإنه ليضع رأسه تواضعا لله على ما أكرمه به من الفتح، وخرج أهل مكة إلى جبل أبي قُبيس، ينظرون الجيوش المظفرة تهز الأرض هزا، وهم في ذهول، لا يكادون يصدقون ما يرون، فلما دخل النبي ﷺ المسجد بدأ بالأصنام فحطمها بقضيب كان يشير به إليها، فما أشار لصنم على ظهره إلا وقع على وجهه، وما أشار لصنم على وجهه إلا وقع

على ظهره، مع أن هذه الأصنام كانت مثبتة إلى الأرض بالحديد والرصاص المذاب!!. وكان يقرأ في أثناء ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١).

ثم طاف النبي ﷺ بالبيت سبعا على راحلته، يستلم الركن بعصاه، ثم دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فوجدت فيها الصور والأصنام فأمر النبي ﷺ فأخرجت وحُطِّمت، وأمر بلالا الحبشي أن يصعد فوق الكعبة فأذّن، فارتفع الأذان في المسجد الحرام لأول مرة في التاريخ، بصوت العبد المهاجر الذي كان يصبر على العذاب الشديد، ويتحدى طواغيت قريش وهو يقول أحد أحد!!.

وقفت قريش على جبل أبي قبيس تسمع وترى ما لم يكن يخطر لها على بال، فهذه الأصنام تهوي ذليلة، فلا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، وهذا صوت بلال يعلن كلمة التوحيد وهي في ذهول، وهذه كتائب الصحابة تدخل مكة فاتحة منتصرة، وتطوف بالبيت خاشعة راضية، فلا تسفك في مكة دماء، ولا يقع فيها ثأر ولا انتقام!!.

لقد صحت قريش من سكرتها، وأيقنت أنها أمام الحقيقة التي طالما بذلت المهج والأموال لئلا تراها، وأيقنت أنها مغلوبة لا محالة، فطمعَتْ أن تنال من محمد وأصحابه عفوا، فنزلت عن الجبال المحيطة بالوادي، وخرجت من بيوتها في يأس صامت، وطرف خاشع حسير، فلم تعد المكابرة تغنيها شيئا، ولم يبق أمامها إلا الإذعان والاستسلام!! فدخلت المسجد ترقب عن قرب، وتنتظر ما سيقول ابنها الأمين في صمت وخوف!!..

ووقف النبي ﷺ على باب الكعبة فحمد الله حمدا كثيرا، وأثنى عليه ثناء جميلا ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء!!».

أصحيح ما يسمعون؟ أم هم في نوم يحلمون؟ لقد نظر بعضهم إلى بعض وقد زال عنهم يأس قاتل وكرب عظيم!! فقد نالوا من العفو ما لم يكونوا يأملون!!.

---

(١) الإسراء ٨١.

الانقلاب العجيب:

١ - إسلام أبي سفيان وبعض من أخباره:

أسلم أبو سفيان يوم الفتح على ما رأينا، وسار مع المسلمين مع من سار من أهل مكة إلى حُنين يرجو الغنائم، فلما ولى المسلمون الأدبار في حنين قال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، فلما فرغ المسلمون من حنين وحاصروا الطائف، أصيبت عينه في حصار ثقيف، فلما أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم، أعطى أبا سفيان مائة بعير، وأربعين أوقية من الذهب، فلما رأى ذلك وقع الإسلام في قلبه، وحببه الله إليه، وحبب إليه رسوله فقال: والله إنك لكريم، فداك أبي وأمي، والله لقد حاربتك فنعم المحارب أنت، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرا.

وانتقل أبو سفيان منذ تلك الساعة من التردد في الإسلام إلى الرضى والإذعان، فلما أرسل الصديق جيوشه لفتح الشام، كان أبو سفيان مع ابنه معاوية تحت راية ابنه يزيد، ولما قامت معركة اليرموك، وحمي الوطيس وكادت الأقدام تتزلزل، وقف أبوسفيان يحث المقاتلين على الثبات ويقول: الله الله، إنكم أنصار الإسلام، ودارة العرب، وهؤلاء أنصار الشرك، ودارة الروم، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك.. وكان يدعو ويقول: يانصر الله اقترِب !!.

وروى ابن سعد عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك، إلا صوت رجل يقول: يانصر الله اقترب، فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد، وأصيبت عينه الأخرى يوم اليرموك فأصبح أعمى، وكان عماه في سبيل الله، رضي الله عنه وأرضاه!!

وروى له البخاري حديثا[1] عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره أن هِرَقْلَ أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجارا في الشام، فأتوه في إيلياء - هي بيت المقدس - وحوله عظماء الروم، فسأل هرقل أبا سفيان عن هذا الذي يزعم أنه نبي، فأجاب عن أسئلته

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري الحديث رقم ٧

كلها فصدق.. قال هرقل بعدها: إن كان ماتقول حقا فسَيَمْلِك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، فلم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه !!

قال أبو سفيان: فلما قال هرقل ما قال.. وأخرجنا، فقلت لأصحابي:.. إنه يخافه ملك بني الأصفر، فمازلت موقنا أنه سيظهر، حتى أدخل الله على قلبي الإسلام !!

وروى الزبير بن بكار عن أبي الهيثم عمن أخبره أنه سمع أبا سفيان بن حرب يمازح رسول الله ﷺ في بيت بنته أم حبيبة ويقول: والله إن هو إلا أن تركتك فتركتك العرب، وما انتطحت فيك جماعة ولا ذات قرن، ورسول الله ﷺ يضحك ويقول: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة».

ألا ما أبعد ما بين الأمس واليوم.. بالأمس كان أبو سفيان معادياً للإسلام محارباً له، وهاهوذا اليوم مسلم محب لله ورسوله، يود رسول الله ﷺ، ويفديه بالنفس والمال، وصدق الله فيما بشر به رسوله ﷺ وأصحابه فقال: ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

كان لأبي سفيان منزلة واحترام عند الصحابة لمنزلته من قريش ولأنه كان كبير بني أمية، وكان عمر يكرمه ويعلي منزلته، فلما كانت خلافة عثمان عظمت منزلته، وكان يحب الرياسة والذكر، وما مات حتى رأى ولديه يزيد ثم معاوية أميرين على الشام.

توفي أبو سفيان بالمدينة سنة إحدى وثلاثين، وقيل بعد ذلك، وكان عمره نحو تسعين سنة رحمه الله ورضي عنه.

٢- إسلام فضالة بن عمير:

وكان فضالة بن عمير الليثي شديد العداوة للنبي ﷺ، فأراد أن يقتله وهو يطوف بالكعبة، فلما اقترب منه قال: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله؟ قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لاشيء، أذكر الله، فضحك ﷺ، ثم قال: أستغفر الله لك.

---

(١) الممتحنة ٧.

فعلم فضالة أن محمدا قد علم ما في نفسه ـ فأخذته دهشة ورهبة، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، ودعا له، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه!!. ألا ما أعظمه من حب وما أعجبه من انقلاب، وما أعظمها من رحمة أودعها الله تعالى قلب رسوله الذي أرسله رحمة للعالمين !!

٣- إسلام صفوان بن أمية:

كذلك كان صفوان بن أمية شديد العداوة للنبي ﷺ، فلما رأى دخول جيوش الفتح خرج إلى جدة يريد أن يركب البحر إلى اليمن، فجاء عمير بن وهب فقال: يا رسول الله، صفوان بن أمية سيد قومه، قد خرج هاربا منك إلى اليمن. فقال ﷺ: هو آمن، قال: فأعطني علامة يعرف بها أمانك، فأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحق عمير صفوانَ إلى جدة فرآه يريد أن يركب السفينة فقال: يا صفوان: الله الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به، فلم يصدِّق صفوان فقال: ويحك اغرب عني فلا تكلمني. قال عمير: أي صفوان.. أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، ابن عمك عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، وأراه عمامة رسول الله ﷺ، فرجع صفوان حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: إن هذا يزعم أنك أمَّنتني؟! قال: صدق. قال: فاجعلني فيه في الخيار شهرين قال: أنت فيه بالخيار أربعة أشهر، ثم ما لبثت فاختة بنت الوليد أن جاءت بزوجها صفوان بعد ذلك فأسلم وحسن إسلامه!!.

٤- إسلام عكرمة بن أبي جهل:

كذلك كان عكرمة بن أبي جهل للإسلام مناوئاً، وله محارباً، وقد شهد بدرا وما بعدها مع قريش وكان على يقين أنه لن ينال عفو النبي ﷺ، ولن ينجو من سيوف المسلمين لو ظفروا به، فولّى هاربا إلى اليمن، فلما رأت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام عفو النبي ﷺ عن أمثاله أتته فاستأمنت له من النبي ﷺ فأمنّه، فلحقت به إلى اليمن، وجاءت به فأسلم وحسن إسلامه.

وعرف النبي ﷺ لعكرمة صدق إسلامه، وعلوَّ منزلته في قريش، فرحمه وأعلى

قـدره، ونهـى النبـي ﷺ أصـحابه أن يسبّوا أبـاه وقـال: «لا تـؤذوا الأحيـاء بسبٍّ الأموات»، وقـد اعتـذر عكرمـة عـن نفسـه، ومـا كـان منـه، وسـأل رسـول الله ﷺ أن يستغفر لـه فاستغفر، فقـال والله لا أدع نفقـة كنـت أنفقهـا في صـدٍ عـن سـبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالا قاتلته إلا قاتلت ضعفه.

ولقد برَّ وأوفى بقسمه، فلم يألُ في نصرة الإسلام، ولم يبخل بنفس ولا مال، فلما كانت حروب الردة أرسله أبوبكر قائدا على جيش إلى مسيلمة الكذاب في اليمامة، ثم أرسله إلى اليمن، فلما ذهبت الجيوش لفتح الشام، كان عكرمة في صفوف المجاهدين، فلما كانت اليرموك اختاره خالد بن الوليد قائدا على أحد الكراديس، فلما اشتدت المعركة وزلزلت الأقدام نزل عكرمة عن فرسه، وقال: قاتلت رسول الله في كل موطن، وأفرّ منكم اليوم؟!! ثم نادى: من يبايع على الموت، فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، منهم الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور، فقاتلوا أمام فسطاط خالد، حتى أثبتتهم الجراح، فاستشهد أكثرهم، وأتي خالد بعكرمة جريحا فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه، وأخذ يقطر في حلوقهما الماء ويقول: زعم ابن أبي الحنتمة[1] أنا لا نستشهد!!، ووجد به بضع وسبعون ما بين ضربة وطعنة، واستشهد معه سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وقد تدافع هؤلاء الماء وهم يجودون بأرواحهم، في موقف عجيب.

طلب عكرمة الماء فرأى سهيلا ينظر إليه فقال للساقي: ادفعه إليه، فلما أراد سهيل أن يشرب، رأى الحارث بن هشام ينظر إليه من العطش، فقال: ادفعه إليه، فلما ذهب إليه وجده قد مات، فرجع إلى عكرمة فوجده قد مات، فرجع إلى سهيل فوجده قد مات.

وبعد.. فانظر كيف هدى الله تعالى أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وفضالة بن عمير، وعشرات آخرين من زعماء قريش وأبناء

(١) يريد عمر بن ا لخطاب وحنتمة هي أمه.

زعمائها وكبرائها مع قريش وأحابيشها، فإذا هم صحابة كرام يقاتلون في سبيل الله، بعد أن قاتلوا في سبيل الطاغوت دهراً طويلا!!.

فسبحان من أرسل سيدنا محمدا ﷺ رحمة للعالمين، وأمره بالصبر والحلم والعفو حتى فتح الله به أعيناً عمياً، وآذانا صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً، فأصبحوا بفضل الله ورحمته من الصحابة الأبرار الفائزين!!.

فانظر كيف كان فتحه عفواً ورحمة بأهل مكة، رغم أنه دخلها بجيش عظيم من المهاجرين والأنصار، وبعد سنوات طويلة من الجهاد والتضحيات، والصبر والمصابرة، لقد كان تحت إمرته جيش من عشرة آلاف مقاتل، لاقبل لأهل مكة بهم ولا طاقة، فقدم العفو على الانتقام، وقد أعلن أن من دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، لئلا تسفك في ذلك دماء، وأمر القواد أن لايبدأوا بقتال، وأن لايقاتلوا إلا من قاتلهم، فتفرق الناس إلى بيوتهم والى المسجد، وخرج الذين خافوا على أنفسهم والذين كانوا يودون أن يقاتلوا المسلمين إلى أبي قبيس والجبال المحيطة بالمسجد، ودخلت جيوش الفتح من جهات كثيرة دون قتال، واضطرَّ خالد بن الوليد أن يقاتل الذين قاتلوه، وقَتَل عددا منهم، حتى تفرقوا أمامه، فلما علم النبي ﷺ بذلك أصدر إليه أمره أن يرفع يديه عن القتل، ودخل رسول الله ﷺ على ناقته خافضاً رأسه، يكاد وجهه الشريف يمسُّ الرَّحْلَ، شكرا الله على نصره وتأييده وعنايته، لقد دخل دخول نبي كريم رؤوف رحيم، دخول من أرسله الله رحمة للعالمين. ولم يدخل دخول المنتصرين الجبارين الذين يبطشون وينتقمون وينكلون بأعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم وآذوهم وقاتلوهم، بل قابل ذلك بالصفح الجميل، والعفو الرحيم، ولو شاء أن يثأر وينتقم لتساقطت الرؤوس كما يتساقط ورق الخريف، ولسالت الدماء أنهارا. ولكن هذا ليس من طبعه، ولا من أخلاقه، ألم يأته ملك الجبال حين أخرجوه وآذوه فعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشَبَين ـ الجبلين ـ فقال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا اله الا الله، ثم دخل مكة في حماية المطعم بن عدي وعهده».

وهاهو ذا اليوم في قمة انتصاره وقدرته، يقطف ثمار صبره وصبر أصحابه

وجهادهم، فتحا مبينا، دون علو في الأرض ولا فساد، ولا زهو ولا استكبار، بل في تواضع وتذلل لله وانكسار، ثم قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وهذا من دلائل نبوته، فإنه لا يستطيع أن يفعل هذا إلا نبي !!.

ورغم ذلك فإنه أمر بقتل نفر لا يجدي معهم غير القتل، من أكابر المجرمين الذين آذوه وآذوا أصحابه، فأمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة، وهم ثمانية رجال وجاريتان، ثم عفا بعد ذلك عن ستة منهم تشفَّع فيهم بعض أقربائهم، ثم أسلموا وحسن إسلامهم، وهم: (عكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وزهير بن أمية، وعبد الله بن سعد بن عامر، ومولاة لبعض عبد المطلب، وقينة كانت تغني بهجاء النبي ﷺ)، فهؤلاء عفا عنهم، وقتل الأربعة الباقين وهم عبد الله بن خطل، كان مسلما فارتد وقتل غلاما مسلما كان يخدمه، والحويرث بن نقيذ كان من أشد قريش أذى للنبي ﷺ، وهو الذي نخز البعير بابنتيه فاطمة وأم كلثوم حين خرجتا مهاجرتين فرمى بهما إلى الأرض، وكانت أم كلثوم حاملاً من عثمان فألقت ما في بطنها، وجرحت فاطمة -رضي الله عنها. وقتل ومقيس بن حبابة، كان مسلما ثم ارتدّ، وقتل رجلا من الأنصار لأنه قتل أخاه بطريق الخطأ، وقتلت قينة لعبد الله بن خطل كانت تغني بهجاء النبي ﷺ فهؤلاء الأربعة فقط هم الذين قتلوا من كبار المجرمين فاجتمع في الذين عفا عنهم العفو والرحمة وفي الذين قتلوا الحزم والشدة !! وسبق عفوه ورحمته غضبه وانتقامه، وأسرع إليه قومه يدخلون في دين الله أفواجا.

* * * *

الصحابة في حنين

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا.. ﴾

هوازن وثقيف تجتمع على الحرب:

فزعت هوازن وثقيف من فتح مكة وكانوا يسكنون الطائف، وأجمعتا على قتال المسلمين، فجمعهم مالك بن عوف سيد هوازن، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم إلى أوطاس، فعزم النبي ﷺ على قتالهم، فخرج بجيش الفتح، وخرج من أهل مكة ألفان، فقال النبي ﷺ: لن نغلب اليوم عن قلة!!

لم يقل النبي ﷺ هذا إعجابا بكثرة العدد، بل قال ذلك ليعلم أصحابه أن الجيش إذا بلغ اثني عشر ألفا فإنه لا يهزم بقلة، بل بأسباب أخرى.

ولكن كثيرا من الصحابة ظنوا أنهم لن يهزموا بعد ذلك اليوم لما أصبحوا عليه من الكثرة، وشاء الله عز وجل أن يعطي المسلمين درسا خالدا، وأن يكون هذا الدرس قرآنا يتلى إلى يوم القيامة.

يوم كيوم أحد!!.

علمت هوازن وثقيف بخروج المسلمين إليهم فأعدت لهم كمائن في وادي حنين قريبا من الطائف ـ على طريق مكة، فلما وصل المسلمون وادي حنين في غبش الصبح خرجت الكمائن من المضايق والشعاب ففاجأت المسلمين وأوقعت بهم، فتراجع الناس، وولت الخيول هاربة، حتى قال بعض من أسلم من أهل مكة ومنهم أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.. وقيل إن أبا سفيان قال: الآن بطل السحر..!! ولم يثبت مع النبي ﷺ إلا نفر[1] من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، فأحاطوا ببغلته البيضاء، فنادى قائلا: إليّ عباد الله.. أنا النبي لا كذب.. أنا ابن عبد

---

(١) دون العشرة.

المطلب، وقال لابن عباس: نادِ أصحاب السمرة - يعني الذين بايعوه تحت الشجرة - قال: فقلت بأعلى صوتي: يا أصحاب السمرة.. قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك.. يا لبيك..، وكان النداء: يا للأنصار، فلما سمع الصحابة ذلك تذكروا فإذا هم مبصرون، وأذهب الله عنهم كيد الشيطان فرجعوا إلى المعركة مسرعين حتى انتهوا إلى النبي ﷺ، فاجتمع حوله منهم طائفة تقارب المائتين، فحموا رسول الله ﷺ، من تلك الجموع الكثيرة، ولم يزل الصحابة يقبلون من حيث ولّوا وأدبروا حتى اجتمعوا على المشركين يقاتلونهم بضراوة واستبسال، ويمنعون رسول الله ﷺ من العدو، كما دافعوا عنه يوم أحد، فلما رأى النبي ﷺ قتالهم وحسن بلائهم سره ذلك وقال: «هذا حين حمي الوطيس»[1] أي هؤلاء هم أصحابي في الساعات العصيبة، لا يبلي بلاءهم أحد، ولا يقدر على هزيمتهم عدو!!.

قال ابن عباس: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد! قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا!!.

وفي رواية لمسلم: فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال: شاهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة، فولوا مدبرين!!. وأنزل الله ملائكته بالنصر، وقذف في قلوب المشركين الرعب فولوا الأدبار، وتركوا نساءهم وأبناءهم وأموالهم، واشتد المسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون، فما رجع الناس إلا والأسرى بين يدي رسول الله ﷺ، فكانت مغانم كثيرة، وفي يوم حنين أنزل الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ

---

(١) رواه مسلم.

﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (١).

وقاتل أبو طلحة الأنصاري، وكان قريبا من النبي ﷺ، وكانت معه زوجته أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك، فقال لها النبي ﷺ: أم سليم؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أقْتُل الذين ينهزمون عنك.. وكانت تحمل خنجرا، فسألها زوجها والنبي يسمع: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر اتخذته إن دنا أحد من المشركين بعجته به، فقال رسول الله ﷺ: يا أم سليم إن الله قد كفى وأغنى!!.

حصارهم في الطائف:

ولَّت ثقيف وهوازن الأدبار واعتصمت بحصن الطائف، فتبعهم المسلمون فحاصروهم بضعة عشر يوما، ثم أراد النبي ﷺ أن يدعهم رحمة بأصحابه فقال: إنا قافلون إن شاء الله. فقال بعض الصحابة نرجع ولم نفتحه!! فقال: اغدوا على القتال، فغدوا عليه من الغد، فأصابهم جراح، «ورأى رسول الله ﷺ أن أمر ثقيف وهوازن قد انتهى، وأنهم مسلمون عما قريب»، فقال: إنا قافلون غدا، فسر الناس بذلك، فتبسم رسول الله ﷺ!! وقال بعض الصحابة: يا رسول الله ادع على ثقيف!! فقال: اللهم اهد ثقيفا وأت بهم!!.

فانظر إلى من بعثه الله رحمة للعالمين، كيف أبى أن يدعو على ثقيف، بل دعا لهم، فاستجاب الله دعوته، فما لبثت ثقيف أن أرسلت إلى المدينة وفدها فأعلنوا إسلامهم وإسلام من وراءهم!!.

غنائم حنين:

كانت غنائم المسلمين يوم حنين عظيمة لم يغنموا مثلها من قبل، فأمر النبي ﷺ بالسبي والغنائم فجمعت في الجعرانة، فلما قفل من الطائف قسمها هناك، فكانت

---

(١) التوبة /٢٥، ٢٦

الإبل أربعة وعشرين ألفا، والغنم أربعين ألفا، وأربعة آلاف أوقيه من الفضة، والسبي ستة آلاف.!!.

ثم قدم عليه وفد من هوازن مسلمين، وسألوه أن يرد عليهم أموالهم، فقال: اختاروا إحدى الطائفتين، إما السبي .وإما المال .وكان النبي ﷺ قد طمع في إسلامهم، فأخر قسم السبي والغنائم حين رجع من الطائف .فقالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا فالحسب أحب إلينا.. فقام في الصحابة خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين، فإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب أن يُطَيِّبَ ذلك فليفعل، فنادى الناس جميعا: قد طيبنا ذلك يا رسول الله فقال: لا ندري من أذن ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم.. فرجع العرفاء بعد ذلك فقالوا إنهم قد طيبوا وأذنوا، فأعاد إلى هوازن سبيهم، ثم سأل ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف سيد هوازن وقائدهم ما فعل؟ قالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فأراد أن يتألف قلبه فقال: أخبروه أنه إن أتى مسلما رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل. فلما أخبروه بذلك لحق برسول الله ﷺ حتى أدركه بين الجعرانة ومكة فأسلم، فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل!!.

المؤلفة قلوبهم:

أقام النبي ﷺ في الجعرانة ومعه تلك الغنائم الكثيرة.. فلما رد على وفد هوازن أسراهم وسبيهم قسم الغنائم، فأعطى المؤلفة قلوبهم من كبراء قريش فأجزل لهم العطاء، أعطى أبا سفيان مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة، وأعطى الحارث بن هشام مائة، وأعطى سهيل بن عمرو مائة، وأعطى عيينة بن حصن مائة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة، وأعطى صفوان بن أمية مائة، وأعطى دون المائة رجالا آخرين من أشراف قريش.. وسخط عباس بن مرداس .وكان شاعرا .لأنه لم يعط مائة، فقال في ذلك شعراً، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه، فأعطوه حتى رضي!!.

عتب الأنصار!!:

قسم النبي ﷺ غنائم حنين في قريش والمهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئا ـ ثقة بإيمانهم وإيثارهم ـ فقال بعض الأنصار: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!!.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأحزنه، فأرسل إليهم، فاجتمعوا في مكان، ولم يجتمع معهم أحد غيرهم، ثم جاءهم فخطب فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم؟ فقال له فقهاؤهم: أما ذوو آرائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشا ويترك الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟.

فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل. ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل!!.

الثناء العظيم:

فلما رأى صدق اعتذارهم وعمق إيمانهم ذكرهم بسابق فضلهم، وعظيم مواساتهم وتضحياتهم فقال: أما والله يا معشر الأنصار، لو شئتم لقلتم فلصدقتم: أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلا فآسيناك.. فصاحوا: بل المن علينا لله ولرسوله.. فقال: أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟! فوالله لَما تنقلبون به خير مما ينقلبون به!! والذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، وسلك الأنصار شعبا، لسلكت شعب

---

(١) لعاعة: بقلة خضراء تعجب الناظرين، وأراد بذلك الدنيا!!.

الأنصار، وإنكم ستلقون أَثَرة من بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.!! فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسما ونصيبا[1].

نظرة وتأمل:

إن من يتأمل هذا العتاب النبوي الكريم، وما يفيض به من الحب والرقة والعذوبة والاعتراف للأنصار بالفضل، فسوف يرى ما للأنصار من حب ومكانة عالية في قلب النبي ﷺ، وما أحدثه الإسلام فيهم من التأثير العظيم.. وما قدموه للنبي ﷺ ولأصحابه من النصرة والمواساة والإيواء.

وقد جاء جواب الأنصار على مستوى رفيع من الدلالة على صدق الإيمان والتواضع لله والتوقير للرسول ﷺ، فقد ردوا الفضل إلى الله ورسوله، فالله هو الذي هداهم، والنبي هو الذي علمهم ورباهم، وامتزجت كلماتهم بالحزن والدموع والأسف مما قالوه، وبالفرح والرضي بما وجدوه في كلمات النبي ﷺ من الحب إلى حد لم يتخيلوه، وحين أخبرهم أنه لن يقيم في بلده وبين عشيرته، بل سيعود معهم إلى مدينتهم، فالمَحْيا محياهم والممات مماتهم.. تضاءلت الدنيا في أعينهم، وعلموا أنهم قد فازوا أعظم الفوز.. وأنه إذا رجع غيرهم بالشاة والبعير، فإنهم سيرجعون بالنبي ﷺ .. فما أعظمه من فوز تتضاءل أمامه الدنيا بحذافيرها، بل إن شعرة واحدة من رسول الله ﷺ أحب إليهم من الدنيا ومافيها، فكيف وقد أخبرهم أن المحيا محياهم، والممات مماتهم.!!

ثم أخبرهم أنه إذا أعطى من هو أقل منهم مكانة وإيمانا، فإنما فعل ذلك ثقة بإيمانهم، وسياسة حكيمة ليتحول بها هؤلاء إلى مؤمنين صادقين، وجنود مخلصين، يقاتلون في سبيل الله بعد أن طال قتالهم في سبيل الطاغوت.. فما أبرّه من عطاء، وما أحكمها من سياسة!!. فبأبي أنت وأمي يا رسول الله!!.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن إسحاق بنصوص متقاربة في بعضها زيادة ونقصان.

ثم تأمل وانظر بعد ذلك كيف بين أنه لولا الهجرة لانتسب إلى الأنصار، ولو سلك غيرهم طريقا، وسلكوا هم طريقا لسلك طريقهم وسار معهم.. فكيف إذا نظرنا في دعائه للأنصار ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الانصار بالرحمة، فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله ورسوله قسما ونصيبا!! فبأبي أنتم وأمي أيها البررة الأنصار، ما أبلغ بكاءكم، وما أعظم حبكم لنبيكم!! وياله من موقف يغني عن كل تعليق، ونسألك اللهم أن ترزقنا حب الصحابة، وحب الأنصار، وأن تطهر قلوب الجاهلين من بغضهم وشتيمتهم، ومن الجرأة عليهم، فإنه لا يبغضهم إلا زنديق.. ولا يتجرأ عليهم إلا سفيه، ولا ينال منهم إلا صاحب هوى.. وندعوك اللهم بما أمرتنا فنقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

* * * *

(١) سورة الحشر ١٠

الصحابة في غزوة تبوك

أحدث فتح مكة رهبة كبيرة في قلوب الروم، وأحس هرقل أن سلطانه على بلاد الشام أصبح مهددا، فأراد أن يتحرش بالمسلمين ويغزوهم على حدودهم، وأعد لذلك جيشا، فأعانته القبائل العربية المتنصرة من لخم وجذام وغسان، وأمدته بجموع من رجالها، فبلغ مجموع ذلك الجيش أربعين ألفا، وأرسل طليعة من ذلك الجيش إلى إيلياء على خليج العقبة قريبا من تبوك!! فلما علم النبي ﷺ بذلك أمر الناس بالتجهز إلى تبوك، وحض الأغنياء على تقديم العون للفقراء، وشراء الدواب وبذل الأموال.

كانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وكان الوقت خريفا والحر لم تنكسر حدته بعد،(١) فأعلم النبي ﷺ الصحابة بوجهتهم، وأنه ذاهب لملاقاة الروم في تبوك، ولم يكن يبين للناس وجهتهم في الغزو إلا في هذه الغزوة، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو ليتأهب الناس لذلك، قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، واستقبل عددا كثيرا فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد.. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال»(٢).

استعداد الصحابة وبذلهم:

تلقى الصحابة أمر النبي ﷺ بالرضي والقبول، وبدأوا يستعدون ويعدون للغزو

---

(١) رجعنا إلى التقويم فوجدنا أن الغزوة كانت في الشهر العاشر (تشرين أول / أكتوبر) وفيه تكون الشمس في برج الميزان ثم في برج العقرب، وهي فترة ذات حر شديد بين مكة والمدينة وتبوك، وقد أثبت القرآن الكريم الحر لهذه الفترة بقول المخلفين الذين قالوا: {لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ} فسخر الله تعالى منهم وقال: {.. قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ} (التوبة /٨١).

(٢) متفق عليه.

عدته من ظهور وأسلحة وأزواد، ومكث الفقراء ينتظرون من إخوانهم الأغنياء أن يقدموا لهم عدة الغزو، وجاد أغنياء الصحابة بأفضل ما يملكون وأقصى ما يستطيعون، فجاء أبو بكر رضي الله عنه بماله كله، وجاء عمر رضي الله عنه بشطر ماله، وجهز عثمان رضي الله عنه ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، وجاء بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي ﷺ فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: ما ضر عثمان بعدها، أو قال: ما ضر عثمان بعد اليوم!! وقال: اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض.

ولم يقصر الأعراب من المؤمنين بالبذل، فقدم كل امرىء منهم ما استطاع، وكان أكثرهم فقراء ليس لديهم ما يتصدقون به، فبذلوا جهدهم في الصدقة، وقد أثنى الله تعالى على هؤلاء الأعراب فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(١).

واشتد حرص الصحابة على الخروج إلى تبوك رغبة في الأجر، وتمنى أصحاب الأعذار أن يكونوا قادرين على الغزو، وجاء رجل أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟!! وجاء بعض أهل الحاجة من الصحابة إلى النبي ﷺ ـ وكانوا سبعة نفر ـ يسألونه أن يعطيهم ما يركبون، فقال: والله لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وهم يبكون، فلما علم الله حرصهم على الجهاد في سبيله ـ وهو بكل شيء عليم ـ أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾(٢) فسمي هؤلاء البكاؤون!! وهم سبعة نفر، قيل منهم العرباض بن سارية، وسالم بن

---

(١) التوبة ٩٩

(٢) التوبة ٩١-٩٢

عوف، وعبد الرحمن بن كعب، وقد اختُلِف في أسماء هؤلاء السبعة، فالله أعلم بهم، وكفى بالله عليما.

موقف المنافقين:

اشتد غيظ المنافقين بعد فتح مكة والطائف ودخول الناس في الإسلام أفواجا، فلما عزم المسلمون على السير إلى تبوك وجاء كل قادر بنفقته، ازدادوا كيدا وغيظا، وكان لا يسلم من ألسنتهم أحد، فمن جاء بشيء كثير قالوا: هذا مراءٍ، ومن جاء بقليل سخروا منه وقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا!!، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

ولم يقف أذى المنافقين عند هذا، بل كانوا يثبطون المؤمنين ويخوفونهم من قتال الروم فيقولون: أتحسبون أن قتال بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا، والله لكأنّا بكم غدا مقرّنين في الحبال!! وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، فاجتمعوا عليه، وقال بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر!! ولما سار الصحابة إلى تبوك تخلف المنافقون في ضاحية المدينة، فأنزل الله في شأنهم قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾(٢).. وجاء الجد بن قيس - وهو من المنافقين - إلى النبي ﷺ فقال: ائذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر!! فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وأذن له، فأنزل الله تعالى فيه وفي أمثاله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾(٣).

---

(١) التوبة ٧٩.

(٢) التوبة ٨١.

(٣) التوبة ٤٩

قصة أبي خيثمة!!:

خرج النبي ﷺ بجيش العسرة إلى تبوك يوم الخميس ومعه نيف وثلاثون ألفا من الصحابة، فكان أكبر جيش خرج به النبي ﷺ في حياته المباركة، وخرج أهل المدينة فلم يتخلف إلا معذور أو منافق، وكان قد تخلف عنه أربعة أبطأت بهم النية فتخلفوا عن هذه الغزوة من غير شك ولا ارتياب، منهم أبو خيثمة، وكان قد خرج إلى تبوك وسار أياما، فاشتد عليه الحر يوما فرجع إلى المدينة، فلما عاد إلى بستانه ورأى امرأتيه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت فيه الماء وهيأت الطعام أنكر ذلك على نفسه وقال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمه في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، مقيم في ماله!!.. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ!!.

ثم نهض فلحق به، فلما دنا ركبه قرب تبوك ورآه بعض الصحابة قالوا: هذا راكب في الطريق، فقال رسول الله ﷺ .. كن أبا خيثمة، فلما اقترب قالوا: هو أبو خيثمة، فلما سلم على رسول الله ﷺ قال له كالمعاتب: أولى لك يا أبا خيثمة!!، فأخبر أبو خيثمة النبي ﷺ بخبره فقال له خيرا ودعا له!!.

قصة أبي ذر!!:

وفي الطريق أرسل أبو ذر بعيره ليرعى فأبطأ عنه فانتظره فلم يعد إليه، فاحتمل متاعه على ظهره وخرج يتبع رسول الله ﷺ فلما لحق بالجيش ورآه رجل قال: يا رسول الله هذا رجل ماش على الطريق، فقال: كن أبا ذر، فلما تبين قالوا: هو أبو ذر، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده!! وقد كان كما قال، فمات في الربذة حيث اعتزل الناس في خلافة عثمان رضي الله عنهما !!.

معجزتان في الطريق:

كانت أيام تبوك أيام عسرة وشدة، فقد روى الإمام أحمد عن محمد بن عقيل في

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ قال: خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا في حر شديد، فأصابهم في يوم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها، ويشربوا ماءها، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع الله لنا، قال: نعم، قال: فرفع يديه نحو السماء، فظهرت سحابة ثم سكبت فملؤوا مامعهم!!.

وروى الإمام مسلم عن أبي كريب، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد الخدري ـ شك الراوي ـ قال: لما كانت يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادّهنا، فقال: افعلوا، فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قل الظَهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، وادع الله لهم فيها بالبركة، لعل الله أن يجعل فيها البركة.. فقال: نعم، فدعا بنطع[1] فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف من التمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوها، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بها عبدٌ غير شاك فيحجب عن الجنة!!.

ما فعله النبي ﷺ في تبوك:

لما وصل رسول الله ﷺ وأصحابه إلى تبوك مكث بها بضع عشرة ليلة، وقذف الله الرعب فى قلوب الروم، وخشي هرقل لقاء المسلمين فلم يبرز لهم، ثم أتاه يوحنة بن رؤبة صاحب أيلة[2] (إيلات) فصالحه على الجزية، وكتب كتاب أمان له ولأهل أيلة

---

(١) بساط من جلد.

(٢) ايلة، وايلات: هي مدينة العقبة ذات الميناء المشهور.

على سفنهم وقوافلهم في البر والبحر.!! ثم أتاه أهل جرباء وأذرح [1] فصالحوه على الجزية وكتب لهم أمانا، وأن عليهم النصح والإحسان إلى المسلمين، ثم بعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل في أربعمائة وعشرين فارسا (وكان ملكها أكيدر بن عبد الملك، نصرانياً من كنانة)، فقال النبي ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر، فوجده كما أخبره في ليلة مقمرة، فتلقته خيل خالد فأخذوه، فلما قدم خالد بأكيدر على تبوك صالحه النبي ﷺ على الجزية ثم خلى سبيله!!. ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعا إلى المدينة.

وبذلك أدت غزوة تبوك غرضها، فأدخلت الرهبة في قلوب الروم ومن شايعهم من القبائل العربية، وأعطى صاحب أيلة وأهل أذرح وصاحب دومة الجندل الجزية، وأظهروا النصح للمسلمين، وكفى الله المؤمنين القتال.

خبر الاثني عشر منافقا:

اندس في جيش العسرة اثنا عشر منافقا بقصد التجسس والمكر والإيذاء، وكان من خبرهم ما رواه البيهقي عن حذيفة بن اليمان أنه لما قفل المسلمون من تبوك، وكانوا في وادي المشقق هَمَّ هؤلاء المنافقون بالفتك بالنبي ﷺ، بأن يطرحوه من رأس عقبة كانت في الطريق فأطلع الله تعالى رسوله على ما أرادوا، فأمر الناس أن يسيروا من الوادي، وأمر عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، فكان عمار آخذا بخطام الناقة يقودها، وحذيفة يسوق الناقة، فبينما هم يسيرون في الليل، إذ بأولئك المنافقين قد تلثموا يغشونهم، فلما رأى حذيفة ذلك رجع إليهم بمحجن، فأخذ يضرب وجوه رواحلهم بمحجنه، فلما رأوا أنهم لن يصلوا إليه أسرعوا فاختلطوا بالناس.. فسأل النبي ﷺ حذيفة فقال: هل عرفت هؤلاء القوم؟ قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل، فأخبره النبي ﷺ بخبرهم، وذكرهم بأسمائهم، فقال: حذيفة: ألا تأمر بقتلهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه!!.

---

(١) جرباء وأذرح: مناطق وقرى في جنوب الأردن.

وروى مسلم عن قيس بن عبادة أن حذيفة أخبره عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة»[1] (سراج من النار يظهر في أكتافهم)، وفي هؤلاء المنافقين أنزل الله عز وجل: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2].

معجزة نبوية:

وكان من خبر هؤلاء المنافقين أن ناقة رسول الله ﷺ ضلت، فذهب بعض الصحابة يبحثون عنها، فقال منافق لمن حوله: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويخبركم خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟!! فجاء الوحي فأخبر النبي ﷺ خبر المنافق وماقال، فأخبر رسول الله ﷺ عمارة بن حزم الأنصاري بما قال المنافق فقال: إن رجلا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويخبركم خبر السماء وهو لايدري أين ناقته؟ - ولم يكن عمارة يعلم من القائل - وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، هي في الوادي، قد حبستها شجرة بزمامها، فجاؤوا بها فرجع عمارة إلى رحله فحدثهم عما جاء رسول الله من خبر ذلك المنافق، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة: إنما قال ذلك زيد بن اللصيت - وكان زيد في رحل عمارة - فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إن في رحلي لداهية وأنا لا أدري؟!! اخرج عني يا عدو الله فلا تصحبنّي!!

معجزة نبوية أخرى:

كان في الطريق ماء يخرج من وشل[3] يروي اثنين أو ثلاثة، في واد يقال له وادي

---

(١) ذات الجنب هي الدبيلة وهي علة تثقب البطن ويقال: دبلتهم الدبيلة أصابتهم الداهية. وهي داء يجتمع في الجوف فتقتل صاحبها غالباً والدِّبْلُ الداهية.

(٢) التوبة ٧٤

(٣) الوشل: الماء القليل يرشح من صخرة أو جبل.

المشقق، فقال رسول الله ﷺ: من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقيَنَّ منه شيئاً حتى نأتيه، فسمع ذلك نفر من المنافقين فسبقوا إليه، فلما رأى رسول الله ﷺ أنهم استقوا منه لعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصبُّ في يده ما شاء الله أن يصب، ثم نفحه به ومسحه بيده ودعا بما شاء الله أن يدعو، فانخرق الماء.. فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه!!.

موت ذي البجادين:

ومات عبد الله ذو البجادين ليلا والمسلمون عائدون، من تبوك، فاحتفروا له حفرة، فنزل رسول الله ﷺ في حفرته، وتلقاه من أبي بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: اللهم إني أمسيت راضياً عنه فارضَ عنه، فحسد عبد الله بن مسعود ذا البجادين وقال: يا ليتني كنت صاحب الحفرة!!.

إنما الأعمال بالنيات:

فلما دنا المسلمون من المدينة أراد النبي ﷺ أن يبين حكم الذين تخلفوا عن السير إلى تبوك من أصحاب الأعذار، وأن لهم مثل أجر الذين ساروا، فقال: إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض!![١] وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر».. لأنهم لو لم يكونوا مرضى لما قعدوا عن الخروج!!.

جبل يحبُّنا ونحبُّه:

فلما أشرف المسلمون على المدينة قال النبي ﷺ: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه»[٢].

فانظر كيف أصبح الجبل الأصم وكأنه إنسان يخفق قلبه بحب النبي ﷺ وحب أصحابه رضي الله عنهم!! فما أضلَّ وأشقى الذين يبغضون الصحابة ويظنون بهم الظنون، ويلصقون بهم الأكاذيب !!.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

الثلاثة الذين خُلِّفوا:

لم يتخلف عن غزوة تبوك من الصحابة في المدينة إلا من عذر الله، وثلاثة أبطات بهم النية حين تخلفوا عن هذه الغزوة من غير شك ولا ارتياب، فلما عاد النبي ﷺ من تبوك جاءه المخلفون من المنافقين يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعا وثمانين رجلا فقبل علانيتهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، أما أولئك الثلاثة فقد عصمهم الله بإيمانهم من الكذب، وقد روى الشيخان قصة هؤلاء الثلاثة عن كعب بن مالك رضي الله عنه في حديث طويل، خلاصته أن هؤلاء الثلاثة حين أقروا بتخلفهم من غير عذر ترك النبي ﷺ أمرهم إلى الله، ونهى المسلمين عن كلامهم عقوبة لهم، فاجتنبهم الناس أجمعون، فلم يكلمهم أحد، فضاقت عليهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم، فأحسنوا التوبة وأظهروا الندم والبكاء، وكانوا يحضرون الجماعة في المسجد ولا يكلمهم أحد، حتى انقضت أربعون ليلة، فأرسل النبي ﷺ إليهم أن يعتزلوا نساءهم، فلما مضى على ذلك خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامهم، نزل القرآن الكريم بتوبة الله تعالى عليهم، فلما صلى المسلمون صلاة الفجر أخبر النبي ﷺ الناس بتوبة الله عليهم، فانطلق الناس يبشرونهم ويهنئونهم، فلما جاء كعب بن مالك قال له النبي ﷺ: أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك، قال كعب فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله عز وجل.. قال كعب: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله؛ إن من تمام توبتي أن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله والى رسول الله، فقال رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت: يا رسول الله، إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي إن لا أحدث أحدا إلا صدقا ما بقيت، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ

فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأَحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة - أي تركنا ليقضي الله فينا ماشاء - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟..﴾ وليس الذي ذكر تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[3].

هذه خلاصة قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وقد رأينا من أخبارهم ما يدعو إلى الدهشة والعجب في صدق أوبتهم وتوبة الله تعالى عليهم، وهؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقد قصصنا طرفا من أخبارهم وتضحياتهم، فلننظر ولنتأمل في حياة هؤلاء الصحابة، كيف بلغ بهم الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله حداً لا يخطر على بال، ولا يمكن أن يكون لهم مثيل ولا نظير في عصر من العصور أو بلد من البلدان!!.

---

(١) التوبة ١١٧ - ١١٨

(٢) التوبة ٩٥

(٣) متفق عليه.

لقد سارع الصحابة إلى الخروج، وأنفقوا في سبيل الله أموالهم، وبذلوا جهدهم، وتحملوا الحر والجوع والعطش الأغنياء والفقراء جميعا، وفي تعاون عجيب، فقد قدم الأغنياء أفضل ما يملكون من الأموال والأزواد والظهور، وقدم الفقراء وفقراء الأعراب ما يستطيعون، ومن لم يستطع أن يقدم شيئا حمله إخوانه فقدموا له الزاد والراحلة، فاستطاع كل قادر أن يخرج فلم يتخلف أحد!!.، وقد رأينا قصة الذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا لأن النبي ﷺ لم يجد ما يحملهم عليه، ثم حملهم بعد ذلك حين جاد إخوانهم الأغنياء بالظهور فخرجوا فرحين !!.

لقد خرج الصحابة إلى تبوك دون أن يكون عليهم حسيب إلا أنفسهم، فلم تكن لهم رتب عسكرية يخشون عليها، ولا رواتب مغرية يحرصون على دوامها!!. ولم يكن للجيش ديوان تكتب فيه الأسماء، ويعرف به الغائب من الحاضر، قال كعب بن مالك: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى ما لم ينزل فيه وحي من الله!!.

لقد خرجوا فلم تلههم أموالهم ولا أولادهم عن الجهاد في سبيل الله، وهم لم يذهبوا في جو بارد، ولا إلى طبيعة ذات أنهار وظلال، بل في حر شديد وأرض جافة شحيحة، وشقة بعيدة[1]، وعدو بأسه شديد، خرجوا ليحاربوا دولة لم يكن في الأرض دولة أقوى منها ولا أغنى، وكان هرقل قائدا مُطاعا، يستطيع أن يجمع لحرب المسلمين مئات الألوف، ولكن الله قذف في قلبه وقلوب قواده الرعب، فتجنب الصدام، وتوارى عن الأنظار!!.

أفيستطيع أحد بعد ذلك أن يزعم أن جيل هؤلاء الصحابة يمكن أن يتكرر مرة أخرى!!. فليسأل كل واحد منا نفسه هل يستطيع أن يكون مثلهم!! ولينظر في أحوال الناس حوله، وليسأل بعد ذلك: هل يمكن أن يوجد مثل هذا الجيل في يوم من الأيام؟!!.

---

(١) المسافة بين المدينة وتبوك ٧٠٠ كيلو متر.

هؤلاء هم صحابة رسول الله ﷺ، أولئك الرجال والنسوة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فاستحقوا التكريم، وكانوا جيلا متميزا، اعتز بهم رسول الله ﷺ، وكرّمهم وأكرمهم، وأمرنا بتوقيرهم واحترامهم وجعَلهم الأسوة لمن بعدهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

* * * *

الفهرس



هذا الكتاب

وقد حرصت في هذا الكتاب الذي أقدمه بين يدي الناشئة، أن أبسط فيه سيرة هذه الصفوة الطيبة الطاهرة من صحابة رسول الله ﷺ وأن يكون مستوعبا لأكثر صفاتهم وكمالاتهم، في صدق إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وتضحياتهم وجهادهم وزهدهم وورعهم وفي كراماتهم، وفي سلمهم وحربهم، لينهل شبابنا من هذا المنهل العذب ويأخذوا قطوفا دانية مشرقة من سيرهم، فهم الذين بلغوا عن رسول الله ﷺ، وجاهدوا معه، ونقلوا إلى الناس تلك السيرة النبوية العطرة، وكانوا النموذج الأمثل، والقدوة الحسنة، والأسوة الطيبة المباركة، لأنهم عاشوا معه، وتربوا في مدرسته، وأخلصوا له، وكانوا كما ذكرهم الله في التوراة والإنجيل:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾(٤)

من مقدمة المؤلف



ردمك ٧-٤٠-٦٧٨-٩٩٦٠